

غلوريا ألكورتا

السيادة السوداء

مجموعة قصص



ترجمة:

علي باشا

روايات عالمية « ٥٥ »



الإشراف الفني :
زهير المحمّد
الخطوط :
عبد الرزاق قصيبي

843
ألك
و

842

القصص لطيفة، الفرونية

القصص الفرونية

القصص الفرونية

الوسادة السوداء

مجموعة قصص

روايات عالمية

« ٥٥ »

غلوريا الكورتا

الولادة السوداء

مجموعتنا قصص

P. ٥٥٨٥٢

ترجمته:
علي باشا



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٥

العنوان الأصلي للكتاب :

GLORIA ALCORTA
L'OREILLER NOIR

BERNARD GRASSET
PARIS

1978

/ L'oreiller noir = المجموعة قصص

غلوريا الكورتا ؛ ترجمة علي باشا ، - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٥ . -

١٩١ ص ؛ ٢٤ سم . - (روايات عالمية ؛ ٥٥) .

١ - ٨٤٣ ؛ ل ك و ٢ - العنوان ٣ - العنوان الموازي

٤ - الكورتا ٥ - باشا ٦ - السلسلة

مكتبة الاسد

الايداع القانوني : ع - ١٥٩٧ / ١٠ / ١٩٩٥

وسادة حمراء ، وسادة سوداء

النوم ، والثدي على جانبه

بين النجم والمربع ،

كم الأعلام الممزقة !

«رونيه شار»

امتداد حياتي مربع من الآلام

«غ.أ.»

الزوجهاء

« لاتتحرك ، يا فلنتان » ، ولا تبذل أي جهد .

ركعت السيدة « بولين » على ركبتيها بجانب سرير الزوجية وأسرت في أذن الرجل الذي كان مستلقيا عليه ، قائلة : « سوف نكون سعيدين ، يا عزيزي » ثم وضعت خدها المفتلى بالمساحيق على خد زوجها المندى بالعرق .

ومضت تقول : « أتذكر ، لحظة وصولنا الى فرنسا ؟ كنت ، في الميناء ، تبدو كلوحة ، بمعطفك وقيثارتك التي كنت تحملها . أما أنا فكنت نحيلة جدا » .

واسترسلت السيدة « بولين » بضحكة طويلة بينما كانت تفتح قميص نوم زوجها وتكشف عن صدره الذي تتوزع فيه شعيرات بيضاء ، ثم أخذت تجسده خلالها ، بيد خبيرة .

« ان قلبك بحالة جيدة ، ولكن يجب أن نفسح المجال للدواء لكي يعمل عمله . وبعد ذلك سأساعدك على ارتداء ملابسك » .

كان شعر الفنتان يتموج على الوسادة دون نظام . وتابعت زوجته الكلام ، قائلة : « نحن أناس طيبون ، وجميع سكان الحي يحبوننا ، أليس كذلك يا فلنتان ؟ » ولكن الرجل لم يتفوه بأي جواب . كانت عيناه مغمضتين ، وفمه مطبقا . وجهته لاتخلو من سيماء الشهامة . كانت رائحة الكافور تفوح من الاغطية . وبعد صمت لم يستغرق سوى

بضعة ثوان ، انحنت السيدة « بولين » عليه وأسرت في أذنه : « اني أحبك ، يجب أن تصدقني حتى النهاية . (كان صوتها قد فقد نبرته الخفيفة) . وتابعت قائلة بأعلى صوتها : وبطبيعة الحال ، ما المانع من أن يحب كل منا الآخر ؟ فنحن أناس سعداء ، والسعادة فضيلة . كما قال الكاهن في القداس منذ بضعة أيام » .

وأضافت قائلة وهي تترنم بالكلمات : « عندما كان القارب يسير بنا صعودا عبر النهر ، أيام الأعياد ، كنت تحملني وتضعني على قاعدة أحد التماثيل الرخامية ، هناك في جزيرة « السول » . كنت تدور بي وأنا بين ذراعيك . كنت عند ذلك أشعر بمنتهى السعادة . كذلك ، عندما كنا نخرج من حفلات الرقص ، كان يجب رؤية النساء كيف كن ينظرن اليك . لقد جن جنونهن بهذا الفرنسي الذي كان يعزف على الكمان أمام الجميع كأنه موسيقي ايطالي . وبدرت من السيدة « بولين » تنهدة نمت عنها حركة تديبها ، وقالت : « أعطني يدك ، هو ذاك ، هكذا . . . انت ترى جيدا أن ذلك ليس صعبا . والآن قل لي أنك تحبني . اني بحاجة لأن تقول لي ذلك وأن أسمعه منك . لا تهز رأسك . أخشى أن يهرب قلبك من صدرك . أنت تعلم أن المرء يستعيد ذكرياته عندما يكون متعبا . »

وأمسكت يدي « فلنتان » ثانية وغطت بهما وجهها . وعندما رأت أنه ظل صامتا ، انتصبت واقفة ، وبحركة سريعة ، فتحت درج المنضدة ، وأخرجت منه أداة لامعة وأخذت تمر بها على خد المريض . وبعد عمل دقيق ، عثرت على شعرة متمردة قرب فتحة الأنف اليسرى . فأمسكت بها بين فكي الملقط الفولاذيين ، واقتلعتها .

ها قد أنجز العمل . أريدك أن تكون نظيفا عندما يراك الجيران تمر بعد قليل . ان هذه اللحى التي تشذب على الطريقة الفرنسية تبدو متميزة ولكنها أخذت تنتشر انتشار الأعشاب الضارة . ولو لم أكن هنا ، لو لم أتخل عن مشغل الخياطة الذي كنت أملكه كي أستطيع

العناية بك ، لكنك أصبحت عجوزا بائسا قذرا . وتابعت قائلة :
« والآن سأرتدي ملابسى ، فالجو رائع صباح هذا اليوم . لقد كتبت
الى دونا « كلارا » والى المفوض ، لاني أريد أن يعرفا أننا فكرنا بهما
اليوم . »

لم تفقد السيدة « بولين » مرونتها ودماثة خلقها . فنهضت وهي
تصوف وتندندن بجملته من أغنية « في سبيل قليل من الحب » . وفي
الشارع المبتل ، مرّ موزع البريد دون أن يتوقف ، ولكن قبل أن يختفي
وراء بقالية « ماكسيمو غوميز » ، التفت ليحيي بإشارة من يده المرأة
القصيرة ذات الشعر البرتقالي ، التي كانت تقف على عتبة منزلها .
عند ذلك غمرت السيدة « بولين » بعينها . واثنت ركبتيها ، ولكنها
بعد برهة قصيرة استردت لونها الطبيعي . وتمتمت بين شفيتها :
« كنت أعرف أن تلك الرسالة لن تصل : فمن يبالي أو يهتم بشخصين
قد بلغا سن الشيخوخة ؟ بالتأكيد لا أحد يهتم بهما . وعلى أية حال ،
أنا لا أهتم بهما مقابل أي شيء في العالم . » ودست أصبعها بسرعة في
شعرها ونثرته على جبينها ، وقالت : « انه لن يذهب الى الملجأ وأنا
على قيد الحياة . »

فتحت السيدة « بولين » الباب ودخلت .

« أين كنت يا عزيزتي ؟ » كان صوت الزوج ينفذ من تحت الاغطية .

« أشعر بحرارة شديدة ، اني أكاد أختنق . »

اجتازت السيدة « بولين » قاعة الطعام .

ولكن رغم شدة أنين وشكوى « فلنتان » ، فان زوجته لم تقترب

من سريريه . فقد كانت تتأمل وجهها في المرأة المعلقة فوق المغسلة .
« بولين ، يا صغيرتي ... »

لم يكن يبدو على المرأة ما يدل على أنها قد سمعته . وبحركة رشيقة،
نزلت بلوزتها ، وغسلت جبينها وتحت إبطيها وجففتها . كان شعرها
مشعثا . فأخذت تلف بعض خصيلات شعرها حول سبابتها وتوزعها
على جبينها .

« بولين ، حبيبتي بولين . آه ، انك تتظاهرين بأنك لا تسمعينني . »
وعندما أنجزت ترتيباتها ، التفتت نحو زوجها بوجه تعلوه سيماء الصفاء
والهدوء . ونجمت عن « فلنتان » دممة تنم عن التدمر ، تبعثها دمعتان
انسكبتا وسالتا عبر شعر لحيته .

فقال رقيقة حياته وهي تقترب منه : « هيا ، هيا . أنت ترى
جيدا أن الدواء قد أخذ يحدث تأثيره . لقد كانت دونا « كلارا » على
صواب : فانت تستطيع الآن التحرك ، وها أنت أيضا تتكلم ، بل
وتستطيع الجلوس . بلى . دعني أعمل . برافو ! هذا حسن ، كما
ترى ... والآن ، مدد ساقيك لاتنولهما . » وأخذت تساعد على
إخراج ساقيه من تحت الاغطية وعلى وضع قدميه على البلاط .

« يجب أن تصدقني ، يا « فلنتان » . فانت تعلم بأن لدي فكرة
معينة ، وتعرف بأننا سنكون سعيدين . فهل أنت تثق بكلامي وتصدقني؟
— نعم ، يا بولين ، نعم .

نظفت له السيدة « بولين » وجهه ، وربطت حذاءه الذي ينتعله
في الحفلات الموسيقية ، وألبسته قميصا نظيفا وبزة جديدة أخرجتها
من إحدى العلب . وعندما انتهت من ألباسه وملابسه ، مشطت له
شعره .

« لا أريد أن يقول الناس أنني أهمل العناية بك لأنني أصبحت عجوزا
وانك لم تعد تميل إليّ . »

لم يكن « فلنتان » ينبس ببنت شفة . كان يدعها تعمل به ما تريد .
كان أحيانا يضغط على ذراع زوجته التي ظلت تتحدث اليه وكأنه طفل
صغير . « هاك ! لقد وضعت لك ربطة عنقك الجميلة . أنت ترى كم
أنا طيبة . »

كانت قاعة الطعام تبدو مريحة بستائرهما الزاهية ، وأراني الزهور
التي تزينها ، وصور الشباب الملصقة تحت تمثال السيد المسيح ،
والتي يمثل بعضها « فلنتان » متدثرا معطفه وهو يخرج من إحدى دور
السينما ، فلنتان بلباس الرياضة ، متابطا ذراع خطيبته ، مغنّية
المستقبل « بولين دارتوا » ، فلنتان وهو يتقبل تهاني السيد العمدة .
ثم الوثيقة التي تمثل انتصار « فلنتان » : صورته وهو يصعد سلالم
باخرة « الأتلنتيك » كي يذهب ليعزف في أميركا الجنوبية ، في
الأرجنتين ، الى حيث يذهب الموسيقيون العباقرة ليحظى كل من
يستطيع منهم بأكاليل الغار الذهبية .

كانت السيدة « بولين » قد انتهت من الباسه ثيابه . وقبل أن
تطوي الأغطية ، قدمت لزوجها بضع جرعات من القهوة ، قائلة :
« يا عزيزي ، أن لنا كل الحق ، أن نتمتع صباح اليوم بكل الملذات » .

كان الزوجان قد اجتازا عتبة المنزل . وكان « فلنتان » وهو يقف في
الشارع ، يبدو فخم المظهر بملابسه الانيقة .

ولكنه أخذ يئن ويشكو ، صارخا : « أوتاه ! ساقاي ، سترين ،
أنهم سوف يقطعونهما لي » .

— « لن يقطعوهما لك . افعل ما أقوله لك . »

واستند « فلنتان » الى كتف رفيقته كي يصل الى الرصيف
المقابل . وسارا بخطى بطيئة دون أن يحاولا الاسراع ، فبلغا إحدى

زوايا الشارع حيث كانت تتدلى شلالات نبات « زهر العسل » من شرفات أحد المنازل المصبوغة جدرانه باللون الأزرق . وخرج رجل مشمر الساعدين من أحد المخازن ، وأخذ يصرخ وعيناه جاحظتان : « أرايتم هذا الرجل ؟! ... هذا غير ممكن ! إيه ، « جوزيه » ؟! هذا هو بالذات ، انه « المايسترو ! »

فخرج الجيران من أبواب عديدة وتجمهروا على الرصيف : « كيف حدث ذلك ؟ انها لأعجوبة . » وأخذ تجار ذلك الشارع يحيون الموسيقى كأنه شبح عائد من عالم الغيب : « برافو ، سيد فلنتان ! - تشجع يا سيد فلنتان . - متى ستسمعنا موسيقاك العذبة ؟ »

لقد رأى الجميع الزوجين يمران ذلك اليوم : الخباز وزوجته ، صاحبة البقالية ، وبائع الصحف . وقد فرحوا جميعا بعودة « المعلم » . وامتدحوا صبره وحسن تحمله للبؤس والمصائب . « انه لأمر قاس أن بحرم المرء من أية موارد عند تقدمه بالسن . » وأخذوا يتحدثون عن صفاته المتميزة وعن شهامة وشجاعة رفيقة حياته . « كانت تعطني بنفسها على الدوام ، وتبدو دائما أنيقة . - انها باريسية حقيقية . - ومن المؤكد أنهما تلقيا رسالة من الحكومة . وعلى أية حال ، يكفي أن يتمتع المرء ببعض الأمل ، في الحياة ، لكي يستعيد صحته . - وبعد ذلك أضافت فتاة ترتدي بلوزة ضيقة تشد على نهدِها ، قائلة : « مهما ابتعد المهاجرون الى آخر الدنيا في هذه البلاد ، فانهم ينعمون بحياة ذهبية » .

وأخذ التجار الذين تجمهروا أمام المخبز يتحركون وقد بدا عليهم الاضطراب . واندست بينهم سيدة عجوز ترتدي الملابس السوداء على رأسها قبعة صغيرة من القش . وتحدثت بصوت موسيقي قائلة : « عفوا ، ان السيد « فلنتان » ليس مهاجرا ، انه فنان . وقد أتى من فرنسا ليعلمنا تذوق الموسيقى وتقديرها حق قدرها . ومن أجل ذلك عبر المحيط ، وقد استمعت الى عزفه في كازينو البلدية . »

وهزّ الخباز رأسه لدلالة على تفهمه لما قالت المرأة ولموافقته عليه:
« السيدة الصغيرة ليست مخطئة . فالفنان لا يعتبر مهاجرا . ولكنه
ان كان مهاجرا أم لا ، فقد مضى وقت طويل على كونه بحاجة الى
دخول مأوى العجزة . ولو لم تتخل زوجته عن عملها في الخياطة ،
ولو لم تحرق دمها وبذل قصارى جهدها لتسقيه جرعات الدواء وتلك
له ساقية المعروقتين ، لما ظل « فلنتان » الآن على قيد الحياة . »

كانت صاحبة البقالية توجه نظرها الى الزوجين وهما يبتعدان
بخطوات بطيئة . ثم قالت وهي تنهد : « النساء ، يا للنساء ! انهن
شيء هام . فها هي احداهن ، انها من اللواتي يفضلن الموت على التخلي
عن أزواجهن . »

وهزّ بائع الصحف رأسه مفكرا وقال : « لقد مررت بالامس أمام
منزلهما ، فدخلت . وبينما كنت اتحدث مع السيدة « بولين » ، سمعت
انين العجوز وشكواه . لقد كان مستلقيا . كانت تقدم لي الشراب
وتحدثني عن العطلة والاجازات ، ولكني أنا كنت أشعر تماما أنه يتألم
وقد تملكه الخوف . »

وأسرت الفتاة في أذن زوجة الخباز : « اتعلمين يا سيدة «غوميز»
اني قد استمعت أنا الى عزفه . فقد كانوا قد وضعوا له بالقوة الكمان
بين يديه ، وعيناه كانتا تغمران . ثم أخذ يقلب الكمان بيديه كما لو
كان يرى إحدى هذه الآلات الموسيقية للمرة الأولى . ثم ... ثم ...
تناول القوس الذي كانت تقدمه له إحدى السيدات وأخذ يعزف .

— وماذا عزف ؟

— لا أدري . شيئا عاليا ، قويا وصاخبا ، كما لو كان كل شيء قد
كاد يتحطم ويتقطع .

وساد بعد ذلك صمت عميق . كان الشارع خاليا . ومرت سيارة
مسرعة ملأت الجو بالضجيج . وسمعت فرقة الأبواب ، وصراخ الأولاد
وهم يتراكون وطققة احدى الدراجات ، وصوت السيدة «كاسترو»
التي كانت توجه لطمتين صباحيتين لابنها .

أما السيد والسيدة « فلنتان » فقد كانا يتابعان نزهتهما، متشابكي
الذراعين وقد ضما بعضهما بلطف . وعندما وصل الزوجان الى الحاجر،
كانت الشمس قد اترفعت عاليا في السماء .

وقالت السيدة « بولين » وهي شديدة التأثر : « أشعر اني بخير،
وأنت ، كيف حالك ، يا عزيزي ؟ »

— « أنا ، أيضا بخير . »

كان الخط الحديدي خاليا ، والسماء زرقاء صافية . وبين خطي
سكة القطار نبتت بعض زهور شقائق النعمان ونباتات الشمرة البرية .

فقالَت السيدة « بولين » وقد ساورتها الدهشة : « يا له من أمر
غريب : ففي هذه البلاد نجد دائما نبات الشمرة بين قضبان سكة
القطار » .

وتوقفا لحظة بين مجموعتين من النباتات البرية ، عند ذلك بدرت
منهما ضحكة تشجيعية . وهز الرجل رأسه . وفجأة ارتعش كتفاه
وتقلصت أصابعه .

« أسمع ، قل ، انه هو أليس كذلك ؟ »

— نعم ، انه هو ، ولكنه ما يزال بعيدا . لا تتحركي . »

تنبه « فلنتان » وأصاخ السمع . فلم يسبق أن كان لصوت زوجته
هذه الصراحة وهذا الوضوح في الارتفاع والقوة .

قالت وهي تتوسل اليه : « ضمني اليك ، ضمني اليك بقوة . »

فأغمض عينيه لكي يتذكرها ويتصورها بشكل أفضل ، مستلقية تحت ثقل جسمه على رمال النهر ، كآية فتاة ، بعد ممارسة الحب .

« فلنتان ، حبيبي ، قلبي ، ضمني اليك . »

كانت أشعة الشمس شديدة الوطأة والحرارة على كتفي الفنان ، كما أنها كانت تشوش له الرؤية . كانت « بولين » رغم موهبتها قد رفضت أن تغني في مكان عام . والآن ها هي تهم بالرحيل دون أن تكون قد غنت أبدا لأحد سواه . انها تهم بالرحيل ، الا اذا أرادت ... الا اذا غيرت رأيها ...

اعتثره قشعريرة ذات صفات مجهولة هزته من أخمص قدميه الى رأسه فاضطر للتشبث برفيقته والاستناد عليها . أما « بولين » ، فانها كانت تتذكر الآن تمثال الثور الرخامي الذي كان يضعها عليه وكأنه يضع طاقة من الزهور ، هناك في جزيرة « السؤل » ، على بعد بضعة كيلومترات عن « بوينوس ايريس » . كانت تتذكر وصولهما الى الأرجنتين ونجاحه لدى السيدات عندما كان يصعد على المنصة ، شعره متطاير في الهواء ، ويعرف لهنّ معروفة « الدانوب الأزرق » الرائعة .

لم يعد « فلنتان » يشعر بالخوف . فقد سبق له أن احتفل بعيد ميلاده الثمانين ، بينما لم تتجاوز رفيقته الحادية والستين ونصف . لقد كانت « بولين » كثيرة الحركة والنشاط على الدوام ، بل ونشيطة أكثر مما ينبغي ، حتى أنه كان عليه أحيانا أن ينفرد بنفسه ، بل وأن يتخلص منها ، أحيانا أخرى ، كي يستطيع التركيز على أعماله الموسيقية . فقد كانت « بولين » تجهل فوائد الصمت والهدوء . وكانت تدور وتحوم حوله طيلة الوقت وكأنها نحلة كبيرة .

وقد حدث له ذات يوم أن شعر بأعياء غريب ، فتوقف عند ذلك
عن العزف .

اعترت جسم « فلنتان » انتفاضة ، واصطككت أسنانه ، وأحنت
ظهره شمس الظهر . فألقى نفسه بين ذراعي زوجته وضمها اليه بقوة
أشد مما كان يضمها بها على الإطلاق .

وسأله وهي تلهث : « اتجنبي ؟ »

— كلا ، ... اني أعبدك . »

كيف استطاع « فلنتان » المضي الى أفكار مماثلة لتلك الأفكار ازاء
زوجة كزوجته ؟ لقد كان ذلك أمرا معيبا . هزته ارتعاشة باردة . لقد
كانت « بولين » قديسة . وكانت هي الأقوى ، وهذا كل ما هنالك .

أخذ يتمتم : « حبيبتي ، حبيبتي . »

فأجابته « بولين » :

— حبيبي . »

أخذ « فلنتان » يتنفس بعمق . كان صوت زوجته هو الموسيقى
بالذات ، وكان الخريف في « بوينوسيرس » يضع حدا لحرارة الصيف ،
ويحمل معه الراحة والرفاهية للجميع .

كان حولهما بعض الأشجار التي تشققت قشورها وانهارت على
الأرض ، فتما حولها كثير من الزهور الحمراء . وكانت السماء صافية
بنسكل لم يسبق له مثيل .

وشعر بقلب « بولين » يدف بعنف شديد بحيث تكاد تتقطع أوصاله .
لقد كان بخير وهو ملتصق بجسد المرأة التي أسعدته وغمرته بالأفراح
والمسرّات خلال فترة تزيد على أربعين عاما والتي تهم بابتلاعه .

كانت معنوياته حسنة وبينما كان الموت قادما اليه عبر كتلة هائلة
من الحديد ، تجري لاهثة يكتنفها السخام والدخان ، لم تبلر منه
ارتعاشة تنم عن الندم ، أو الأسف على ما فعل .

آب (أغسطس) ١٩٧٧



الذاكرة

أو القرية الصغيرة

اسمي « ايزابيل بود » . عمري ثلاثة وأربعون سنة . أسكن في المنزل رقم (١٢٩) شارع « المين » وأنا مستعدة لايضاح كل ما يتعلق بموضوع الرجل الذي تبعته ، في أول شهر آب (أغسطس) في شارع « البلانت » . وسأفعل ذلك بمزيد من الرضى ، لاني بعد أن انضيت فترة تخطلها مزيد من المغامرات أصبحت منهكة من التعب والامياء .

اني أجهل فيما اذا كنت أوجه كلامي الى الفضوليين ومحبي الاطلاع أم الى جماعة من اللامبالين ، ولكنني أعلم أنه في بعض الأحيان يصبح من دواعي الأمن والسلامة القيام بتعرية الخلفيات الأكثر ابلاما لبعض التجارب . يمكن أن يكون الأمر بسيطاً بالذنبية لي لو اقتصر على ذكر الأحداث والوقائع ، ولكنني أود لو أستطيع ، حتى ولو ظهرت بمظهر المغالية ، أن اكشف عن قرب الصور التي بحوزتي والتعبير التي أضمرها ، ليس لأنها جميلة وحسب ، بل لأنها تتسم أيضاً بقسوة غريبة .

كان الجو ثقيلًا جدًا ، ذلك اليوم ، في باريس . كان هنالك شخص مجهول يسير أمامي ، قبة قميصه مفتوحة ، كما لو أنه كان يرغب امتصاص كل أشعة الشمس التي كانت تنصبّ على صدره . كان هنالك شيء متناقل ومتكلف في مشيته ، وكانت تسريحة شعره تبدو

فديمة الزي ، وهذا ما ذكرني بأحد الأشخاص ، وربما أيضا بأحد الأماكن أو بوقت من الأوقات . كان ينبعث من ذلك الشخص الكهل جو يجذبني للقيام بنزهة . ولم لاحظ الكلب الكبير الذي كلن يمسك بمقوده الا بعد ذلك ببضعة دقائق .

وعند تقاطع بعض الشوارع ، توقف الرجل ، فالتفت الى جهته . وفي الحال ، تحركت يدي اليمنى بحركة عفوية وغير مقصودة وتوضعت على رأس الحيوان . كانت حرارة الجو شديدة تدفع المرء لالقاء نفسه في أول بحيرة يصادفها . كنت حائقة بسبب حركة يدي السخيفة ولكن انما تبدأ القصص الكبيرة هكذا ، بحركة سخيفة .

« أتحبين كلبى ؟ »

لم يكن صوت الرجل غريبا بالنسبة لي ، ولكنه بدا بعيدا ، بعيدا جدا ، وتابع دون أن ينتظر أي جواب :

« أنا ضريب ولكن ، عندما يداعب أحد ما كلبى « سكوت » فاني أشعر بذلك . اذ يحدث عند ذلك تفريغ شحنة كهربائية منه اليّ . فأنت تعتقدين أنك تضعين يدك على الحيوان ولكن تأثير ذلك يقع على شخصي أنا . »

لم أجد ما أجيب به على كلام شخص يمسك بالعصا البيضاء ويستخدمها على طريقة المتباهي الغندور الذي كان صوته الوقور ، الذي تتخلله ضحكات حادة وقصيرة ، تتردد اصداؤه في أعماقي كأنه صوت داخلي . ولأنني لزممت الصمت ، شاردة اللب في ماض شديد الحرارة ، فقد انفجر ضاحكا ، ورغم أن الامر يبدو مستبعدا ، فإني عرفت هذه الضحكة الرنانة المتلونة المتلوية . فقد كانت تشكل جزءا من كل ما تبقى عالقا في ذاكرتي . كنت أعرف أنني لم أكن مخطئة وكم كنت أود لو أن تلك الضحكة قد استمرت الى ما بعد الظهر ، وأن تسمع في الشوارع

البعيدة وان تتردد أصدائها في رأسي زمنا طويلا . فقد كان لها رائحة
كثير من الأشياء الثمينه المخبأة في علب تلك التي أطلقوا عليها اسم
« ماميتا » ، في المحل رقم « ٣١ » ، شارع « بيير » : أطواق وعقود ،
أكياس وجزاديين معطرة ، قفازات سويدية لا تفتح الا بمقص من العاج .
كل هذه الكنوز كانت في متناول يدي ، وقد انتزعت مني ذات يوم .

« أين تذهبن ؟ »

كان الرجل الذي اتبعه ، يسأل ، ولكنني كنت قد فقدت عادة
استعمال الكلمات . ولذلك كان هو الذي اتخذ القرار :

« عليك ان تأتي معي . »

كان وجهه ، بعد أن غمره الضوء ، قد أصبح يبعث على الاطمئنان .
يشع منه سحر بعض وجوه اباطرة الرومان فيما لو كان هيكلها مكونا
من بشره شديدة الطراوة . وقد لاحظت أيضا ، مع بعض الانزعاج ،
أن بشرته التي لوحتها الشمس قد اعترتها التجاعيد التي شكلت
انتفاخين حول عينيه . كان لا بد أنه قد تجاوز الستين من العمر رغم
نضارة أسنانه التي حافظت على وضعها السليم في لثته . وكانت بشره
يده التي يمسك بها مقبض عصا نظيفة ، نحيفة وناعمة ، وأظافره
مقصوفة بعناية . أما نظارته فكانت تتسرب منها نظرة لا يشوبها
الانطفاء وقد وصفتها دون تردد بأنها ساخرة . ولذلك لم تكن لتعتريني
الدهشة لو أن هذا الضرير أمسك بكتفي في وسط الشارع وفتح لي
فمي بالقوة ، كما يفعلون بالخيل لمعرفة عمرها .

وعند وصولنا الى تقاطع شوارع ثان ، توقف ولامس صدري
بطرف عصاه :

« الآن ، وبعد أن راقبتيني جيدا ، أيتها الأنسة ، اذا كان لديك
عمل يجب ان تقوم به ، فيجب ان تنسيه في الحال . »

ومع حركة سريعة من منكبيه ، استأنف سيره نحو الشوارع
الخارجية .

* * *

عندما استعدت كل ذلك بجميع تفاصيله ، مساء ذلك اليوم ، كان
بإمكاني أن أؤكد أنني إذا لم أكن بكامل وعيي ، فأنني بالتأكيد كنت قد
سبق لي أن فقدته قبل تلك الفترة ، ذلك لأن اللحاق بشخص يشكو
من عاهة ، وكان يمكن أن يكون غشاشا أو محتالا والذي كان يبدو أنه
لا يختلف بشيء عني ، أي أنه لا يسير على بساط من ذهب ، يعتبر عملا
يدل على فقدان الصواب . لقد تبعته كما كانت تفعل الجارية ، بل
الإمة عندما كانت تسير خلف بائع التوابل حاملة له تلك المواد أو وراء
تاجر الرقيق في سوق النخاسة . هذا الغريب الذي تنم مشيته عن
ساقين مقوستين كؤلك الذين قضوا زهرة شبابهم على ظهور الخيل ،
كان قد أيقظ في نفسي الكثير من مشاعر وعواطف الصبا التي لم أستطع
التخلص منها رغم انقضاء سنوات طويلة بذلت خلالها جهودا مضنية
في سبيل ذلك . كنت أعرف أنه بكلمة منه كان يكفي لكي تستأنف حياتي
مسيرتها من حيث تركتها ، أو بالأحرى من حيث تركتني منذ ما يزيد
على ثلاثين سنة . كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا الرجل في
حيثنا - الحي الرابع عشر حي غامض تكتنفه الأسرار بساحاته الضيقة
وازقته المغلقة ، ولكنه ليس متاهة على أية حال . فأن كان مختبئا ،
هذا الذي يستجيب في ذاكرتي إلى اسم : « كاتسو رودريكز » والذي
كان من عادته كثرة المرور في جادة « بيبير » ؟ وماذا يريد مني ، صباح
هذا اليوم الحار ، بينما لم يسبق لي أن كنت بالنسبة له فيما مضى
سوى ما يشبه ذيل ستارة في الاطار والزينات الأنيقة التي كان ينعم
بها . وقد حدث له أكثر من ألف مرة أن مرّ بي دون أن يراني ، كما لو أنني
بالكاد كنت كرائحة الحبر أو رائحة الصمغ . كما كان « دون الفونسو »
و « ماميتا » يستقبلانه بالترحاب والعناق . أما الخدم فكانوا يتزاحمون

لسماع كلماته الحلوة . لم يكن عليه أن يشعر بشيء آخر سوى شهرته ومآثره الخاصة . ولكن في صباح ذلك اليوم من أواخر تموز (يوليو) ، لم يكن وجودي بالنسبة لـ « كانشو » أكثر من وجود أية مارة أخرى يمكن أن تضع يدها على كلبه الذي يرافقه ، وهي شاردة الدهن لا تعير ذلك أي انتباه . ومن جهة أخرى ، لم أكن قد تجاوزت السابعة أو الثامنة من العمر عندما كان يلعب بكرة المضرب مع « دالميرو » و « جاك » ، شقيقتي « فيكتوار » ، ويحاول الإمساك بـ « ليونتين » الجميلة بين أشجار الغابة المحيطة بالقصر الذي كنا نقضي فيه العطل والاجازات .

عندما توفيت « ماميتا » بذلك الشكل المفاجيء الذي لم يتوقعه أحد ، ولما أغلقت أبواب المنزل رقم « ٣١ » على كل ما ظل طيلة ربيع قرن ينبض بالحرارة والعبقرية ، لم أكن قد تجاوزت الثالثة عشرة كذلك ، ولماذا لا أعترف بكل شيء ؟ فانا ، في الواقع لم أكن أحد أفراد الأسرة ، وكل ما هنالك اني كنت اختا بالرضاع للصغيرة « فيكتوار » ، أي أكاد أكون دخيلة على العائلة .



لم أنس شيئاً من تفاصيل ما حدث في ذلك اليوم الذي كان يسوده حر شديد ولا مما حدث في الأيام التي تلته . كان العرق يتصبب من جذور شعري ويسيل لينساب الى فمي الذي كنت أجد صعوبة في إبقائه مغلقاً بينما كان ذراعاي المبللان شديدي البرودة . وكان هنالك على الجانب الآخر من الشارع بعض الأشجار وركن ظليل يتوسطه مقعد سنستطيع الجلوس عليه . وكنت على عجلة من أمري للوصول اليه ، بينما في ذهني ، ما كان لهذا المقعد أن يتواجد الا خلف منزل « فيكتوار » ، في الأرجنتين ، عند نهاية شارع « جاكارداس » . شعرت بأحاساس بالاختناق شبيه بالنعاس الذي يسببه المخدر ، كاد يجعلني أنهار . كان منزل « فيكتوار » مغطى بالياسمين وتعلوه شرفة كجميع المنازل

الراقية المبنية في السهل . وقد حدثتني صديقتي مائة مرة عن جدرانها الأرجوانية التي صبغها أجدادها بذلك اللون انصباعا لأوامر أحد الطفلة - كان جنرالاً أزرق العينين استعبد بلاده فترة طويلة من الزمن . وقد حافظت أسرة « آكونا » على نضارة ذلك اللون المعيب تمجيدا لضحايا التعذيب . وكانت « فيكتوار » الصغيرة تصف لي بحماسة ومفالة شبكات السياج الحديدي التي كانت تغلق مداخل منازلهم ، والصور الرائعة ، والأرائك التي كانت تجلس عليها السيدات المرتديات الملابس السوداء اللواتي كنّ يقهقهن بالضحك في كل مناسبة ولكنهن لا يعرفن كيف يتسمن . وفي شوارع باريس الحارة ، عندما كنت أتبّع شخصا مجهولا ، كانت روائح البايونج وروث البقر تتصاعد الى دماغي . وكنت اسمع وقع حوافر حصان « المعلم » وهو يعدو عائدا عند حلول الظلام وكانت النسوة تنتظره على شرفات المنازل . وكنت أشعر بوطأة قدمي جسم صارم وعنيف على الركاب . واتصور السهل الفسيح عند حلول المساء ، وقد ابتلعت سماء ملتهبة بضياء الفسق . ولكنني لم أكن أرى الرجل الذي ذكرني بكل ذلك . فالذين يعيشون في عزلة عن الناس يتخيلون المشاهد والمناظر . وإذا ما بقيت على قيد الحياة بعد هذا الاعتراف ، فاني سأظل أذكر على الدوام ، وقلبي متقبض ، نزهتي التي قمت بها في شارع ال « بلانت » . كان حينذاك واضحا جدا بالنسبة لي اني بانصياعي الى ذلك الشخص الذي لم أكن بالنسبة له سوى امرأة مجهولة ، كنت أدفن ما بقي لي من رأسمالي كبرجوازية صغيرة ، ذلك الرصيد المحسوس بالنحيب والتنهدات والأفراح والانتصارات الهزيلة . ولماذا كل ذلك ؟ من أجل لا شيء . أم أن ذلك كان عبارة عن نية سرية بأن أسترده نفسي متمسكة بحلم قديم ممنوع كي أنجو بجلدي ؟

كان يسير متحاشيا السيارات ، ذلك المجهول الذي يحمل العصا البيضاء ، يغمره الفرح بالتحايل على كلبه متصنعا التسلل بين الدراجات . كان يصفر بهدوء لحنا مرحا ، عندما انتابثني وسوسة شوشت لي الرؤية . كان ذلك الذي يستجيب في ذهني لاسم « كاتشو »

يلاحق كرة بيضاء بين قوائم قطع من الحيوانات ذوات القرون التي كانت تحمله وتطلقه عبر الحقول .

انتابني دوار ، فأمسكت الكلب « سكوت » من جلد ظهره ، وألفيت نفسي لاهثة في الجانب الآخر من الشارع حيث كان صاحبه ينتظرنا مستندا بهدوء واسترخاء على عصاه .

رغم قربنا من أشجار اليزفون ، التي بدانا نشم رائحتها عبر رذاذ خفيف ، فإن الحرارة لم تخف وطأتها . وعندما استأنفنا سيرنا ، أخذ صديقي الجديد يربت بأصابعه على كتفي .

« أين تسكنين ؟ »

لم يكن لدي رغبة بالإجابة ، ولكنه ألح كمن يخاطب طفلا عنيدا :

« أين تسكنين ؟ »

— في جادة الـ « مين » .

— أسيعة أنت ؟

أحيانا .

— أمتزوجة ؟

— كلا ، ليس بشكل حقيقي .

— ألك أولاد ؟

— كلا .

ابطأ في مشيته كما لو أن ازدحام الرصيف قد استأثر فجأة بكل انتباه عصاه . وبعد بضع خطوات ، رفع رأسه وقال بنبرة قوية :

« أمّا انا فأسكن في قرية صغيرة . لديّ بلبل وبستان . ويقول لي البعض أنّي سأجني منه الرمان عما قريب . ويبدو لي أنّ هنالك كثيراً من الناس الطيبين يحبون بشكل قريب تقديم كل شيء للأشخاص العاجزين . وعند تقديم هداياهم يجعلون صوتهم يتفق مع المناسبة . وبعد بعض الوقت لن أستطيع المشي . وربما كانت هذه النزهة آخر نزهاتي . فانا لست سوى حطام انسان . فتصلب الشرايين يضايقني . وأنا أداريه واحتال عليه بمختلف الحيل ، كما أفعل مع كلبتي «سكوت» ، ولكن ذلك لن يدوم طويلا . فعما قريب سوف أصبح كبطل اسباني متجمد في كرسيه الحجري ، وسيفطونني بأنواع الطوى : شاي صيني ، تمور ، ليمون ، مربى ، مثلما كانوا يحيطون قديما أمام « الأزيك » (١) بقطع النقود الفضية . اني أتصور بلدة وسرور ذلك الزمن . هل سمعت بأمر « الأزيك » ؟ لقد كانوا يخشون فرسان الاسبان » . والتفت قليلا وابتسم ابتسامة طويلة باردة .

« هناك ، في قرأتي الصغيرة ، جارتني التي يقع منزلها الى يسار منزلي كانت تصنع الأدوات الموسيقية ، والتي الى اليمين تملك مغسلا . وهي تهوى جمع الطوايع ولديها مجموعة منها . وانا منذ زمن طويل لم أعد ألقى أية رسائل ، ولذلك أخذت تهمل غسل ملابسني . وهناك أيضا ، على الرصيف المقابل ، « شارلو » الحذاء ، الذي يقدم لي ألف خدمة . ولكنه يشرب بعض خمري عندما أكون منصرفا الى العزف على الفيتار . ولماذا لا يفعل ذلك ؟ وهو يجلس أحيانا على كرسي هزاز ويصفي اليّ وهو يندق المسامير . انا احب الكلام . وعلاقتي جيدة بصانع التماثيل . انه فاشل : وانا احب الفاشلين . فقد عرفوا كلّ الناس . وانما من اجلهم يعمل العمالقة . ومن هم هواة الفن الحقيقيون ؟ هل سبق لك أن فكرت في ذلك ؟ انهم أولئك الذين يمكن أن يكونوا متمتعين بالمبقرية ، الذين يعرفون ممّ وكيف تتكون ، في حين أن

(١) « الأزيك » : شعب مكسيكي قديم سيطر على البلاد حتى قدوم الاسبان عام ١٥٢٠ .
- المترجم -

العملاق ، من جهته ، لا يعرف شيئا عن قدرته وأتته ، في أغلب الأحيان ، يتمتم لعجزه امام اللوحة او كتلة الصلصال ، مندهشا لرؤيته أشكالا تتوضع فيها فوق بعضها ، وهي التي يعرف عنها الآخرون ، الفاشلون ، من جهتهم ، كل شيء . ثم ... »

سكت « كاتشو » . كان قد اختار دربا زرعت على جانبيه شجيرات الخوخ البري .

وتابع حديثه قائلا : « كان ذلك المثال يتخذني مودила لأعماله . لأن مظهري زاهر على ما يبدو . لقد عاش في بلدي ، ذلك الشخص الفذ ، ويؤكد أنه رأيته هناك أخرج من أحد الملاحى الليلية ، ممطيا صهوة جواد . ويقول أيضا أنه كثيرا ما كان يلتقي بي وبرفتي بعض النساء السيئات السمعة . فهل تعرفينهن أنت ، النساء السيئات السمعة ؟ ... ففي الأرجنتين لا يزال يوجد الكثير منهن . وهن يرتدين جوارب وردية ومطاطات سوداء تجعل سيقانهن تبدو كسيقان الدمى المصنوعة من البورسلين . وعندما يرقصن ، يدخلن لك بين الفخذين ركبة يصقلنها كل مساء بعناية شديدة . تألمي ، كان لي عم " عسكري" يجمع نماذج الملابس العسكرية لمختلف البلدان ولمختلف العصور . كان ، مثلا ، يحارب في الباراغواي مرتديا زى الخيالة « السباهيين » (الأتراك أو المغاربة) . وقد ورثت عنه لا موهبته كخبير عسكري ، بل براسته العسكرية . وأنا ارتديها بانتظام لأدخل السرور الى قلب صانع التماثيل . ثم سألني فجأة بصوت منخفض : وأنت هل حققت حلما من أحلامك ؟ » .

ورغم البرودة التي بدأت تنبعث من شجيرات الزيزفون ، فقد تلقيت سؤال الضير كأنه مقدوفة حارقة .

وأضاف قائلا : « أنا لا يساورني القلق عليك . إن لك ذراعين مثل بندقيتين صغيرتين » .

كان هنالك ركن ظليل تحت الأشجار ومقعد جلسنا عليه متلاصقين .
وجد « كاتشو » حجرا بين الحصى فقدفها بعيدا . انصاع « سكوت »
للأمر ولكنه أتى بالحجر وهو يجر قائمته ، ووضع على ركة صاحبه .
أخذ « كاتشو » خطم (بوز) كلبه ، وقال لي :

« هذا رفيقي . وأنا أعابته لأدخل السرور الى قلبه . نحن
شريكان قديمان . يجب أن نحوزي على تقديره اذا كنت مهمة بتوثيق
العلاقة فيما بيننا ، وأنا أعرف أنك شديدة الاهتمام بذلك . فأنا أعرف
على وجه التقريب كل ما يفكر به جميع من يجرؤون على التقرب مني .
حسن هكذا أن تكون ساقك ملتصقة بساقي . لأن ساقني لن تعيش
طويلا . ولذلك يجب استقلالها حاليا ، فالأطباء لم يعد بإمكانهم عمل
أي شيء من أجلها . ومع ذلك ، فهم يرفضون قتلي ، كما أنهم يرفضون
أيضا أن يدعوني أعيش في الوقت الذي ما زالت لدي فيه القدرة على
ذلك . أليس هذا أمراً غريباً ، بل جنونياً ؟ أنهم يريدون مني تعريض
نفسي للحرمان وغايتهم الوحيدة من ذلك ادخال السرور الى قلوبهم » .

لم أعد أشعر بالحر ، ولا بأي انزعاج آخر . وفجأة أمسك صديقي
الجديد بيدي ، وربت عليها وأخذ يقلبها ، ثم قال :

« لست أعمى تماما . فأنا أرى الأجسام والأشياء كالظل وأرى
النور خافتا جداً . أرى مجموعة شعرك ، وأرى الظلام كجدار بيني
وبين الشمس . لم أعد أرى الشمس ، ولكنني أشعر بها . فهي التي
غذتني وهي التي أكلتني » .

ولزم الصمت . كانت يدي ملقاة في يده . سحبتها دون أن يحاول
الامساك بها . ثم نهض ، وأدار لي ظهره وسار في المشى وهو يبعد
المارة بطرف عصاه . رأيت يده يسير في المشى ، حاني الرأس ، وبدأت
لي عصاه فجأة ، شديدة البياض . وكان « سكوت » أيضا يبعد

المارة . ولكي يعبر العجادة ، تشبث « كاتشو » بمقود كلبه بيديه
الاثنين .



عندما عدت الى المنزل مساء ذلك اليوم ، لم أرى الشمس تقرب
عن باريس ، ولم ألاحظ من نافذتي ، كما هي عادتي ، أسطحه الباني
المكدسة فوقها مجموعات من القرميد بالطين الرملي ، ولا الأربع حدائق
المستطيلة ، ولا السقائف التي تقرر هدمها كي أرى عما قريب أبراجا
عالية ترتفع مكانها . لم أغلق أباجور النافذة كي أتحاشى الهلاك من
شدة الحرارة . ألقيت بنفسي على الأريكة ، منذهلة وبنفس الوقت
متمرسمة ومنهكة بتأثير حالة دفعت بي الى اللحاق بشخص مجهول برزت
قامته القوية المتسلطة من الخفاء بعد غياب وصمت استمرأ أكثر من
ثلاثين سنة . أعجبت بهذا الضرير الذي كان قد فهم منذ اللحظة الأولى
التي وضعت فيها يدي على رأس كلبه ، أنني كنت طائرا منهكا ، فاقد
الأنفاس وأنه ما كان لأحد سواه أن يعمل على تهدئتي وتأنيسي . و« كاتشو
روديكز » الرجل الذي باركته الآلهة الذي كان يسري بسهولة ويسر بين
مصانع « مونبرناس » والقصور الأميركية في الدائرة السادسة عشرة ،
والذي كان ينشر بكل وقاحة نصا مثيرا للغرائز والشهوات في إحدى
مجلات الظليعة تملأ بأي حديث أو خطاب موجه الى الفتيات المتزوجات
حديثا ، ينشره في مجلة « أيلستراسيون » ! هذا الرجل لا يمكن إلا أن
يكون قد عاش الحياة المزدوجة ، بل الثلاثية الأطوار الملك يتحلى بضحكة
الطيور الجارحة وقد نصب بشكله الطبيعي في ردهة إحدى الكنائس .
كان من هذه الزاوية الغريبة أن بدا لي البطل الذي ترصدت منذ
الطفولة تصريحاته المستندة الى المبادئ . ولم يكن قد رفض شيء
لذلك الذي كانوا يسمونه على سبيل المزاح وبكل رضى وسرور :
« البوهيمي ذو البنفسجة » .

« ليونتين » ، التي كان والدها قد خصصها لملك البواخرا الإيطالية، كانت قد تركته يلمس صدرها تحت ملابس الرقص التي كانت ترتديها ، مساء يوم عيد الميلاد ، حينما كنت مختبئة تحت البيانو . وقد خرجت من هناك ملتهبة الوجه . كان « كاتشو » ناجحا ويبدو منتصرا في الألعاب الرياضية تماما كما كان يبدو في المقاهي والصالونات الأدبية . كلا ، لم يكن يرفض له أي شيء . واليوم أيضا ، رغم فشله وسقوطه ، فهو يجد الوسيلة ليحصل على المجاملة والدلال في المكان الذي كان يسميه قريته الصغيرة ، من قبل بعض ذوي النفوس الطيبة والقلوب الكبيرة المتلهفين للاطلاع على ما كل ماهو عجيب وغريب .

قبل قليل ، كان قد أمسك يدي بيده وضغط على ساقي بساقه التي قال عنها أنها مقضي عليها . يجب علي أن أجده وأن ألقاه سرعة . كنت أعلم أنه أصدر لي أمرا بذلك ، رغم رحيله المفاجيء . أما بشأن أشجار الخوخ البري التي كنا قد جلسنا في ظلها ، فاني لم أكن أعرف فيما إذا كان هذا هو اسمها الحقيقي أم أن تلك التسمية ماهي سوى نزوة من بنات خيال « فيكتور » التي كانت تحب أن تطلق عليها هذا الاسم عندما يحدث أن تكتشف بعضها في الأماكن المجاورة لـ « التروكاڨيرو » كان ذلك اثناء تلك اللقاءات الزراعية أن كانت أختي بالرضاع تحدثني عن بيتها في الأرجنتين الذي كان يخرج منه عند الفسق قطبع من الخيول كأنه مجموعة من الأشباح . كان البيت قرمزي اللون . نمت حوله أشجار سوداء بينما كان الياسمين يعرش ملتفا حول الأعمدة وكذلك حول اكتاف تلك السيدات المسنات اللواتي كنَّ يقطعن بسبحاتهن وهن يتمتمن بالشتائم للأولاد الخبيثاء وللأزواج السيئين وللخدم الشريرين . وأنا مستلقية على أريكتي ، كنت أنفَس بشكل متقطع ، متمددة على بطني وقد تدلت ذراعي إلى أسفل . كان علي أن أبدأ من الصفر ، أن أزيل من نفسي كل ماكنت قد عشت منذ رحيل سكان جادة « بيزر » ، وأن أمحو موت « ماميتا » على سريرها الكبير وكذلك العائلة الجنوب أميركية التي لا يحصى عدد أفرادها الذين يوالون العويل مرتدين

أوشحة الحداد السوداء . ولكن رؤى مشوشة ظلت ملتصقة كالديدان على جوانب دملغي . كنت أتخيل نفسي متعلقة الى عنق « فيكتوار » الصغيرة المتصلبة الجسم في فستان الحداد الأسود ، وقد جحطت ميناها كأنها تندفع الى محرقة هيئت خصيصا لها . كانت « فيكتوار مارتينيز دو آكونا » قد تقاسمت كل شيء مع أختها بالرضاع : الصداقات ، الألعاب ، المفاجآت ، الرحلات ، ولكنها أبدا ، - وثنا كنت أشعر بذلك جيدا - لم تكن لتتخلّى لها عن أي جانب مما تعانيه من ألم . لأن ذلك الألم كان لها ، لها وليس لأي كائن سواها . « فيكتوار » كانت تعلم ، وقد ولدت بعد أخوتها باثنتي عشر سنة ، أنها ثمرة انصال غرامي ، وأن موت « ماميتا » سيظل سرا خفيا بالنسبة للجميع . وعندما حملوا بموكب مهيب ذلك الجثمان الجميل المعطر كي ينقل الى مسقط رأسه اكفهرت نظرة أختي وحال لونها من الأزرق الى الرمادي الداكن . وكل شخصها اكتسب ما أسماه « فاليري لاربو »^(١) في الرواية التي كنت أطلعها : « الشباب المهيب » . لأزال أتخيلها ، وهي تجري الطقوس المعتادة لامها ، ثم تفلق أبواب الخزائن ، وتمر بأصابعها على قطع الاثاث ، وتفرز البريد ، وترتب الستائر . لن أراها مطلقا تبتسم بعد الآن . اتقد سافرت مع التلبوت وكنت أعرف أنه ، لا بالنسبة لها ولا بالنسبة لي ، يمكن أن يكون هنالك نور في أي مكان بعد الآن . ومنزل آل (مارتينيز دو آكونا » الذي كان ملتفا حول الساحة ، جُول خلال بضعة أسابيع الى مجموعة كنائس خاصة . لم يبق هناك شيء الا ووشح بالسواد حتى غرفة الكلاب . ماذا سيكون مصير تماثيل « دون الفونسو » ؟ أما غرفة الملابس التي كنت أرسلل اليها لكي أفتح هناك بيد حذرة الألفعلبة صغيرة المخشوة بالأزوار والخيطان الحربية ، كان يمكن أن تزول هي أيضا . وفي غرفة الملابس هذه ، انما كانت تجتمع الخادومات لكي يناقشن كل ما كان يجب على المرأة أن تعرفه عن الحب ، والرجل والخيانة ،

(١) « فاليري لاربو » : كاتب فرنسي ولد في « إيشي » ١٨٨١ - ١٩٥٧ .

وكذلك من الأعشاب المفيدة التي تخلص هذا العالم الدنيوي من عدد
لأنهاية له من أبناء الزنا .

وفي مطلع حزيران (يونيو) عام ٤٠ ، قلمت أختي بالرضاع ،
دون كلمة أو إشارة منها ، كما لو كانت خاضعة لقدر لا مردّ له ،
بالانتقال من نصف الكرة الشمالي الى نصف الكرة الجنوبي ، بينما بقيت
أنا على رصيف أوروبا الباكية والدامعة العيينين . « دون الفونسو »
سيرحل ، بعد أن أدخل « دالميرو » و « جاك » في مشاريع مثمرة وسربحة
أما « ليونتين » فسوف تنزوي في قصر ايطالي مع زوجها . ولن يكون
مطلقا لأي شيء معنى بعد الآن بالنسبة للذين أقاموا في المنزل رقم ٣١
الكائن في جادة « بيتر » . لن يعود أحد ، كلا لا يمكن أن يعود أحد ،
لأنها كانت هي ، « ماميتا » التي تعرف أسرار كل الكواليس ، التي
كانت تستقبل الأقطاب والشخصيات الهامة تماما كما تستقبل الخيطاطين
والامرات الشرقيات ، والتي تبتكر زينا جديدا بصورة مرتجلة وذلك
بوضع فردة قفاز سوداء باحدى يديها وفي اليد الأخرى فردة قرمزية
اللون ، والتي كانت تشتري من « فينيسيا » لا عقدا ، بل مصعدا زجاجيا
لم يكن أحد يستطيع أبدا أن يجعله يصعد ولا أن يهبط ، ولكنها كانت
تتأرجح فيه بعد أن عملت على تعليقه في سقف الصالون . كانت « ماميتا »
هي التي لم تكن تخرج من منزلها إلا بأبهة اللباس الرسمي وبقاوة الورد
وذلك لتخلب لب جميع الفضوليين الذين يتواجدون على طريقها بينما
تسير في الشارع بخطوات صغيرة ومتسارعة على كعبي حذاء جميل
مكسو بجلد السمك .

كان ذلك في باريس ، بعد خمسة وثلاثين سنة ، وبالصادفة
في أحد الأحياء الموصرة ، أن ذلك الماضي الذي كان قد سرق مني أخذ يبرز
فجأة من خلال جوّ آب (أغسطس) الثقيل ومن تحت عصا شخص
مجهول أمرني أن أتبعه . نعم ، في باريس ، ودون أن أكون قد فعلت
شيئا أو قمت بأي عمل كان لتحدي الشيطان واثارته أو لابقاظ
الأسباح .

« إذا لم تحترس من ذلك ، فان بقايا الانسلن تتبعثر ، يا «إيزابيل»
ولذلك أرسلت لنفسى إحدى الساحرات . وهى أفضل من أحد
المتنكرين ، صدقيني . وهناك تنبعث رائحة لحم البقر المشوى على
اللهب ... » .

ولبضمة ثوان ، اعتقدت أتى قد فقدت عقلى . كان ذلك بالتأكيد
صوت « كاتشو » الذى كنت أسمعه . فكيف دخل هذا الصوت الى
منزلى ؟ وبأية حيلة من حيل الحواة والمشعوذين استطاع التسلسل من
تحت باب بيتي ، ذلك الصوت الذى جهدت طيلة ستة أيام لأجد جسم
صاحبه في أزقة الأحياء المجلورة . وكان هناك ما يدعو الى الانهيار
من الغيظ . والواقع أتى بقيت ملتصقة بالجدار دون أن أجرؤ على
القيام بأية حركة . وفي حالة السكون التي عشتها ، رايت بعين الخيال
طفلا نظراته جوفاء ، كان بالأمس قد هرب مسرعا عندما رأني أدخل
المنزل .

كان لدى « كاتشو » عبيد لحلمته ، مستعدين دائما للقيام بكل المهام
والأعمال . وكان يشبه أولئك الأبطال الصغار الذين كنا نراهم في صور
حرب إسبانيا حاملين بنادقهم بأيديهم . كان الصوت في مكان ما بالتأكيد ،
تحت السرير ، داخل المكتبة أو وراء مشعاع التدفئة . ولكن لماذا فكرت
بحرب إسبانيا عند وجود ذلك الطفل على عتبة باب منزلي ؟ كن رأسي
يدور والصوت يلح : « إيزابيل ، لو تعلمين ... قد تنبت القبرة »
تحت أذرع الساحرات . نعم ، في التجويف الكائن تحت إبطهن ... -
ولماذا لا تنبت زهور « أزوار الذهب » ؟ اسكتي ! « هكذا صرخت بأعلى
صوتي . كنت منهكة من التعب ، أكاد أجن غيظا بعد ستة أيام من
البحث المضني كنت قد قرعت خلالها نحو مائة بيت ، متصنعة ابتسامة
المتسولة . لم يكن أحد قد رأى ضريرا ولا كلبا ، ولا أي رجل تتفق
أوصافه مع أوصاف « كاتشو » . وعندما كان يحدث لي ، لدى مروري
قرب أحد المشافي ، أن التقي بأحد المعجزة ، يتبين لي دائما أنه ليس
سوى إنسان بائس يسير في سبيله . وهالان ولدا متحدرا من صورة مأساة

قد تجاسر على أن يدخل الى منزلي صوتا كان بجسمه قد اختفى . على
الألّا يكون هذا الجسم لم يسبق له وجود سوى في ذهني أي في ذهن
إنسان منزور أنهكته شدة الحرّ .

« اسكت ، اسكت ... » .

ولكنّها كانت تتابع السير في طريقها ، وهي تزداد شعورا بالراحة
والحرية ، مترقّعة وساخرة .

« اتها لجميلة بقايا الرجل ، خاصة اذا سبق له أن كان رياضيا
يكفي أن نتأمل معالم وآثار الفن اليوناني . وان كنت انا أكثر واقط
وجهي ، فان الرخام ، من جهته ، لا يكسر . وكانت إحدى صديقاتي
تقول : « الرجال ، انا أعبدهم ، ولكنهم يبعثون السام في نفسي ! وإذا
بالمصادفة عثرنا على رجل جيد ، نكون نحن النساء ، الأقوى دائما . »
فالرجل ، يا « ايزابيل » يظل على الدوام على وشك الانحلال والاستسلام
ويكفي أن تندس يد امرأة بين كاحليه (عرقوبيه) ، أقول بين كاحليه ،
حتى في الحال ... » .

ماذا يريد مني ؟ وما هي غايته من القيام بهذه اللعبة التي لا يقوم
بها سوى الخبثاء والأشرار ؟ كيف عرف « كاتشو روديكز » عنواني ؟ وقبل
كل شيء ، كيف عرف من أنا ؟ « أترين يا ايزابيل — كان صوته يتابع
دون أن يضعف — كان عليّ أن أنسى كثيرا من الأمور . مثلا ، اني بكيت
على جيتار لاوهم الناس اني كنت شاعرا معدا . ولذلك استأجرت
ساحرة . ثم كان عليّ أن أنسى اني كانت لدي الجراءة أن أمثل دور
الأيتم ، نعم ، وحتى على خشبة المسرح ، في حين كنت أمضي أكثر وقتي
بالقفز وراء كرة موجهة ضربات بالصدر الى أمثالي ، من صفار الفتيان
الطيبين حاملي عصا « الهوكي » تحت سقف على شكل فطاء المدخنة .
نعم ، أن أنسى اني قد تفوهت ببعض الحماقات كقولي : « أن فتيات
فلوريس يضممن أفخاذهن خوفا من أن .. أعضاءهن التناسلية .. »

لج . حسن . لا أهمية لذلك . لقد فعلت على الدوام ما أردته وكل ما أردته قد اندثر ومات . ومع ذلك فإن هذا البيت عن فتيات « فلوريس » ليس لي ، فقد سرقته . كنت قد سرقته أيضا « فزاعة » كانت تقف منتصبة بملابسها وراء حاجز دارتي . كانت تضع نظارة مفردة وتكتب شهادات القبور . وماتت هي أيضا . والمنزل رقم ٣١ ، شارع « بير » مع مصعد « مورانو » الذي كان هناك ، قد مات وبيت أهلي الذي كان يقع على ضفة النهر قد مات أيضا . والسهل مع عرباته والأراضي البور التي كنت أبحث وأنبش فيها إلى أن أشر على بعض قبور الأواني الزجاجية لأجل النساء المذنبات اللواتي كن ينتظرنني في مخدعهن حيث كان مسحوق الرز منثورا بين قطع الاثاث المزيفة أي المصنوعة بشكل يجعلها شبيهة بالاثاث طراز « لويس الخامس عشر » ، لقد ماتوا ، قبور الأواني الزجاجية والنساء المذنبات أيضا . وأخواتي ، الجالسات على شكل حلقة على الشرفة . انك لن تصدقني ، ولكنهن كن يدخن وهن متحطات ، ويشغلن بالسنارة ويعطزن وهن متحطات ، ويغتن الناس وهن متحطات . يا الهي كم كن منفرات ويبعثن على القرف ! لقد متن بسبب ذلك . وقد انهار كل شيء ، فيما عدا أنت ، يا « إيزابيل » نعم ، مثلما أنت الآن هنا ، مستلقية على سريرك . فيما عدا أنت ، يا إيزابيل ... » .

منذ برهة ، لم أعد أتحرك . لم يسبق مطلقا لأي عين أن تفحصتني كما فعل صوت « كاتشو » . اعترتني رعشة ، أخذ سقف غرفتي يدور فوق رأسي ثم هبط . وعندما استعدت وعيي ، كنت أسبح في عرق .

« أيتها الطفلة المسكينة ، لقد تفحصت الحي بكل دقة ، فانا أعرف ذلك جيدا ، وتسكنت في الشوارع التي تنتشر فيها حاويات الأوساخ على الأرصفة . انها لجميلة ، العاصمة في الصيف باكشاكها المقامة في الزوايا من أجل لقاءات وأوساخ الصعاليك والمتسكعين ... » .

لم يكن « كاتشو » مخطئا . فقد بحثت عنه بينما كان يركب آلتة الجهنمية في جدرانني . ولكنني كنت سأحولها إلى نتف ، آلتة الجهنمية

تلك ، قبل أن تنال مني . كانت كتلة من الغضب قد تجمدت في حلقي وظل الصوت مستمرا ، لم ينقطع .

« كنت أكره أخواني . لم أتم إلا مع بنات عمي . أما أمي فكانت متدثرة على الدوام بملابس رئيسة دير من صنع « بواريه » . وكافت تقوم بدورها كزوجة بصورة تنم عن السأم والخضوع بينما كان أحد الالبانيين يقص لحية أبي . ولو تجاسر على ذلك لكان اصطحبه معه صاحبه الالباني في إحدى الرحلات . كانت تربكه كثيرا على المراكب ثلاث بقرات حلابة . يجب القول أننا كنا ثمانية ، الكل متساوون في الأصالة من حيث النسب . كان أخوتي يحفظون بالكثير من المكافآت المدرسية والرياضية والجامعية والميداليات الذهبية . بينما أنا ، كنت الفوضوي . هنالك دائما في المساكن البرجوازية في الريف ، غرفة خاصة للفوضوي . وفيها كنت أقيم . كانت مكسوة بالقماش الأخضر . كانت تتزاحم فيها كراسي وثيرة توشي لي بأفكار ظريفة ومتأنقة . كنت أحلم برفع ملابس الفتاة في حديقة الخوري . أما أخواني فكان مدلات مزونقات ومدلكات ويوزعن وقت فراغهن بين الزنقا والمزين . انه لساحر عجيب ، ذلك المزين . كن يخرجن من عنده جذابات يكدن يثرن الشهية . ولكن كلا ، كلا ، كن يشبهن نهرنا كثيرا . أف ! لقد كن صفراوات . كان أبي يراس المائدة العائلية بطريقة تنم عن البراءة والصراحة كانت تدخل الفرحة الى قلوب الخدم الذين كانوا يقفون خلف ظهره . لم أستطع أبدا أن أتعامل معه بجدية رغم وقاره . كان ينظم الأشعار ويكتبها على ورق بنفسجي وأرجواني ثم يخبئها في أكثر الأماكن مدعاة للخجل والعار ، في مأوى الكلاب ، مثلا . كن لا يخرج الا في عربة سوداء ، يقف فيها منتصب القامة تماما ، ونظارته مثبتة جيدا على أنفه الاسباني الجميل .

« والحقيقة أن أبي كان يعتبرني ثافها وغبيا . كنت أحمل اسمه : « جوزي انداليسيو رودريكزاي مورينو » . مسكين أبي ، كنت مع ذلك

أشعر نحوه بالشفقة . كانت خيبة أمله مني كبيرة ولكنه لم يكن يرفع صوته مطلقا . كان يكتفي بتأنيبي بقسوة تتسم بالحنان . أكان يعلم ذلك ؟ كلا ، دون شك . اني كنت أحبه . كان في بعض الأحيان ، يستقبلني بعد وجبة الغداء ، في غرفة التدخين ، ثم يقدم لي سيجارة روسية ويقهقه ضاحكا وهو ينظر الي قائلا : « أنت حقا ابني ، هيا ، بكل ما اتصف به من صفات سيئة : الزهو والكبرياء ، الحساسية ، اللامبالاة . ولكنك أنت تنطلق على هواك وتصرف على سجيتك . » اعتقد أنه كان يتأملني بأعجاب وهو يتحدث عن تلك الأمور . ثم بحركة عصبية كان يركز نظارته وينصرف قائلا : « أندري ، يا كاتشو ، لن يدهشني شيء بعد الآن . حتى ولا أن أكون قد أنجبت شاعرا . فهذا العالم الجديد مجبول على قلة الحياء . أنا لذي موهبة بلهاء تجعلني لا أستطيع العيش دون أن أعمل . فلا تعتقد أنني سعيد بذلك ، انه يكاد يقضي عليّ . » ثم كان ينطلق بسيارته السوداء القاهرة نحو واجباته الضخمة .

كم كنت أود أن أصبح رفيقه ، ولكنه كان يمتنع عن توطيد أي شكل من أشكال الصداقة الحميمة مع أي كائن كان . كان صمته المطبق يجعل نساء الجوار يرتعشن من شدة الرغبة ، ومن الغضب أولئك الذين كانوا يعتقدون أن من حقهم أن يحظوا بقليل من صداقته . أترين يا إيزابيل ، لقد كان ذلك دون شك بسبب تلك القمة المدببة والعالية بحيث لا يمكن بلوغها والتي ترعرعت تحتها ، اني عانيت على الدوام من نقطة ضعف حيال الساحرات . والنساء يدعين البطولة ولا يبحثن في حقيقة الأمر الا عن الحنان المريب والمشبوه لدى الضعفاء والمجازين . وبالمقابل ، أنت من أصل طيب . فقد هجرت زوجك الأبله وأحدثت عقدة في حياتك البسيطة والطيبة والهيئة تماما لتحصلي على استقلال مريح . لقد انتفضت على الملل الناتج عن رتابة الممرات اليومية التي تتوالى كالماء الذي يجري دائما في الاتجاه نفسه . وأنا أهنيك على ذلك . فهذا جيد ، جيد جدا . لا تدافعي عن نفسك ، انك

شجاعة ، في مسكنك الصغير الكائن في الطابق الرابع عشر حيث لا يعرفك أحد . أنت تعطين دروسا شبيبية لغتيات يرتدين الملابس اللاصقة التي تضيق بأجسامهن . ان ماضيك اعتبارا من عام ١٩٤٠ ، هو صفحة رمادية داكنة لا تريد معرفة النص الذي تتضمنه . « ايزابيل » ، استسلمي للحب ، انصرفي للعمل ، هنا ، هكذا ، وانت مستلقية على ظهرك ... اناملك . وأفكر بعدم امكانية رؤيتك . كان بإمكانني ان أزعجك بركلة من قدمي لو أردت ذلك ، فيما مضى . من الصعوبة بمكان اخفاء أي شيء عن شخص ضير . فقد عرفت كل شيء عنك وذلك دون أن يكلفني ذلك كبير عناء . فانت تسكنين ذلك الحي منذ ثلاث سنوات . وقد هجرت زوجك تاركة اياه بين ذراعي أمك ، او بالأحرى على ثدي أمك لأن تلك التعيسة لم تكن تشعر بشهية الا لزوجها السكير الذي تنتظره ، والكأس بيده ، وهي ترتب الكلمات المتقاطعة في صحيفة « فرانس سوار » . انها تتنهد عندما يتعلق الامر بابنتها . كما أن السيدة « كلاريس » تعرف ، رغم كونك ترتدين القمصان المدرسية ، انك قد أصبحت شابة تتمتعين بالاصالة . وهي تواسي نفسها عن تصرفاتك الجنونية بالانصراف الى حل الكلمات المتقاطعة . وقد أحسنت صنعا بتخليك لها عن زوجك . فهو يدبر أمورها ويؤمن لها حاجياتها ، ويحدثها عنك . واني لا أتذكر أمكا جيدا ، فقد كانت رائعة القوام ، تضع في اذنيها قرطين لهما شكل الجرس . كانوا يلقبونها بـ « نونو » . وكانت « ماميتا » تلبسها الأزياء الأندلسية . ولكن « دون الفونسو » ، من جهته ، كان يفضل أن يجعلها تبرز وتجلس له عارية تماما . ويجب أن تقول أنها عندما كانت تجلس له كموديل يكون في يدها دائما صحن في داخله تفاحة . وانت ، حالما كنت ترينني ، كنت تختبئين خلف أحد التماثيل أو بين طيات تنورة « فيكتوار » ، هذه العاهرة التي قضيت عمري وأنا اتحاشاها دون أن أتوصل أبدا الى ذلك . انها هي التي نصبت لي فخا واصطادتني . لا ننقمي عليّ لاني اختفيت ، يا ايزابيل ، فقد كنت بحاجة للتفكير . واذا كنت ، رغم المظاهر ، قد انتهت بي الامر الى الانزواء في محبس في الطابق الرابع ، فذلك لاني شخص عاقل .

وقد بقيت على الدوام أحلم بالسكنى في قرية صغيرة الوانها زاهية ،
وردية اللون من أسفلها الى أعلاها كقرى منطقتنا ، قرية أكون سيدها
يحبني فيها الجميع . لقد قلت لك ذلك ذات يوم ، أني حققت أحد
أحلامي ، بتلك القرية الصغيرة التي جعلت عبيدي السود الصغار
يلونونها لي باللون الوردي الزاهي ، أنهم أطفال الحي الذين يحبون
أغنياتي .

والآن أعرف أنك سوف تطيعني . لقد كنت تراقبينني بدقة عند
ما كنت أجلس الى البياض في صالون جادة « بير » . وأنظر بفضول
واشتهاء الى « ليونتين » . يا لك ، أنت من بعوضة غريبة ومضحكة .
كنت دائما . أشعر برغبة شديدة بأن أسحقك عندما يحدث لي أن المضحك .
والآن أتى دوري كي أترصدك وأراقبك بدقة . أعرف أن لك وجهها
دقيقا وشعرا أجعد ، وأنك تعطين دروسا للشباب في المنزل رقم ٢٠
الكائن في جادة « الجنرال لوكليرك » لكي لا تكوني مدينة بشيء للأبله
الذي تزوجتيه . دروس شيبية . وأنك تحيطين نفسك بالحدباوات
والمسلوعات اللواتي تعلمينهن البقاء شابات وأن لا يصبحن عجائز .
ونتساءل لماذا كل ذلك . فحمدا لله ، لن تتمكني من أن تمنعهم من
الموت . وبالا انتظار فإن معهد (N. P. V) يتيح لك مزيدا من الرضى
والمسررات . انه لأمر جميل الا يتقدم المرء بالعمر والا يصبح عجوزا .
وأنت ، حقا ، كم عمرك ؟ ثماني وعشرون ، ثلاثون ، ثماني وثلاثون ،
أربعون ، خمسون ؟ بالتأكيد ليس أكثر من ذلك . الا اذا كان الزمن
قد مرّ وانقضى دون أن يلامسك . ولكنه قد مرّ وانقضى مع ذلك ،
وعلى أية حال . وأنا ، كم يمكن أن يكون عمري ؟ ولكن لا أهمية لذلك ،
فأنا عنصر سيء . والعناصر السيئة ليس لها ضابط أو معيار . وفمك ،
أستطيع تصويره ، انه مالح كغم الأطفال . وجسمك يتمتع بشفاية
شديدة ويكاد يكون غير محسوس . هيا ، اخلعي ملابسك . »

وصمت الصوت ، حينما بدأت أعتاد على ضحكاته المكتومة .
وتصاعد في داخلي شعور بالمد والجزر ، فأصبحت كاني مطمورة داخل

مغارة مظلمة . لم اكن اُعرف شيئا عن تلك الآلات التي يسمونها مانيتو (مولد كهربيسي) ، وترازيستور ، ولا عن أية أداة أخرى للتعذيب تستعمل في البيوت أو في الثكنات . كان المد والجزر يتعاضم ، مهددا بخطر جسيم ، اخذت اتحسس الجدران ، اتفحصها ، وافتشها ، عندما برز فجأة نتوء تحت أصابعي . ضغطت عليه بحيلة وحذر في البداية ، ثم بكل قواي وفي الحال سمعت شخرا تبعته حشرجة . وكانت تلك هي النهاية . أدت حلمة الثدي نحو اليسار فتصاعد منها هذه المرة صوت أجش مبجوح . وكان هنالك تهديدات يتخللها نقيق متكرر . كان الصوت عند قدمي ، يتلوى ويلتف كالانفوان حول مرقدتي . واعتقد اني سقطت ثانية على ظهري مرسله انين امرأة مشبعة وراضية .

في السادس من آب (أغسطس) لم يكن الحر الشديد قد خفت حدته ، ولم أكد أضع قدمي خارج المنزل بقصد شراء بعض المواد التموينية ، حتى دفعتني ثانية الى قاع المدينة روائح العرق الممزوجة بالرياح المنطلقة عن الاسفلت الشديد الحرارة .

كان هنالك بعض لاعبي الكرة الذين يكتنفهم البخار الرمادي ، يتابعون مبارياتهم بحركات تشبه حركات الناقهين . والكشك ، وعلم دار العمدة ، والسيارات المصطفة على طول الرصيف ، بدت لي فجأة أكثر مدعاة للشفقة من أوان قديمة من البورسلين ملقاة في ركن قصي من أحد المستودعات . وكانت أعضائي ، بعد ثلاثة أيام من التوتر والإرهاق ، تبعث في جسمي الألم الشديد ، وبينما كنت أعبّر الساحة ، لامسني أحد راكبي الدراجات . لم يكن هذا الشخص من جماعتنا . واليوم ، كان أطفال حديقة « الاسبيران » يلعبون تحت نظرات خفيفة يلقبها الناس عليهم . وقبل موعد العطلة بقليل ، لاحظت وجود رجال يرتدون الملابس الفامقة اللون ، كانوا يتأبطون حقائب انيقة ، بل وسائح أو اثنين قد ضلا طريقهما . ولكنّ حينما كان في حالة من الغيبوبة في

صباح ذلك اليوم الحار . كان وحده تمثال « ميغيل سيرفيت » (١) الواقف بين السلاسل المحيطة بالرخام ، يحتفظ برفعته ومركزه العالي : « ١٥١١ - ١٥٥٣ » ، ميغل سيرفيت ، أحرق حيا - وتحت هذه العبارة المكتوبة على القاعدة ، أضافت يد منصفة بالقلم الأحمر مايلي : « من قبل الكنيسة » . وبينما كنت أسير بخطى ثابتة في شارع « موتون دوفيرني » ، بدت لي صورتي الظليلية التي كانت تمكسها واجهة بائع البورسلين ، أقل حجما مما كانت عليه قبل احتجازي .

لم أعرفها في بادئ الأمر : علمت فيما بعد أن السيدة « سيرافين » ، بائعة الألوان ، قد أدهشتها مشيتي التي كانت تشبه مشية النائم . ونادتنني فلم أستجب لندائها . لم أكن ، والحق يقال ، متأكدة تماما بأنني حية ، حتى ولا أنني كنت كذلك عندما كنت ملقاة على سريرى ، لا انهض الا لاسد رمقي بقليل من الشاي والبسكويت ، دون أن أهتم أو أشغل بالي بالرسائل التي كان يدسها البواب تحت باب غرفتي . وعلى كل حال ، ربما لم يكن الموت سوى نعمة وحالة من العقو يبلى بها الجسم تدريجيا ليسمح للماضي أن يطفو على السطح . كنت قد تعلمت كيفية تنظيم الصوت الذي كان قد حبسه « كاشو » من أجلي وأثناء الليل كما في وضوح النهار ، كانت آليته تستجيب لضغوط أصابعي . كانت الايام تمضي دون عثرات ، وشيئا فشيئا أخذت الكلمات التي كانت تصدمني ، تصبح ضرورية بالنسبة لي . كان الصوت يخضع لمتطلباتي . وكانت الصور تبرز حالما أشعر برغبة بذلك وكنت أعود فأصبح فتاة صغيرة حتى في ذاكرة الآخرين . كان صديقي يستعيد لهجات جنسه ، في الشعر أو في الموسيقى : « ان فمي ممتليء بالرمل . افتحوا صدأرياتكم . هنالك عصفور يصوت حتى الموت - ومن جنة النعيم هذه ، التي تعلمت التعرف أكثر من مرة على غروب شمسها

(١) « ميغيل سيرفيت » : طبيب وعالم لاهوت اسباني ، ولد في عام ١٥١١ وأحرى حيا في جنيف عام ١٥٥٣ بتحريض من « كالفان » . - المترجم -

المرهق ، كان يتصاعد غبار سيء يسد لي أنفي ويسبب لي أحيانا نوبة
سعال حادة .

كان « كاتشو » يلهو في بعض الاوقات باستعادة ذكرى ماض من
الحنف كان يحيله اليّ بصفحات متتالية . ودون تمهيد كان يتخطى عن
تحركاته وتنقلاته السريعة اثناء شبابه ليدخل في طفولة امرأة لم يكن
قد تنازل مطلقا أن يلقي نظرة عليها . حينئذ كانت تماثيل جادة « بير »
تبرز حية من قبورها ، وكذلك السيدة « كلاريس » في فستانها الإند
لسي . و « دون الفونسو » يعطّر لحيته أمام مرآة صغيرة ، وأبنؤه
يزرعون ممرات المنزل جيئة وذهابا صارخين صراخا وحشيا . وكان
صوت « كاتشو » يعود لاذعا وحزيننا : « في ذلك البيت الذي ولدت
فيه ، كانت « ليونتين » هي التي اشتيتها في بادئ الامر . لم يكن
لها عضو تناسلي . انت لا تعرفين شيئا عن الهوات المغرية والمثيرة
للرغبة والشهوة ، يا ايزابيل ، ولكنها صرّحت لي ذات مساء بصوت
ضعيف : « أريد أن تتيح لي مشاهدة عملية إعدام . » كان يتخلل عينيها
اللتين تشبهان عيني السيدة العذراء ، تيارات سوداء . فأجبتها :
« بالتأكيد ، اعتمدي عليّ » .

رغم ما كان يبدو من قسوة على آلية الآلة التي وصفتها في بادئ
الامر بأنها جهنمية ، فانها كانت تستطيع ان تصبح رقيقة ومتساهلة
وبدأت اعرف نوابضها ودوافعها . وهكذا ففي كل مرة كنت أتوصل الى
تبديد الاشباح التي كان « كاتشو » يرغب فرضها علي ، والتخلص منها
كانت تبرز فجأة وبقوة بعض الصور الملونة والقاتنة من بين مجموعة من
الطليق : ذيل ثوب « ماميتا » ، أبرتها وهي تثقب قماش مريلة .
كنت أتابع تحرك الابرة عبر العنيد من الطيات والوصلات . والالم الذي
أخذ يسري تحت شعر السيدة « مارتينيز دو آكونا » والذي كاد
يقضي عليها ، كنت أشعر به . وعما قريب يمكن ان تصبح هذه المرأة
باردة الجسم تماما كاي ميتة اخرى .

ورغم يقظتي الشديدة ، كان صوت « كاتشو » في كثير من الاحيان يغير الموضوع دون أن أستطيع منعه من ذلك والمريلة المطرزة ، وذيل الثوب المخملي ، كانتا تدوبان ، وتمحي الصورة . كان الصوت يقول : « فيكتوار ، فيكتوار » . وكأنه يتحدث عن السم الزعاف . كنتما تذهبان سوية الى القديس . كانت هي تسير بسرعة الفرقاطة ، وكنت أنت تسيرين كزورق صغير من الورق . ولم يكن هنالك بالنسبة لها سوى الصرير ، وكان لسانها مشقوقاً ومتشعباً كاصابعها . ولم أستطع أبدا القضاء عليها ولا الاستغناء عنها . ولكنك لا تعرفين شيئاً عن هذه الامور يا « ايزابيل » ، قالجرائم الصغيرة غريبة عنك . فهل بإمكانك أن تمنحيني ثانية طعم الحرير ومحبته .

طعم الحرير ومحبته ... ماذا كان يعني بذلك ؟ لم أكن اعرف شيئاً ، بالفعل ، عن تلك الهوات الجلابة والمثيرة للريبة والشهوة ، ولا عن تلك الجرائم الصغيرة التي كان يتحدث عنها .

قال مدمماً : « لقد سألوني هاجس « فيكتوار » . وكم كانت « فيكتوار » ترغب أن افرغ كما يفرغ كيس عتيق تكون قد دفنت فيه كلباً ميتاً أو اية قدارة اخرى . كانت تعلم أنني كنت أشتهي « ليونتين » وأني كان عليّ أن اخترع باستمرار بعض الرذائل والعيوب كي اوقف لدى اختها ما يشبه الرغبة . كانت تعلم ان « ليونتين » كانت فائنة ولكن في « بيلاريتز » كنت هي ، « فيكتوار » الصغيرة ولا احد غيرها ، التي كنت أتأملها باعجاب من تحت فستان « ماميتا » بينما كانت هذه تتمطى وتسترخي وهي تنتظر ولادتها . من أين أتت ، ثمرة ذلك البطن ؟ ..

كانت الروايات الاكثر تناقضاً تنتشر وتروى عنها ، ولكن بالنسبة لي ، إن كانت من أمير أو من رجل عبقرى ، فاني كنت أعلم أنها سوف تتفتح في الشمس دون أن تساورها الوسوس ، وكنت اعزها . كانت « ماميتا » تسخن ممن يعجب بها . وتقول ضاحكة : « إن طفلي ،

حالمًا يولد ، سيجعلك ترى منه جميع الألوان . كان « دالمرو »
و « جاك » يقدفاني بأواني ملأى بالماء على رأسي حالمًا يفاجئني وأنا
أتعبد . « إن الجنين قد سحره ! » وكانت « ماميتا » تلامس بلطف
رقتي من الخلف . « يا للشجرة الصغيرة المسكينة ، لسوف تجفين
وتيبسين بسبب بقائك ساكنة هكذا ، دون حراك » . والواقع أن الأمر
اقتضى مني بذل الجهد خلال سنوات كي أبلغ المستوى الجمالي الجيد ،
أو بلاهة الإبطال ، وذلك لكي تقلع سيده أحلامي عن ارسالي لألعب في
الحديقة . ويجب القول أنني في قرارة نفسي ، كنت أعرف أن ذلك الشوط ،
بل ذلك السباق ، مهما عملت ، فاني لن أربحه أبداً .

كان يمكن أن يكون « كاتشو » قاسيا ، ولكنه في كل مرة كان
يلمس في جسدي موضعاً مؤلماً ، كان يبدأ في الحال يروي شقاوات
شاعرية قديمة ، وكأنه بأسلوبه اللطيف ، ليس سوى كلب صغير .
كان يترجم بعض أغاني بلاده التي كانت تصبح حكايات تروى على أنغام
الجيتر : « السمبا في بلادنا تشبه عدو الحصان في السهل الفسيح » ،
هذا ما كان يقوله أيضاً : « إن رائحة القمح والذرة الصفراء تفوح من
حكاياتنا . وهناك كذلك « Les Tristes » (المراثي والقصائد
الحزينة) (١) وهذه تصلنا مع ربح الشمال ، الذي يعلن عن نوبات
الغضب الكبرى . وفي الوقت الذي كان فيه الرجل يجلد الجلد الخام
ليصنع منه الزناير ، كانت المرأة تدير « كأس » المتة وتنقلها من يد
إلى يد . كانت مهمتها تقضي بتسخين الماء ، تارة لتأمين راحة ورفاهية
العامل ، وتارة من أجل ولادة طفل ، سيكون له ، هو أيضاً ، الحق
بالحصول على حصان .

(١) « Les Tristes » (المراثي) : قصائد مؤثرة نظمها « أوفيد » أثناء إقامته
في « توميس » . وهو شاعر إلاتيني ولد في « سلمونا » (٣) ق م - ١٧ م ، وكان
شاعراً لامعاً ، سهل العبارة ، أبعده إلى « توميس » وهي مدينة « كونستانزا »
الرومانية الحالية الواقعة على البحر الأسود ، وقد توفي الشاعر فيها .
- المترجم -

كان « كاتشو » يكثر من سرد القصص البسيطة بصوت حزين ، ثم بشكل مفاجيء ، كان يبسط جناحيه ويطير مطلقاً نحو القمم ، حيث قوانين الزمن وقوانين الوزن والجاذبية الأرضية تصبح مختلفة عن قوانيننا . وإني لأذكر قصة مراقبين كانا قد اكتشفا قصراً مهجوراً في أرض بور مهجورة ، وكذلك قصة شاب كان مغرمًا بثلاث أخوات كانت تتداخل أحدهن في الأخرى عند حلول الظلام ، كالدمى الروسية . كان « كاتشو » يستطيع أن يخترع ، أن يتحدث أو يغني ، دون أن ينال أبداً قسطاً من الراحة ، وكانت حياتي ، تمضي يوماً بعد يوم ، منسوجة بكل غرزات وحبكات سجادة بربرية . ولكن ، ويا للأسف ، كان عليّ ، ذات يوم ، أن أضع رجلي على الأرض ، وأنزل إلى الشارع ، ومجابهة حر المدينة ، أي أن أعود فأصبح وحيدة مهمومة ، تقوم بالمشاوير لتقضي حاجاتها .

أترك لكم أن تتصوروا مبلغ ياسي عندما عدت إلى منزلي في نحو الساعة الثامنة عشرة ، ودون أن أمضي الوقت بخلع ملابسي ، أسرعت إلى الحلمة السحرية ، أدرتها في كل الاتجاهات ، وأدرتها ثانية دون أن أحصل منها على صوت .

لقد لعب عليّ « كاتشو روديكز » لعبة جديدة ، هي لعبة ، بل حيلة الصمت . وهذا الصمت ، كنت أسمعه . كان هناك باب يفتح محدثاً جلبة قوية ، كانت جارتي تعاني من آلام الوضع ، وكانت الصحون تتساقط عن الرفوف . وفي الشارع الرئيسي كانت السيارات تصطدم ويدخل بعضها في البعض الآخر والطيور ، نعم ، الطيور ، كانت تثقب لي أذني .

ومرت الساعات الواحدة بعد الأخرى ، وكذلك الليالي ، دون أن يقبل الصوت بالرجوع . وذات صباح ، بينما كنت أفتش من جديد جدار غرفتي ، أدركت أن جهودي لا جدوى منها ، وأن الصوت كان قد هجرني : ولم تكن تلك حيلة أو مهزلة « كاتشو » الأولى .

حينذاك عزمتم على الذهاب للبحث عنه . ولكنني هذه المرة كنت مطلعة على سره ، سر قرية صغيرة وردية ملونة بلون الدم .

لا أحد يعرف زقاق « الزهرة » La Fleur المغلق . إنه أضيق من دهليز في أحد السجون وأكره رائحة منه . ومع ذلك ، فاني في ذلك اليوم ، بعد مشوار طويل غير مجد ، قررت الدخول اليه . وبعد مسافة خمسة عشر مترا تقريبا ، لمحت الباب الكبير الذي كنت أبحث عنه والذي ظلت صورته عالقة على شبكية عيني من أيام مشاويري الاولى ، وذلك دون شك بسبب فخامته المزيفة ، وسط تلك القذارات . ترددت بدفع الباب ، الى تلك الدرجة كان المكان التي كنت موجودة فيه يجعلني أفكر بعمل أحد المازحين الذي يمكن أن يكون قد حفر سردابا في ذلك المشى الواقع في الطابق الرابع حيث كان يقيم منذ خمسين عاما ساعاتي ، وخياطة ، كما كان يوجد فيه مكتبان لدفن الموتى . ولم أكن أتصور أنه يمكن أن يوجد خلف حاجز تعلوه دالية برية كبديل لزهور الياسمين ، ومع ذلك كنت أعلم أن تلك هي ما كانت تسمى القرية الصغيرة ، تلك القرية التي كان يعدني بها «كانشو رودريجز» بين حكايتين سيئتين .

لم تنخفض درجة الحرارة . كان الوقت ظهرا وبقيت جامدة على متبة عالمٍ جذبت اليه رغما عني وكان يبعث القلق في نفسي . وعندما دفعت الباب ، لم يسمع أي نباح ، كان هنالك مساكن ، أو بالأحرى أكواخ ، موزعة على صفتين ، أكثرها مزدان بأحواض زرعت فيها الزهور . كانت مطلية باللون الوردي ، وهذا اللون الوردي كان غريبا جدا لا يتناسب مع منظر الواجهة المهدمة والاسطحة التي تغطيها الأعشاب الكثيفة . كنت أشعر كاني مرجودة في أحد أحياء إيطاليا الدنيا وأخذت أسير بخطوات حذرة بين تلك الجدران حيث كانت النوافذ والأبواب مغلقة . لم يكن يبدو أن أحدا كان يشعر بوجودي . وفي لحظة معينة ، اعتقدت أنني محتجزة في مدينة مهجورة ، بل وميتة . وأخذت

مياه لزجة تنزاق على خدي ، كنت عند ذلك قد أخذت أفكر بالعودة من هناك عندما هتف بي صوت : « من هنا ، ادفعي ... » وألقيت نفسي أمام منزل مؤلف من طابقين ، كان يبدو جميلا . وكان « كاتشو » الذي ما زال متيقظا يترصدني ، قد عرف وقع خطواتي . دفعت الباب ودخلت الى قاعة غارقة في الظلام ، ولو لم يهديء الصوت من روعي ، لكنت أخذت أصرخ بأعلى صوتي ، قال الصوت ، « تبدين كفتاة صغيرة . نحن وحدنا هنا . والجميع نيام ، الجميع ما عداي . الدرج امامك ، بل تحت أنفك ، هيا اصعدي ! » ...

كان « كاتشو » يصدر الأوامر ، وأخذت من جديد أنففس بحرية . كان الصوت حازما . بعد فترة وجيزة لم يعد هنالك أثر للدرج . توقفت . صمت الصوت وشعرت بأنه يجب علي مراعاة تعليماته دون أن أطرح ابدا أية أسئلة . « لا تخافي ، أنا مسئول على سريري ، وهذه هي غرفتي . ويوجد من كل شيء في غرفتي : الحرب ، اللذة ، الرسائل والنصوص المكتوبة بيد أصحابها ، نعم ! رسائل أولئك الذين آمنوا بي . يجب أن يكون دائما لدى التوائغ وأصحاب العبقريات نقاط ضعف حيال الناس التافهين . وهنالك الحيوانات التي أحببتها ، أخواتي و « فيكتور » . « مشيت في الغرفة الفارقة في الظلام ، سعيدة جدا لشعوري بأن « كاتشو » يرغب بتعذيبني . كنت أعرف من زمن بعيد أن برأئي كانت توقف خبثه ومزاحه . وبعد برهة ، أخذت أميز بعض الاشكال وأدركت طبيعة بعض الأشياء . تحسست بأصبعي صندوقا معدنيا صغيرا وضع فوقه تمثالان صغيران . حدثت طقطقة وأخذت بعض الدسم ترقص وتلور . ثم قفز على ذراعي شيء مغطى بالشعر . قهقهه « كاتشو » ضاحكا : « هذا اليفغار (١) ودبه » . شعرت بشيء يخمشني في جبينني . لا شك أنه غصن دردار عالق في درفة النافذة . كسرت منه

(١) « سيرج ليفغار » راقص ، واضع وقصات ومدرب دفعس فرنسي ، ولد في « كييف » عام ١٩٠٥ . الراقص الأول ورئيس فرقة الباليه في الأوبرا منذ ١٩٢٩ . - المترجم -

قطعة وقربتها من أنفي . كنت أشمُ عبر رائحتها حزن الحداثق القديمة .
لمست لوحة مثبتة في اطارها . منظر ام تجريد ؟ ... ربما لم تكن سوى
صورة احدى القريبات جالسة على أريكة كبيرة . كان « كاتشو »
صامتا . كان ايقاع تنفسه يدلني على اللذة التي كان يشعر بها لادراكه اني
أقوم بلعبة الاستغماية في منطقة نفوذه . وقال : « ان اللوحات التي على
رفت المدفأة هي من عمل « ماكس » . هذه بريطانيا . بريطانيا الحقيقية .
وعلى الجدار الآخر ، « فيفاري » ، مخبر حسن التهذيب كان يرسم
تساطيننا . آه نعم ! ذلك التمثال النصفي الكائن على الحامل ، هو
لزوجة شاعر — أو بالأحرى لنصف زوجة شاعر . كان قد قطعها في ليلة
غضب . كنت قد أردت ادخال السرور الى قلبه باقتلاذي نصفها
أو بالأحرى نصف نصفها ، وباعادة صبها في قالبها ، ولكنه لم يرغب
بذلك . كانت هنالك الحرب في بلاده . ففضل أن يتستري سلاحاً . ثم
ودع الجميع قبل أن يسافر ليؤدي واجبه . كان ذلك البائس يرتعد
خوفا . اشترى معطفا من القرو وذهب ليقيم وحيدا ، في غرفة في أحد
الفنادق ، هكذا متدثرا بالقرو . يجب القول أن الفصل كان فصل الشتاء
وأن البرد كان قارسا جدا ، خارج اسبانيا » .

وبعد مرتعشة لمست التمثال النصفي الذي كان « كاتشو » يحدثني
عنه فشعرت بالغثيان . فقد انغرس اصبعي في شيء لزج . كان هنالك
قرطان يتدليان على كتفي التمثال المذكور ويلامسان الثديين بحيث كان
بإمكانني أن أروى بل وأن اقتزع قليلا من الشمع ، ولكنني سحبت يدي وقد
شعرت بقرف شديد . كان صوت صديقي أجسا ، وبينما كنت أتابع
رحلتي على جدران غرفته ، اصطدمت أصابعي بشيء ضيق ومسطح ،
تابعته ، فاكتشفت شكلا كان يتناول نحو الأعلى متوسعا . لامست الشكل
باحترام فطري . نفوه « كاتشو » قائلا : « نعم ، مادة جميلة . فالتمثال
عرف كيف يستغل عيوب العاج ليثبت الساقين على الخشب . المسامير
تعود للقرن الخامس عشر ، وكذلك الدم . والذراعان كسرنا ، ثم أعيد
وصلهما بواسطة المسامير ، أما الصليب فهو حديث . وكلما سارت

الأمور بشكل أفضل ، كلما عمدنا الى التعذيب . كنت أعلم أنك يمكن أن تحبى الرب ، في هذه الغرفة التي سجنته فيها . « لم يكن هناك أي شك بأن الضرب كان يتابع حركاتي بكل دقة وكنت أعرف أنه كان يطلب مني أن أتابع البحث والتفتيش . كانت نفوح في الغرفة رائحة الدخان البارد .

كانت كل النوافذ مغلقة ، في القرية الصغيرة ، والزهور التي كانت لا تزال تحيط بما بقي من المنازل ، قد ذبلت . « لا تخافي ، فالجيران هنا ، يعانون من الحر الشديد . وقد دهنت أكواخهم كيفما اتفق وخربشتها ، وكنت قد دللتهم ، طيلة سنوات عديدة ، والآن فهم بنامون من شدة الجوع . ولا تزال باريس عاصمة الأرجنتين ، ولكن بلادي لم تعد سوى كيس عتيق من العفن . اقتربي يا إيزابيل . لقد حان موعد حقني بالابرة . وأنا مصاب بمرض خطير . فلن أستطيع المشي بعد الآن . احضري الصندوق الصغير ، نعم ، انه على الخزانة الصغيرة . والعلبة المعدنية ، وهناك ... القارورة ، زجاجة الكحول الصغيرة ... لا تخافي ... القارورة ... هذه هي ، برافو ! اكسري القارورة ، نعم على الرخامة ، اكسريها ... » . كان صوت « كاتشو » منقبضا ، قويا أكثر مما ينبغي ، ويكاد يكون انشويا . ولكن لماذا كان علي أن أطيعه . فلو كان حقا بحاجة للعناية والمعالجة لكان أحدهم تكفل بالقيام بذلك . تجسست الخزانة الصغيرة ، القارورة ، والمحقن . كان « كاتشو » يثن : « أسرعي . » ولكن كيف يمكنني أن اعترف له بأنني أجهل كل شيء عن هذه الأمور ، وأنني لم يسبق لي مطلقا أن لمست محقنا ، وأنني أكره كثيرا كل أدوات معالجة الأمراض والآلام . « لا تخشي شيئا ! أسرعي ! لقد رايت بالتأكيد كيف كانت « ماميتا » فيما مضى تدس يدها تحت ملابسها الداخلية دون أن تكف عن الابتسام . لقد كانت قوية جدا حيال هذا التنوع من الأمور والأعمال . لم أعد أستطيع الاحتمال ! » كان الصوت قد أصبح سيئا . وجدت العلبة وكذلك القارورة . وأعادتنى رائحة الكحول على الفور الى المنزل رقم ٣١ ، شارع « بير » ، والى الصالون الصغير حيث

كانت « ماميتا » تدس فعلاً يدها تحت ملابسها الداخلية . « افتحي اللعبة ، هيا بسرعة » وكان هذا الصراخ الأخير مؤثراً جداً لدرجة أنه حطم ما بقي لدي من وسائل الدفاع ودفعني ، والمحقن بيدي الى قربه .

لم أعد أقاوم بعد ذلك وانحنيت على صديقي . جسيث ساقاً ، ركبةً ، خاصرةً . غرست الابرة في البشرة . فقال : « هذا حسن » ثم أعتزته انتفاضة شملت كل جذعه الأعلى ، تبعثها تنهيدة عميقة جداً . تمدد جسمه ، واسترخى ، ارتفع ذراعااه وجلدباني . « لاستغربي ولا يدهشك ذلك ، كنت أعرف أنك ستحضرين . سوف أجعلك تتذوقين حبي لك ، يا ايزابيل ، وبعد ذلك تستطمين الانصراف » . لم يعد صوت هذا الذي أطعته سوى شبكة . « لقد أتت « فيكتور » في الشهر الماضي . وغمرني بالزهور ، ولكنها رفضت أن تحقني بالدواء . فهي تحب أن ترى الآخرين يتألمون . وقد فتحت النوافذ لكي يسمع الجميع صراخي . اذ أن « فيكتور » كانت على اللوام تعجب بالمشاهد السيئة . فهي لايساورها الخوف ولا تجيد الارتجاف . فالارتجاف هو موهبة الشعراء . خذي يدي يا ايزابيل » . لم يعد « كاشو » يتحرك . التصقت به ، ألقيت رأسي على كتفه . أخذت يدها تعبت بشعري ، أطبق فمه على فمي ، وأخذ يتزايد ضغط ذراعيه حول خصري .

« لا تدهشي لغياب « سكوت » (١) . لم يكن قد بقي لديّ ما أطعمه اياه . وكنت أسمع أحياناً ينكي في الليل . ولكن لقد انتهى الأمر ، اني لن أستطيع المشي بعد الآن . وطالما أنت هنا ، فهذا أفضل » : كانت يدا الرجل تطيل ملامسة ظهري وتعبت بي ، وشعرت شيئاً فشيئاً بعذوبة تفمرني . ولم أكن لأغير وضعيتي مقابل أي شيء في العالم . « اني أعرف عنك أكثر مما تظنين ، يا ايزابيل . لقد كنت أنت الدفاء ، وكنت الوجه

(١) « سكوت » : هو الكلب .

الآخر المعاكس للكذب . فانت تمثلين كل ماكنت أحلم به ، وكل ماكنت أشعر بالجوع منه » .

وأنا مستلقية بجانب « كاتشو » ، كنت أصغي اليه ، وقد كتمت أنفاسي . كان لجسمه المبلل رائحة الحرير . فتحت قميصه وأدخلت يدي في الفتحة . أسندت فمي على صدره ، وفككت أزرار ملابسه بينما كان يداعب خصري باحدى يديه ويلاعب بين فخذيّ بيده الأخرى الى أن قلبني على بطني . لم يعد الزمن يمضي فقد توقف . كان جسمي مثبتا على جسم تمثال على قبر كنت اكتشف ماتحت ابطيه وأعضاءه التناسلية . كانت الأشجار تنبت في المدن . وبعض الشوارع تحازينا وتمر بنا ، وكان هنالك نهر تغطيه المراكب . كنت مستلقية فوق جسم اشتهيته من زمن الطفولة . كنت أشم أنفاسه ، أقضم فمه . وفجأة أمسكت عضوه ، رفعته الى أعلى كالعمود وأدخلته في جسدي ليبقى هناك الى أن انفجرت الدموع التي انبثقت من نظرة صماء وغمرتني .

أرجو الا يسألني أحد عما حدث بعد ذلك . لقد نسيت كل شيء . أعرف أنني بقيت زمنا طويلا أترقب عودة أنفاس « كاتشو » ، وأنا أنسى حتى آخر قطرة من تلك المتعة التي منحني إياها . وأعرف أنني غرقت بكل فرح ثم طفوت على السطح وذبت من جديد وفي كل مرة ، كنت أتجرّع السعادة من ملموم مقضي عليه ابتلعتة بشرتي .

أرجو الا أسأل عما حدث بعد ذلك . لقد وجدت جثة في منزل يقع في آخر زقاق قديم . وقد علم رجال الأمن الذين استدعاهم الجيران أن امرأة مجهولة كانت قد حضرت الى زقاق « الزهرة » ودخلت الى منزل السيد « رودريكز » ، الشاعر . فقد قام الجيران بواجبهم . ولكن الأوصاف التي أعطوها عن المرأة الغريبة كانت غامضة : انها بالأحرى شقراء ، ليست مسنة ولا شابة ، لا طويلة ولا قصيرة . وقد انصرفت واختفت بسرعة كما تتبدد الغائزات في الهواء ، ولكن لا تسألوها فيما اذا كانت قد شعرت بالخوف أو بالآلم . فهي لاتعرف شيئا عن ذلك . لقد قتلت

رجلا ، أنا ، « ايزابيل بود » ، وأعترف بذلك . وان كانت هنالك تلك الحقنة ، فهل انتم متأكدون بانها قد اوقفت قلب ذلك الرجل ؟ . . ربما كان يريد العيش ، وان الحقنة لم تكن مخصصة الا لاطالة سروره وبهجته . وربما كان يريد العيش متجاوزا بؤسه .

تأملوا ، مهما كان قرار العدالة ، فاني حرة وسوف اظل أبدا حرة ، لدي ذكريات يجب ان أفرزها وأستعرضها ، كميات كبيرة من الذكريات ، ولدي صوته . ربما تكونون انتم الذين دسستم ذلك الصوت بين سريري والجدار ! فانا ممتنة منكم من اجل ذلك . لن تتأخر « فيكتوار » بالحضور . فهي لا يمكن أبدا أن يفوتها حضور دفن أحد الشعراء . وعلاوة على ذلك ، ألم تكن قد تزوجته ، « هو بالذات ، كاتشو رودريجز » في الأرجنتين فيما مضى ؟ لست خائفة ، كلا ، لا تقلقوا فاذا كنت ابتسم فذلك لاني لا أشعر بالخوف . وكاتشو معي ، هنا بالذات ، وهو بخير ، انه يعني ، بل ويقهقه ضاحكا في بعض الأحيان . لقد خفت حدة الحرارة ، فلماذا يمكن ان أشعر بالخوف ؟؟

تموز (يوليو) ١٩٧٧



السيدة القصيرة

ذات الرداء الأسود

دفعت السيدة « ايلزا » الباب الخارجي ، اجتازت صحن الدار ودخلت الدارة (الفيللا) . وحالما أصبحت في منجى من الشمس ، وقفت أمام مرآة ونزعت قبعتها . كانت الردهة ، رغم فخامة أثاثها الواضحة ، مريحة وحفيدة . وكانت رائحة الخريف تفوح من الكتب القديمة الموجودة في المكتبة . كانت السيدة « ايلزا » تعيش طيلة السنة في البيت الذي ورثته عن والدها ، عضو مجلس الشيوخ : « رونديني » . وكان هذا البيت يقع بالقرب من أحد الشوارع الرئيسية . كان هنالك في الخزانة الزجاجية ، بين القوارير ، شيء يكاد لا يرى ، سن طفل أو رصاصة استخرجت من جرح أحد الأبطال ، كان شيئاً ظريفاً من الأشياء الغريبة التي تشير الفضول . وعلى الجدار ، فوق الموقد ، كانت قد توارت الصور التي أخذت في العطل والاجازات لتحل محلها صورة بارزة لرجل ضخم يتحلى بابتسامة عريضة وبنسارب صفف على الطريقة الإيطالية . وعلى ذلك الجدار نفسه ، كان هنالك صورة منفصلة عن إطارها لعروس برفقة رجل قصير القامة يبدو عليه السرور . وفي الجانب الآخر ، كان عضو مجلس الشيوخ « السيناتور » يقف بجانب تمثال « جوريس » (١) يخطب

(١) « جان جوريس » : سياسي فرنسي : (١٨٥٩ - ١٩١٤) ولد في « كامستر » خطيب لامع واحد زعماء الحزب الاشتراكي الفرنسي ، مدير صحيفة « لومانيتي » ومؤسس الحزب الاشتراكي الموحد . قُتل في ٣١ تموز ١٩١٤ - المترجم -

في حشد من الطلاب الذين يرتدون الزي الرسمي « الريدنفوت » . كل هذا العالم القديم ، المثبت بين الصور النصفية والمراوح اليدوية ، كان يبدو مستقرا تماما وفي غاية الراحة في ردهة آل « رونديني » .

فتحت السيدة « ايلزا النافذة » واستنشقت رائحة الريفون . نزعَت وشاحها ، تناولت قبعتها من الرف ، تأملتها ووضعتها في الخزانة مع القفاز . كانت القبعة قديمة ، تكاد تكون في مثل سن السيدة « ايلزا » ولكنها كانت لا تزال تنير الاعجاب . وكانت بائعة الخضار تؤكد بكل سرور قائلة : « ان هذه القبعة العتيقة ليست بالنسبة لي سوى احدى حداثق الفردوس » .

بدأ الجو يبرد في الغرفة التي لا تدخلها الشمس الا على استحياء، ولكن يدي السيدة القصيرة كانتا رطبتين وشعرها المصفف جيدا على جبينها ، كان رطبا أيضا . هزت رأسها ، أسالت الماء من صنبور على أصبعها وجلست قرب النافذة على كرسي هزاز . أخذت تشعر فجأة بأنها متعبة ، كما لو أنها كانت قد ابتلعت قطعة من الاسفنج امتصت كل هواء تلك الأمسية وتحولت الى سداة عندما وصلت الى حلقتها . ويبد عصبية ، أخرجت منديلا من تحت ثنورتها وجففت جفنيها . ثم استندت على الجدار وأغلقت عينيها . وبعد لحظات معدودة ، تنبته مدهورة . لقد دفع أحدهم الباب الخارجي . وأخذ يمشي في صحن الدار بحيث كان وقع أقدامه يسمع على الحصى . كانت السيدة « ايلزا » تستطيع معرفة زوارها من طريقتهم بقرع الجرس . ولكن هذا الزائر لم يقرع الجرس ليعلن عن نفسه .

« من هذا ؟ »

— أنا ، « جواكان » .

وفتحت السيدة « ايلزا » الباب لتفصح المجال بالدخول لشاب ذي وجه جميل ولكنه ينم عن القلق والاضطراب .

« كنت بحاجة لأتحدث اليك عن ... »

— اجلس . »

تمخط « جواكان » عدة مرات وأخذ يسعل . تناولت السيدة « ايلزا » دورقا من الخزانة وقدمت له شرابا .

« هل أتيت لحضور الاجتماع ؟ »

لم يجب « جواكان » . كان بالكاد قد بلغ العشرين من العمر . وكان وجهه باهتا بعض الشيء ، وعنقه نحिला جدا ، فتبادر الى ذهن السيدة « ايلزا » أنه عنق شخص مقضي عليه ، ودارت في خلدتها كلمات الرئاء والشفقة . ولكنها كانت تكره الرئاء والشفقة .

« أرجو المذرة ، لقد أتيت قبل الموعد ، لرغبتني بزيارة منزلك . »
كان يبدو منزعا للوليديه الكبيرتين من أي شيء

« يا سيدة ايلزا ، بيتنا جوّه خائق . أخواتي يتعاطين المخدرات ، أمني تلعب القمار مع بعض الجماعة ، وأبي غني جدا . أما هنا في منزلك ، فالمرء يشعر أنه بخير ، يتنفس بحرية . »

بدت الكآبة في عيني الشاب بينما توردت وجنتا السيدة القصيرة:
« أحسنت بالمجيء مبكرا ، سأطلعك على أسراري . »

أمسكت بيد الشاب ، سحبت ستائر الردهة وأدخلته الى غرفة صغيرة تنيرها بعض المصابيح . كان هنالك امرأة متحركة كبيرة عكست صورة « جواكان » والسيدة « ايلزا » . وعلى مكتب مستدير كان يوجد

ورق باهت اللون وبعض المغلفات . وعلى الجدران بعض مناظر مدينة باريس .

« كانت هذه هي ردهة ماما « لولا » ، وقد ماتت في التاسعة عشرة من عمرها . « هذا ما قالته أخيرا السيدة القصيرة بصوت واهن ، ثم أضافت قائلة بسرعة : « لقد عشت على الدوام بجانب والدي . ومن نافذة غرفتي ، كنت أستطيع مراقبته وهو يمشي أثناء الليل . كان والذي يعرف أشياء كثيرة . «

وفتحت السيدة « أيلزا » باب غرفة يكتنفها الظلام ، وبعد برهة، أدرك « جواكان » أن قناع الموت لمن كان بمثابة آله بالنسبة لابنته : « دون أرنولدو رونديني » كان يرقد مغلفا بالسواد على منضدة من الخيزران .

ولاحظ « جواكان » تحت النافذة ، وجود رقعة شطرنج غريبة الشكل ذات رسوم هندسية وتتخللها صور الأبراج موضوعة على قطعة اثاث مثلثة الشكل .

« انها إحدى ابتكارات السيناتور ، وقد أطلق عليها اسم « اللعبة العالمية الموحدة » . فهي تضم بمفردها جميع ألعاب العالم الأخرى .

— لكم أود أن اتعلم اللعب بـ « اللعبة العالمية الموحدة » .

كان « جواكان » شديد القرب من السيدة « أيلزا » وكان يشع من عينيه بريق غريب .

ربما كان عليك أن تمضي بقية حياتك لتحقيق ذاك . فعندما توفي والدي كان قد بدأ فقط يتفحص خفايا وأسرار الفوضى التي كانت تهم العناصر والمادة قبل خلق العالم .

صمت الشاب والسيدة القصيرة . وبعد بضعة ثوان ، قال
« جواكان » بلهجة حادة :

« اني اعرف ذلك . فاليوم لم يعد الامر يتعلق باللعب . ولكني
يا سيدتي ، انا تقطعة الضعف ، بل الجانب السيء في التمرد ، الجانب
الذي ينهار . وقبل اقل من عام ، اطلقت رصاصة في اذني . هذا
سخف يثير الضحك ، اليس كذلك ؟ »

شعرت السيدة ايلزا بتيار بارد يسري بين كتفيها وعندما عادت
الى تحت صورة السيناتور ، وضعت يديها النحيلتين على خدي
« جواكان » . وهمست بصوت منخفض : « احبك ، انك متحمس ،
مشبوب العاطفة ولكنك لست من جنسي . اصغ اليّ جيداً : عليك أن
تغادر هذا البيت في الحال . »

— كلا . . . كلا ، لست أنا !

كان الشاب قد أخذ يترنح .

« عليك أن تهدأ ، فهناك طرق عديدة تجعل المرء يشعر أنه مستقيم
في الحياة .

— لا يجب أن تقولي لي هذا ، أبدا .

كانت شفتاه بيضاء اللون .

« عليك أن تطيعني . »

— ولكنّ هذا جنون . اني اعرف ، اعرف ما يحاك في هذا المنزل .
انهم سيأخذونني ، ويتغلبون علي .

— « عليك الا تتكلم . »

كانت اللهجة حازمة . فاغرورقت عينا الشاب بالدموع . وانحنى على اليدين اللتين كانت السيدة العجوز تمدهما له وشد عليهما بيديه . وعندما اعتدل في وقفته ، كانت نظراته جامدة وخالية من أية فكرة . ثم أبدى ابتسامة مغتصبة ، فتح الباب وخرج .

كانت الاشجار التي في صحن الدار تنشر رائحة الصيف الزكية . وشمس المساء تضيئ اللون الأحمر على الازهار البيضاء ، وكانت السيدة الصغيرة تحلم بزهور « الجريسة » التي تتسلق جدران منزلها . أغلقت الباب وأخذت تنتظر . وفي آخر الشارع ، كان « جواكان » يبتعد مبديا حركات كتلك التي يبديها من به سكر شديد . ظلت ساكنة لا تبدي أية حركة خلال فترة طويلة تحت نظرات والدها ونظرات زوجها ، وهو شاب نحيل خداه موردان كان رجال الأمن قد قتلوه ذات مساء في « سان جوان » بطريق الخطأ . كانت قد بقيت متزوجة مدة ثلاثة أشهر ، وكانت تجد صعوبة كبيرة في تذكر اسم ذلك الذي ، لكي يكف عن احترامها ، كان قد انتظر مدة تزيد على المدة التي عاشها .

ثم جلست باسترخاء على أريكتها . كان جفناها يرزحان تحت وطأة خدر ثقيل يتسم بالكآبة . ولو لم يسرع مدعووها لكانوا وجدوها فاقدة الوعي في هذا المكان نفسه . كان يجب عليها أن تأخذ الأمور على عاتقها ، أن تتصرف وتعمل . والضغط الدموي يرتفع حالما نتحرك . كانت تعرف ذلك وتعرف بشكل خاص أنه لولا « ايلزا رونديني » ، ولولا طاقة النشاط التي ورثتها عن أبيها ، ما كان هنالك شيء بإمكانه انقاذ تلك البلاد التي هي بلادها . كانت تعلم علم اليقين أن أي أمل بالسلامة والخلاص كان يكمن في يديها وفي يديها وحدها فقط . كانت حرارة الشمس تزداد حدة . نهضت واقفة ، تخلصت من ملابسها السوداء وارتدت فستانا خفيفا . بعد ذلك أخذت تنتظر من جديد ، وكانت كل ثانية تمر على ذلك الصمت الذي يكتنفها تسبب لها ألما شديدا . وكانت لاتزال تتراقص أمام عينيها بين أشجار الشارع صورة « جواكان » المخلطة الأوصال .

كان الوقت قد تجاوز الساعة السابعة ، حينما كانت لم تعد تتوقع قدوم أحد ، عند ذلك سمعت رنين الجرس ثم وقع اقدام مألوفة . شعرت كأن كتلة من القطن أو شيئا شبيها بها قد سدت حلقها . فتحت الباب قليلا ومدت يدها لشاب نسلل الى البيت ، بعه على فترات منتظمة شباب آخرون يرتدون الملابس الغامقة اللون ، تبدو من عيونهم نظرات باهتة لا لون لها .

وفي صمت مطبق ، اصطفوا تحت صورة السيناتور .

« حسنا ، يا أولادي ، يمكننا أن نبدا . »

— ولكننا لسنا سوى ثمانية .

— لا أهمية لذلك .

— اليس « جواكان » هنا ؟

كانت السيدة « ايلزا » قصيرة القامة لا تبلغ بطولها ذقن اقصر رفاقاتها . والح اكبرهم سنا الذي يبدو أنه كان يتولى القيادة عند وقوع الاحداث :

هل تعلمين ماذا يعمل أبوه ؟

— « جوليو » على صواب ، يا سيدتي ، فالأمر لا يتعلق بنا بل بالقضية .

— ان القضية مدينة لكم بالشكر .

كانت اللهجة حازمة ، بل وساخرة ، ودون أن تتابع اهتمامها بضيوفها ، أخذت السيدة « ايلزا » تفرز صفحات كبيرة من الورق كانت تتقاطع عليها صور وأرقام . وعندما التفتت كانت نظرتها تنم عن الكآبة والغضب .

« عليكم أن تعرفوا أيها السادة أن أبناء الوحوش المخيفة ومشوّهي الخلقة لهم الحق بالحياة . فهل سالتكم أي بطن انجبكم عندما الحقتكم بالقضية ؟ »

ودون أن تنتظر جوابا ، وضعت رزمة من الورق في يد كل منهم .
« هيا ، الى العمل . »

أحنى الشباب رؤوسهم . وحاول أصغرهم سنا أن يضحك خلسة ،
وبدر من شاب آخر ما ينم عن التذمر .

أنتم أحرار ، ولكن عليكم أن تختاروا أحد أمرين : إما أن تنزلوا
وأما أن تتجهوا الى الباب .

حدث هرج ومرج أخيرا بين المجموعة القليلة العدد الملتصقة بالجدار
ثم قرر أكبرهم سنا بلهجة حاسمة :

« اننا موافقون . »

عند ذلك التقطت السيدة « يلزا » أنفاسها . وذابت تلك الكتلة
الاسفنجية التي كانت تسد حلقها . وتناولت على رؤوس أصابع قدميها
ووضعت قبلة على جبين كل رفيق من رفاقها .

« هيا ، أسرعوا ، لقد تأخر الوقت . »

وبطرف حذائها أزاحت البساط فكشفت عن فتحة سرية في أرضية
الغرفة الخشبية . وبدأ الشباب يهبطون الدرجات المؤدية الى القبو .
ولم يفتح الأخير منهم فمه ، ولم يعبر وجهه عن أي انفعال ، عندما
مد يده مفتوحة الى السيدة القصيرة ، فناولته شيئا ثقيلًا ومدورا .

وهمست باذنه : « كالعادة » وأمن الشاب على ذلك بحركة من رأسه .
اضطر أن يحنيه قليلا لكي يهبط ويغوص في الظلام .

أعادت السيدة « ايلزا » البساط كما كان على الفتحة السرية ، ونفشت شعرها . فمند خمسين عاماً عاماً لم يتعرق جسمها ، والآن ، مند نصف ساعة ، أخذ الماء يسيل على صدغيها كما كان يحدث في زمن شبابها عندما كانت تنهيا لاحدى حفلات الرقص . فككت أزرار قبة قميصها . كان نسيم الليل الذي يتسلل عبر شقوق النافذة ، عذبا . اختارت السيدة القصيرة كتابا وجلست على أريكتها .

وفي الأسفل ، في القبو ، كانت الآلات تعمل بشكل جيد . كان السيد « رونديني » قد اشتراها من روما ، عام ١٩١٣ . كان مستوى عملها ممتازا . وغداً عندما يكون أصدقاؤها قد انصرفوا ، ستذهب للنزهة ومعها حقيبتها الضخمة وقبعتها الصغيرة . وسوف يردد الجزار ما قاله مرات لا يحصى لها عد : « من يصدق أنها ما زالت تقوم بهذا العمل مع أنها ربما احتفلت ببلوغها التسعين من العمر في شهر نيسان ! » وسوف توزع المناشير الطافحة بالنقد والتهجم على السلطات ، فتنزعهما من حقيبتها وتدسهما كيفما اتفق في المدارس وفي الحدائق . كانت تجربتها في هذه الأعمال تربو على سبعين سنة . ولم يكن أحد يعتبر ابنة « رونديني » إلا فتاة صغيرة ومسيحية صالحة كانت تحب الجو الريفى الذي يسود حينها . وعندما كان الصباح يبدو لطيفا ، كانت تطيل نزهتها لتبلغ أرض البرية البور وتقطف الأزهار . كان ذلك الاثنين الأول من الشهر جوّه بشكل خاص ، ثقیل وحار . لذلك ربما قامت في اليوم التالي بزيارة الدكتور « كهون » ، وان لم تكن على تفاهم وعلاقة طيبة معه منذ أن أخذ يضايقها بالحاحه كي تتخذ لها خادمة ، بينما كان العيش وحيدة وبمفردها يناسبها كثيرا . فهي لم تكن أكثر عجزا من جاراتها ، اللواتي يقل عمرهن عشرين سنة عن عمرها . والله وحده يعلم لماذا أخذ الجميع منذ بعض الوقت ، يكيلون لها النصائح دون حساب : « حذار ، يا ايلزا ، يبدو أن فقدان الوهي يتزايد لديك باستمرار ، وأشجارك القديمة تكاد تسقط فوق أرض الدار . وباب منزلك يظل مفتوحا على الدوام . وبالأمس أيضا ... » .

ولكن كم كانت تلك الحيوانات المسنة سخيّة وبليدة ! لقد كان « رونديني » يكرهها . وكان يقول : « سوف ترون ، ساموت شابا كيلا أرى النساء الجميلات ينوين وقد أضمحلت أجسامهن وترهلت واعتري 'دمفتنهن الوهن والضعف » . وقد مات بالشكل الذي تحدث عنه لكي لا يرى صديقاته يتقدمن بالسن ويبلغن أزل العمر ، وكذلك دون شك كيلا يسمع شكاوى وأنين عالم غائص في المظالم . تنهدت السيدة « ايلزا » . ففي كل مرة تتذكر والدها بعترتها شعور بالضيق عليه ضربة سوط على جنبها ترغمها على التقلص والانكماش . وقبل أن تعود الى غرفتها ربما ستكتب رسالة الى ابن عم « ارنولدو » الموجود في « ميلانو » كان تلامذتها قد جعلوها تفقد وقتا ثميناً . وهي أيضا كانت شابة ولكنها لم تستسلم أبدا للخوف . فلا شيء هنالك أخطر من الخوف . ووالدها كان يعتبر الخوف من زمرة الأفاعي . ولكن لم يكن لدى السيدة الصغيرة رغبة بالكتابة ، فميلانو كانت بعيدة جدا . وابن العم يمكنه أن ينتظر . فهي ربما أطلعتة فيما بعد على ما كانوا يعملون أثناء الليل . وبطبيعة الحال ، فان لا أحد يستطيع تركيز تفكيره عندما يكون الجو ثقيلًا وحارًا الى هذا الحد . وهكذا ، فمنذ بضعة دقائق كان كتابها قد سقط من بين يديها ، وكان هنالك شيء يمنعها من تنظيم أفكارها ، شيء لم تكن تعرف منشأه ، ولا كنهه ولا اسمه . اعترتها رعشة . ثم ، ماذا أتى يعمل هذا العرق على عنقها وعلى فخذيها ؟ .. ربما لم تكن الحياة سوى انتظارا عبثيا لا طائل تحته ! لم يسبق لها مطلقا أن تأثرت بأفكار من هذا النوع وهي لم تكن تؤمن بالله ولا بالشیطان ولكنها لم يساورها أبدا أي شك بمرور وجود الانسان . كان الامر واضحا ولم يكن هنالك مجال للخطأ فقد كانت أسنانها تصطك . وكانت هنالك مياه لزجة تتسرب في الخطوط والتجاويف الكائنة حول فمها . لقد كانت تود أن ترزق طفلا ، واحدا فقط ، يكون جميلا مثل « جواكان » ، يكون بإمكانها أن توحى له بالأفكار الجديدة ، بمثل ما فعلت تقريبا لابن صديقتها « ليونور » ، الذي كان يرحل من بلاد الى أخرى متنقلا بين أمم مختلفة ، تقوده إحدى اليا بانيات ، داعيا الى التمرد والثورة ، الى الثورة ضد مديري وموجهي

الضمائر الذين ينشرون الجريمة وفساد الاخلاق ... ومع ذلك ، كلا ، لقد كانت مخطئة ، فابن « ليونور » لم يكن يدعو الى التمرد والثورة ، بل الى الظلم والطغيان . الا اذا كانت معلوماتها قد أعطيت لها بصورة مغلوبة . ومنذ بعض الوقت لم تعد واثقة من شيء . وجورجي لم يعد يأتي لزيارتها . لقد كان في الماضي يحب قضاء أمسيات الصيف في مكتب « رونديني » ، أمام اللعبة الموحدة التي كان يحرك قطعها وهو بهز رأسه كانت السيدة « ايلزا » تسمح له بذلك لأن أمه كانت متزوجة من أحد الفوضويين ، المعجبين بـ « سينسر » والذي كان يحلم بجزيرة مهجورة يمكن أن يبنى فيها هو و « رونديني » عالما جديدا . اعتدلت في جلستها ما هي الجدوى من أن تروي لنفسها الحكايات ، وأن تغش بل وتخادع نفسها بالتفكير بـ « جورجي » وبصديقاته اليابانيات ؟ كان هنالك ضجة خلف الباب الخارجي ، ضجة خطيرة تعرفها جيدا ، وكان مصر عدة أرواح بشرية يتوقف على رباطة جأش « ايلزا رونديني » . كانت الضجة تزداد وضوحا وكان رفاقها محتجزين في القبو الذي اقتادتهم اليه بنفسها قبل ساعة من الزمن . أخذت الضجة تنزايد قوة ووضوحا ، وأخذت تضغط عليها وتزعجها . كان هنالك أشخاص مجهولون بملابس رسمية قد اجتازوا الباب الخارجي دون أن يقرعوا الجرس . يا للشيطان ، بماذا كانت تفكر حتى أنها لم تشعر بذلك ؟ ... من المؤكد أن ذهنها قد اعتاد منذ بعض الوقت أن يعضي ويسرح خارج رأسها .

ودوت على باب غرفتها طرقات قوية كادت تحطمه ، في حين أن الآلات ، هناك في القبو ، كانت قد توقفت وصمتت . كان يجب العمل بسرعة لبناء عالم خال من البؤس والشقاء . فالجشع العام يقضي على الأذهان ويميت النفوس والشقاء شيء معيب وغير مقبول . وكانت السيدة « ايلزا » قد عملت تحت إدارة « رونديني » الذي استمر بإسداها النصيحة حتى بعد موته . كان قد رفض أن يحصل على الثروة والفنى وقد لفظ أنفاسه الأخيرة في السجن لأنه كان يصرخ بأعلى صوته في كل مكان بأن الشقاء لم يكن سوى جريمة منظمة ترتكبها جماعة من

المنحرفين الذين يتولون المناصب الرسمية . وعلى شاكلة السيدة « ايلزا » ، كان هنالك عشرات الوف الملايين من المؤمنين يعملون لصالح العدالة وفي خدمتها . ولذلك فان الانسان سيصبح حرا عما قريب .

طرفة أكثر عنفا من الطرقات الاخرى على الباب الخشبي السميك هزت السيدة القصيرة وايقظتها من أحلامها . واستردت روعها فلاحظت بارتياح أن حلقها ووجها كانا جافين . أدارت المفتاح في القفل وابتعدت قليلا لتفسح المجال للمعتدين أن يمروا .

« قليلا من الهدوء ، أيها السادة ، فأبوابنا غير مصفحة » . كانوا ستة . ولدى مرور أضخمهم جسما أمام المرأة أصلح تسريحة شعره . وكانت رائحة الكحول تفوح من آخر ، ربما كان أكبرهم سنا . لم تكن السيدة « ايلزا » تضرر أية كراهية للكحول اذا كان من نوعية جيدة ، ولكنها كانت تستهجن شرب المسكرات الرديئة والعادية . أبدت استياءها عندما تقدم تحوها هذا الرجل الذي كانت تسمع صوت تنفسه .

« أين هم ؟ »

— من هم ؟ ... »

— لا مجال لكثرة الكلام ، نحن نعرف كل شيء » .

كان للرجل أسنان كبيرة وجديدة تماما ووجهه وسخ .

« أين هم ؟ »

— انهم يعملون .

— انه لأمر مضحك وغريب جدا ! الصغار الطيبون ، يعملون ،

أين يحدث ذلك ؟ .. » .

أزاحت السيدة « ايلزا » البساط بطرف حذاءها وكشفت من الفتحة السرية . كل شيء كان يبدو محكوما وميسرا بقوانين قدر منظم بحكمة ودقة . لم يكن هنالك أي شك بأن « جواكان » قد اعتقل . ولا بد أن هذا البائس قد عذب كثيرا . حيث الضابط بهدوء صورة السيناتور :

« عزيزي المغفل العجوز ! » وقبل أن يندفع ويهبط علو الدرج المؤدي الى القبو ، ألقى نظرة معسولة على السيدة القصيرة . « ألا تخجلين ، بعد كل ما حدث لزوجك ولإبيك ! ؟ وبعد أن ساور السلطات الضعف فتخلت لك عن الفيلا . تسعون عاما من السلوك الحسن لكي ينتهي بك الأمر وكأنك لم تكوني تعلمين أن القوضى قد قضى عليها ! . »

أحنت « السيدة ايلزا » رأسها قليلا الى جهة كتفها وتحركت شفتاها ، كان في ابتسامتها شيء من كل المشاعر والاحساسات : الحنين ، السخرية ، التهكم والشفقة ، كان فيها من كل شيء ، فيما عدا الخجل .

أضاف ضابط الشرطة : « سنتحدث عن ذلك هناك . سوف ترين يا « روندين » الصغيرة الظرفية بأننا سنكون سوية ، أنت وأنا والرفاق » .

أعادت السيدة القصيرة ما قاله الضابط :

— تماما ، أنت ، وأنا والرفاق .

وبينما كان الضابط وأعوانه يهبطون درجات الدرج الذي يؤدي الى القبو ، أرسلت السيدة ايلزا صراخا مكبوتا دوى في أرجاء المنزل كنعب الطيور الكاسرة :

« حذار ، تأهبوا أيها الصغار ! »

وعند انطلاق هذه الإشارة انفجرت ضحكات تنسم بالدهشة والذهول تبعتها مهمة هستيرية دوت بين جدران القبو حيث كانت

ستتمزق أربعة عشر جثة شابة وتسقط مضرجة بدماؤها . وبع الانفجار
الاول انفجار آخر اشد عنفا وروعة زعزع ارض القيلا وقذف البارود
والغبار الى ما فوق سطح المنزل والى اعلى ذرى اشجار اليزفون ،
وحطم زجاج النوافذ ، وحول الاخشاب وبلاط البورسلين الى فتات .
وانفجار آخر اصاب مباشرة وجه السيدة القصيرة فاخذت تتدحرج
كدمية طفل حتى بلغت الرصيف ودفنت بين الركام والانتقاض .

(تموز ، يوليو ١٩٧٧)



الفصل الرابع

البارحة ، كان لا بد أن يكون الوقت ظهرا على وجه التقريب ، عندما
أيقظني ألم حاد في أسفل جمجمتي ، والأمر الغريب لدى شخص معتدى
عليه (كان الألم قد سببته أداة حادة) ، اني كنت واقفة . واقفة أمام
مكتب وضعت عليه يدا امرأة ملأتاني رعبا . كانتا غير مألوفتين لديّ ،
مثلهما في ذلك مثل المكتب نفسه والساعة الصغيرة أو المحبرة . وعبر
فتحة لم أكن أستطيع تحديد موضعها تماما (كان الألم يرغمني على إبقاء
ذقني ملتصقة بصدري) كانت أشعة الشمس تسقط على ذنبك الكفين
اللذين كانت أصابعهما ممددة ومسترخية على شاكلة الرخويات . وعلى
طول الجدار ، كانت نتف من الأوراق تتعرش حول أشياء باهتة اللون .
كان السكون ثقيلًا ، وشريط معدني ينشر زلعمي . وفي وقت الظهر
هذا ، كنت قد سمعته دقة بعد دقة ، ولكنني ، لم أكن أعرف شيئا عن
الكنيسة التي لا يمكن إلا أن تكون قريبة منا ، كما اني لا أعرف شيئا
عن قبة جرسها . حتى ولا أكثر من هذه الغرفة التي أخذ جوّها يصبح
لزجا . كان كتفائي يتصببان عرقا ، وعنقي على حافة الاختناق . وفي
لحظة معينة ، شعرت ببرد شديد يسري في أوصالي ، وبسرعة كبيرة
أخذت لا أشعر بأن لي سوى حرقا في أسفل الجمجمة وجذع امرأة
غرقى .

وحيث اني عزمت على ألا أدع نفسي أدوخ أو اسقط ، فقد
استطعت البقاء واقفة . لم يكن يتصامد أي ضجيج من الخارج . وكل

ما هنالك ، كان من وقت الى آخر ، صغير خفيف على سوية مؤخرة رقبتي . ولم يكن في المنزل أية ضجة أو صوت . وفي أعلى المدفأة ، كان هنالك طفل رضيع في غلاف مخملي ، يمد لي ذراعيه . كان للفرقة شكل قطعة حلوى محفوظة في خزانة ، ورغم الجهود التي بذلتها لا تذكر ، فاني لم اتوصل لاعطاء اسم لا للتلميذة التي كانت ترتدي تنورة راقصة ، ولا للكلب الضخم الذي كان مربوطا الى حجر على قارعة الطريق . كل تلك الكائنات الملقاة مسخرة في أطرها المزينة بأشكال حلزونية كانت تبدو لي في غابة البشاعة. أما العسكري ذو النطاق المشدود الى وسطه والذي كان ينظف نظارته المفردة لكي يثبتها في الحال في تجويف عين فقدت لونها ، ما كان به كي يتبخر على رفوف المكتبة على شاكلة المهرج وأساليبه ؟

ولكون ساقبي كانتا متعبتين وذهني تائه ومشوش ، وليس لدي أية نقطة علام اهتدي بها سوى تلك الأشياء التي لم تكن تشكل شيئا بالنسبة لي ، كدت اتخطى عن الجولة وأدع نفسي أنزلق على طول الجوانب والجدران عندما لمحت شيئا قاطعا سمري في مكاني . اذكر أنني كنت لفترة طويلة متأكدة أن الأمر لم يكن يتعلق بمقذوف عادي ، بل بنظرة صادرة عن صورة قديمة كان يبدو فيها على خلفية سوداء منظر خمس سيدات مسنات مسترخيات على أرائكهن . كانت شرفة البناء مغطاة بما يقين من الحر ، الذي يبدو أنه كان شديدا ، تدل على ذلك سرعة ايقاع المراوح اليدوية التي كن يستعملنها . وفجأة ، ودون سبب ظاهر ، تشبثت اليدين اللتان كانتا على المكتب واللذان سببتا لي الدهول ، بصدارتي ، وعين المهرج العجوز بصقت على وجهي نظارتهما المفردة والكلب الذي كان مربوطا تخلص من سلاسله وأحدث فوضى في كتب المكتبة دون أن يدفع هذا العمل السيدات المسنات الجالسات على الشرفة الى الكف عن تحريك مراوحن . كانت نظرتهم الفريدة والقسامية بنفس الوقت قد فقدت صفتها كقذيفة ، والتصقت بجذمي ، وكأنها إحدى الكرات الدبقة ، وبينما كنت أرفع ذراعي لأحمي نفسي

من تلك الحملقة التي كانت بمثابة الامتصاص ، أصبت بدوار شديد وسقطت على المكتب ، ورأسي في اليدين نفسيهما اللتين كانتا قبل قليل منبسطين تحت اشعة الشمس .

وعند المساء ، شعرت بانزعاج شديد عندما تذكرت أنني سررت بالبقاء هكذا ، منهارة على منضدة ، لا أفكر إلا على شكل اندفاعات : « لقد قتلوني ... ودفنوني ... وإذا رقدت في هذا المدفن فاني لن استيقظ إلا لأشهد تفسخي ... الاطفال يتعفنون في شوارع الضاحية ... إلا إذا لم يقبلوا أن يكبروا . وهكذا فقد دفنت لكي أنسى أن اكبر . العسكريون ، النظارات المفردة ، والفتيات المرتديات ملابس الراقصات ، كل هذا من سقط المتاع . ومع ذلك ، فإن تلك اليدين اللتين كانتا تسنداني قبل قليل ، كانتا حيتين ، وكانتا تخدشاني . » والواقع ، أنني أتذكر جملة أشياء : عقوبات : خروج ، مخ ، غرفة مظلمة . كان هنالك تفاحات صغيرة حامضة في توب مرضعتي الذي يكشف عن عنقها وكثفيها ، وكان لدى أبي خزانة ملأى بالأحذية . ومكنت أتمتم فترة طويلة . كانت بعض الرؤى المثيرة للقلق تتكون في دماغي . كان أحد الفتيان يقطع ضفدعا حيا ، وفرس يعبر مرجا على قائمة واحدة . كان الوقت قد تجاوز آخر الأمسية ، عندما دفعتني حاجة ملحة ومفاجئة للنور ، فنجحت بتحرير رقبتني واستطعت أن التفت وأحوّل رأسي . وفي الحال دخلت الغرفة سماء ملتهبة .

كيف لم أشعر بمثل ذلك الضياء؟ فالشمس كانت هنا، في عيني، بكل اشعتها وما كنت قد اعتبرته عبارة عن شارع ، كان حديقة لشد ما كان يبهرنني ازدهارها ووفرة نباتاتها. وللمرة الأولى أخذت أتنفس بكل حرية. وكل ما كنت أراه كان يشتعل وكنت أعرف أن الموت لا يملك أشياء خضراء، وأن الصور القديمة تعود ملكيتها الى عالم التواييت الحجرية ، وليس الزهور هي التي تعود ملكيتها الى ذلك العالم ، كلا ليس الزهور . كان الماء اندي يتلألأ على اشجار الدلب ، سيتحول الى بلابل حالما تغرب

الشمس . التفت فلاحظت بكل سرور أن المهرج العجوز قد تجمد بشكل مهيب بين الكتب القديمة وأنه قد اختفى كل أثر للكلب الضخم والفتاة التي كانت ترتدي تنورة الراقصة كما اختفى معها الألم الذي كان يحسز زلعمي .

المبنى العتيق ، في اطواره القديم ، هو وحده الذي لم يتغير او يتحرك . كان السقف الذي يغطي الشرفة قد انحنى قليلا الى اليسار وهواء الليل الذي كانت تحركه المراوح اليدوية ما زال يصلني باستمرار على دفعات . وأذكر أن شعورا بالغرف قد انتابني حيال كتامة وعدم احساسية تلك الأشباح التي كانت نظرتها الوحيدة لم تفقد شيئا من شراستها ووحشيتها ، واني أخذت أصرخ : « الى الشيطان ! لتذهب الساحرات الى الشيطان ! النجدة ، الغوث ! » وأن حركة أحد الابواب قد اجابت على ندائي .

كان هنالك من يجتاز عتبة باب المغيلا .

كان شخص ما يصعد على الدرج .

كنت اشعر بثقل جسم كان يصعد ، وبأنفاس جسم ضخم . وفجأة فاحت رائحة ، تعالى صرير من خلف الحاجز ، ثم ساد الصمت من جديد . كان الرجل قد توقف . ولكنه كان سيتابع سيره حتى يصل إليّ ، لقد كنت متأكدة من ذلك . انه لن يعود أدراجه . . . ولكنه أخذ يتراجع ، وها هو يهبط الدرج ثانية . كان لكل صوت وقع في ذهني لدرجة أنني شعرت فجأة كأن هنالك من أمسك بخناقي ، وكأن رأسي محتجز في قفص من زجاج . ومع ذلك كان عنقي رشيقا وذراعي متحركين . أما يداي في طرفي ذراعيّ فقد كانتا من جديد على المنضدة احدهما بجانب الاخرى ، واصابعي مطبقة كما لو كنت على اهبة القيام برقصة بولونية . وتذكرت احدى البولونيات التي كانت فيما مضى تجعل الماء يتدفق من أحد الأحواض ، ولكن رغم خضرتها فان تلك اليدين بدتا لي مغضنتين عند

منبت الباهم واجتاحني شعور بالشيخوخة . وكانت أحذية أبي فارغة فجأة وهي في خزانها ودون أن يتغير وضع أى شيء في الغرفة ، سمعت صوتا خلف الباب ، كان نقرا أو خربشة . أدركت في الحال اني كنت انتظر المعتدي عليّ بتعور من القلق واللهفة ، اي شعور المحبين ، وأنه كانت تكفي أمور بسيطة وقليلة من جانب ذلك الغريب لكي أستعيد ما يشبه الذاكرة . وأن احس في ظهري أنفاس رجل ، ويصبح عند ذلك كل شيء رائقا وواضحا . والساحرات يتشتت شملهن وتصبح نظرتهم غبارا تذروه الرياح .

كنت اتنهد ارتياحا عندما سيطرت على ذهني فكرة مفادها اني ربما لم أكن المحتجزة الوحيدة في الفيلا ، وأن من المحتمل أن تكون مهمة القاتل تقضي بأن يقوم بزيارة كل ضحية من ضحاياه ، تالما كالطبيب الذي يعود مرضاه . وربما لم أكن سوى بائسة أخرى ، من أولئك اللواتي ينساهن الناس في أعماق المستشفيات . انكمتت على نفسي ، وعاد وقع الاقدام يسمع على الدرج كما لو أن القادم أوشك أن يهاجمني . كان الزائر منهمكا في تلمس وتحريك قبضات كل الأبواب ، وكان قبضة باب غرفتي لم تكن سوى مسمار دق في الجدار . فمتى سيقدر الاهتمام بسجينته ؟ سوف يرى تماما اني كنت أنتظره ، وأن وجهي يعبر عن القلق . ولكن هل كنت أملك أصلا وجهاً وحسب ؟ كان السؤال قد بقي معلقا . بحثت عن مرآة . ولكن المرايا لا توجد الا بناء على الوجوه وتعا لها ، وفي هذه الغرفة المزدحمة بكثير من الأشياء لا يوجد أي منها . لا شك أنها قد تحطمت جميعها . وبحركة بطيئة أعدت الى فوق جيبني اليدين اللتين كانتا تخدمان صدري . لم يكن هنالك مجال للقلق : كان وجهي موجوداً هناك ، حاراً وحيّاً تماماً ، وبه فتحتان كبيرتان لآقي العينين . رفعت يدي الى شعري وانتزعت خصلة تفحصتها وراقبتها بكل دهشة في البداية ثم بسرور شديد . كانت صهباء اللون ، (مغراء ، لون بين الأصفر والأحمر) ، كفيلة بنسف مستودع ديناميت . قهقهت ضاحكة . وفي الحال تدفقت الدموع الغزيرة من عيني .

كان هنالك شخص يقف خلفي . كان هذا الشخص يقول :

« تشجعي ! » - وكان الصوت يبدو صادرا من أعماق بحيرة . كنت أشعر به أكثر مما كنت أسمعه . كان هنالك يدان تضمانني - « أعرف ، أعرف ، هذا مخيف » - وتداعبانني وتذكرت في تلك اللحظة ، والله وحده يعلم لماذا ، باقة ورد أمام إحدى النوافذ ، في مكان ما ، ذات مساء كانت الريح فيه عاصفة . « حالما سمعت الخبر ، لم أقم بسوى قفزة . » قماطات مبللة كانت معلقة فوق حوض كان الصبي الصغير يفجر فيه الضفادع . كان علي مهما كلف الامر أن أمسك بذلك الولد الصغير ، ولكنه كان يتلاعب بي ويسخر مني . « لماذا حبست نفسك في البرج ؟ كدت أرحل ثانية » . كانت امرأة تتعثر بين ركام من قطع الحديد القديمة ، وقد سعدت على حاملات بهلوان . « أنا هنا ، أنا هنا . . . » لكم كنت أود أن أمحو تلك الصور وأن أستلقي بين ذراعي الشخص المجهول ، الذي كان صدره ليينا ناعم اللمس ، وأن أكف عن التفكير ، وأن أركض كالمجنونة وراء الجرابات البيضاء ، وأمنعها من أن تقفز في الفراغ . « ايزيكيل ! » واتسعت عيناى . ولكم وددت لو أبقتهما مغمضتين ، وأن أمنعهما ، هما أيضا ، من أن تقفزا في الفراغ . ايزيكيل ! « نعم يا عزيزتي ، كان يمكن أن يمضي ولدك حتى النهاية . لقد كنت تعلمين انه يمكن أن سيبلغ النهاية » . كانت اليدان تعبثان بشعري وتداعبانه برفق . « أبكي ، أنت بحاجة للبكاء » - وانغrust ذؤابة سيف في بطني « لن أتخلى عنك . عندما أتيت منذ خمس سنوات كنت وحدك » ولكن كان لدي دور أقوم به . وقد انتهى الامر ، لن أتركك بعد الآن مطلقا » . كان الصوت يدوي عاليا في الغرفة . « سوف أنتزعك من هذا البيت الذي تدفينين نفسك فيه . ولن يكون هنالك بعد الآن مجال لكي تنقمني علي » . لماذا لم يكف عن الكلام ويصمت ؟ كان صدره مطمئنا يبعث على الهدوء ، ولكنني لم أكن أعرف شيئا عن الألم الذي يواسيني من أجله :

« ان الأبناء ، يا « ديزي » يعاقبوننا على محبتنا لهم . وعاجلا أم آجلا فانهم يرهقوننا حتى الموت . » وايزيكيل « كان من عمل أحد الدخلاء ، وأنت تعلمين ذلك جيدا . » كان نصل السيف يخترق أحشائي وكانت

بدا الرجل وحدهما تمسكان بكتفي وتمنعاني من الانهيار . ملكبتنا
مئات ، يا ديزي ، وخالاتنا ، اللواتي كنت تلقينهن بـ « كلاب الحراسة »
فارقن الحياة بينما كن جالسات على الشرفة . و « أليجو » مات أيضا .
كنت قد اخترت بهذائه الضخم ورائحة الماشية التي تفوح منه ، بدلا
مني . كان عليك أن تنتظريني . كان علي تحقيق الكثير من النجاحات
قبل أن أستطيع أن أحقق لك السعادة . ولكنك لم تكوني واثقة .
تذكرني ، في المستودع ، عام ٤٦ . كانت « كلاب الحراسة » في القداس ،
كان شعرك يبهمني ، كل جسدك كان يبهمني . كنت أكثر رقة من
« فيكتوار » ، أكثر تكتما من « سابينا » . لقد ضمنتك إليّ زهاء ساعة
كاملة ، واحترمتك ولكنك لم تنتظريني . و « أليجو » لم يكن جديرا
باحدى بنات عائلة « هو يرتا » . فهو لم يعرف شئاً طيلة حياته سوى
السير مع حيواناته . « كان الرجل يمسك وجهي ، يضمه بين يديه ،
ويغمري بنظراته ولكن أحاديثه ظلت دون معنى . فقد كنت أجهل كل
شيء من الملكية التي كان يحدثني عنها ، وعن المستودع الذي ضمنى
اليه فيه ساعة كاملة . كان يقول أنني قد اخترت متوحشا تفوح منه
رائحة الماشية . كنت قد رزقت طفلا يقتل الضفادع . كان كلام ذلك
الشخص الذي كان يواسيني يتتابع ، تافها لأمعنى له ، وبقيت واقفة
وراسي يهتز » . وقال : « الحمد لله ، فالتعذيب بواسطة شد القيود
على اليدين والرجلين لم يعد له وجود » . التعذيب بشد القيود . .
التعذيب بشد القيود . ولكنني تعرضت له أنا قبل قليل ، وعلى عنقي
حتى كدت أختنق ، هذا التعذيب بواسطة شد القيود . كانت يداي قد
تدليتا وتوضعتا على المنضدة . لم يكن ذلك المجهول يتكلم الا ليزعجني
ويدوخني ، كلن يقول أي شيء ، ولأنه كان يبعد وجهه عن وجهي لكي
يراقبني جيدا ، فقد عرفته . وعصف بجسمي ألم شديد بينما كانت
أشعة الشمس الأخيرة تدخل الغرفة وتحرق وجهها لم يكن سوى وجه
« ايزيكيل » . وأحاط بذلك الوجه رداء من الدخان وسمعت من بعيد ،
وكانه منبعث من اسطوانة قديمة : « أعلمين أنني ، ذلك اليوم ، على التبن
في المستودع ، كان بإمكانني أن أسحقك . . . » .

ماحدث بعد ذلك يبدو واضحاً جداً في ذاكرتي . أعرف أن زائري
حملني على ذراعيه ونزل عدة درجات ، وأنه دخل الى إحدى الغرف
ووضعني على أريكة . وأنه بقي بجانبني ساكناً لا يبدي أية حركة خلال
فترة زمنية طويلة . كان يردد قوله : « نعم ، ياديزي ، أنا حر » . كانت
تشع من عينيه سهام صغيرة خضراء . كانت يدها ناعمتين ، ولكني لم أكن
أشعر بأية لذة من مداعبته وهددهته لي . كان « إيزيكيل » قد تركني
لأنني لا أشكل جزءاً من حلمه . وفجأة ، نعم فجأة رأيت ما كان صوت
مجهول قد أنبأني به هاتفياً بالأمس : رأيت جسم طفلي يتأرجح وقد
فصل عن رأسه . وملابسه وجثته ملقاة في أرض بور مهملة وعرفت على
صدره الرغب الناعم تحت القميص الداكن اللون ، والصليب الذي كنت
قد أعطيته إياه ، وقلميه المنتعلين حذاء وسخا . ورأيت ابتسامته التي
كانت تبحث عني في جو ضبابي من العدم ، ورأسه الغائب بدا مخيفاً
بشكل مفاجيء ، فأخذت أصرخ : « كلا ! أنه ليس هو ! كلا ! » .

مساء اليوم أصبحت أذكر كل شيء . أنا وحدي . لا أتوقع ولا
أنتظر شيئاً . ليس لدي ما أعمله بحضور ذلك الذي تركني اتخبط في
الأسلاك الشائكة وأنا أحمل طفلاً بين ذراعي ، طفلاً مجنوناً بالعدالة انتزع
قلبي ليعطيه للحوت . كان شعر « إيزيكيل » أمغر ، وعيناه كانتا وقورتين
تتمان عن الحزن . ولن يتعرض للتعذيب بشد الوثاق .

وأنا أمسك بشبحه وأأضمه بين ذراعي .

تموز (يوليو) ١٩٧٧



للطائر الذي يرى

منذ بضعة اشهر ، كان « أنسليم » يعود الى بيته متعكر المزاج جداً . كان يتسلق طوابق القصر الأربعة بأقصى سرعة ، ويحبس نفسه في غرفته ، يفتح الأدراج ويفلقها ، ثم يتسلق المرقاة ويدق مسماراً في السقف ، ينزعه ويلقي به على زجاج النافذة . وبالأمس مزق سجادة صلاة جدته وتقدم نحوي ، أزاح الستائر وأسند على صدري سبابة لم تكن عائدة لا الى يده اليسرى ولا الى يده اليمنى .

وصرخ بي بصوت حاد : « عرءاف ! » . ثم أطبق شفثيه وبصق في وجهي .

وبعد برهة ، أخذ الرجل الذي كان رأسه المكثور كأنه مثبت بلولب على عنق مراهق ، ينتزع ربطة عنقه . وعند الساعة الثامنة خلع بنطاله وفي التاسعة قميصه المزين بالرسوم الغريبة ، وعند الساعة الحادية عشرة فتح زجاجة شمبانيا وأخذ يشتمني .

وعندما دخلت أشعة الشمس الأولى الى الغرفة ، التي كانت بصرامة وشظف أثائها : أرجوحة ، حلقات حديدية ، إحصنة مقطوعة الرؤوس ، تشبه الى حد كبير الغرفة السرية للملك كاثوليكي ، كان « أنسليم » ثملاً تماماً .

كان منكشاً قرب الجدار ، يدحرج زجاجة خمر كبيرة فارغة . كان منظره الجانبي باهتا ، وفتحنا أنفهُ متسعتين ، وقد أخذ يراقبني

بعينين حادتين . قال هامسا بصوت يشبه الصغير " متى ستكتفين عن ترصدي ، أينها الجيفة ؟ » كان وجهه نحيفا . ولم يكن يشارك العائلة بتناول وجبات الطعام الا مرتين في الاسبوع ، ونادرا ما كان يغتسل . كانت مشاغله تستغرق كل وقته . كنت أجهل كل شيء عنها تقريبا ، ولكن كان يبدو لي أمرا بديهيا أن إحدى تلك المشاغل كانت الانهماك في السكر زيادة عن الحد المعقول .

وفي لحظة معينة ، في الوقت الذي لم أكن أتوقع منه ذلك ، انتصب واقفا ، وبعد قيامه ببضعة انتفاضات ، تسمر أمام دائرة الضوء التي كنت موجودا فيها . كان هذا الاطار القديم يشبه أفعى سوداء ملتفة حول بركة ماء . كان يحتويني بكاملي على وجه التقريب ، ولكنني كنت أكرهه لانه ، بعد أن توج بهالة من الزينة عدة أجيال من رؤساء الدول لم يعد له أي عمل سوى اظهار حدود سجنني . وعبر السنين ، فاني لم أستطع أبدا ، رغم جهودني المضنية ، الافلات منه الا لبضعة سنتمترات ، وذلك فقط عندما كان « أنسيلم » يصاب بما يشبه الدوار .

كان صديقي يراقبني ، صباح اليوم ، بعينين زائغتين ، وجفنين محمَّرين عند منبت الأهداب وشفتاه مشققتان مثلما يكون عندما يعود من الريف في فصل الشتاء . وبيد مرتعشة ، بحث عن بنطاله على أرضية الغرفة ، فوجده بين ساعدي فرجار رسام ، ثم لبسه واتجه نحوي ، عند ذلك حدث أمر لا يمكن وصفه : فقد أخذ « أنسيلم » يلامس جبيني مداعبا ويقول : « يا للقدر المسكين ! » ، وكما يخرج الطبيب الذي يستدعى لعيادة مريض ، ميزان الحرارة من محفظته ، أخرج سلاحا ناوليا من جيبه ، ثم وضع فوهته على صدري ، وضغط ضغطة خفيفة واطلق النار .

ارتج وتمرزع الاطار الدائري الذي كان يحيط بي . وتطاير الزجاج الملون شظايا ، واهتزت الستائر ، وقفزت كما يقفز كلب « السمرك » ،

قفزت خارج المرأة لاجد نفسي بكليتي في غرفة « أنسيلم » ، وحها لوجه أمام أشلائه .

لأنه مهما بدا ذلك غريبا ، فان صديقي ، صديقي الوحيد ، كان قد أصيب أصابة قاتلة .

لا شيء كان يدع مجالا لتوقع نهاية كهذه ، لقصة حياتي المشتركة مع ابن الوزير .

وكلما زدت من بذل الجهد كلما أصبحت أقل فهما وإدراكا للأمور : فقد أراد « أنسيلم » أن يقتلني . وقد انطلقت رصاصة من مسدس مصوب الى قلبي ، وهو الذي أراه الآن ملقى عند قدمي مضرّجا بدمائه ، بينما أنا ، المقضي عليه بالموت ، أتأمل ذلك الدم وهو يسبل بسرعة كبيرة بحيث أنه لن يبقى من القاتل بعد قليل سوى غلاف بالٍ ومدموك .

لست ذكيا ، وكثيرا ما كان « أنسيلم » يعيب علي ذلك . وأنا أعاني من فقر دم منذ عهد الطفولة ، ويختلط علي الامر فلا استطع تمييز التواريخ ، وأجهل قيمة الألقاب الفخرية وانما بصعوبة كبيرة كنت أفهم ، هذا فيما اذا كنت أفهم أصلا الآلية السياسية والاقتصادية في البلاد التي هي بلادي . ومع ذلك فان « أنسيلم » كان يكن لي مزيدا من التقدير . فقد كان يمضي ليالي بكاملها وهو يصف لي عمليات الغزو الإسبانية . وكان يكثر من ذكر التفاصيل عن جرائم « الكنيسة » وعن مواخير هولاندة الخفية ، ولكنه لم يكن يعلمني كيف أفكر بصورة سليمة ولا شك أنني بسبب ذلك قد استحالت علي اللحاق به في موته .

تأملوا ، لم يكن يصطحبني أبدا الى « الأدوراسيون » ، وهي ملكية أحد الملوك التي كنت أسمع حفيف أشجارها في الحطم وأرى قطعان ماشيتها تتلون بلون الذهب تحت أشعة الشمس ، عند الغروب . وكان يقول لي حالما تبدر مني أشلة الى فردوسه : « أنك لن تريد ذلك اني الهواء الطلق ارتاح من لسانك القدر » .

وعندما كان يحدث لي ان افاجئه على مائدة احد المطاعم او في سرير احدى النساء ، فلا يكاد يشعر انه قد حوصر وأمسك به حتى يختفي في الحال خلف المنشفة او تحت الشراشف . ولم يكن يدعوني مطلقا الى الجلوس معه في المكاتب التي كان والده يستقبل فيها السفراء . اما متعة النزعات على القارب على مياه البحيرة ، فاته كان على الدوام يحرمني منها . وهكذا كانت الحال ايضا فيما يتعلق بالبحر . فلم اكن اعرف عنصرا سائلا سوى السائل الذي يجري في مفصلة « أنسيلم » ولا نباتا آخر سوى نبات لحيته بعد ازمة تلوم يومين .

والآن وانا أقف حيا بجانب جثمانه الذي فارقت الحياة ، أشعر بأنني قد كبرت أخيرا وأن علي أن أفهم . ذلك لانه انما لي أنا بالضبط كان « أنسيلم » يبدي نمو وانتشار عضو الرجولة لديه ، ومعني انما كان يدرس الحركات المفردة . كنا تكبر متلازمين جنبا الى جنب . ففي اليوم الذي اكتشفني فيه في مرآة المعهد الرياضي ، كنا لا تكاد نجيد المشي . فقد انتزع نفسه من بين ذراعي أمه وأسرع فالتصق بي . وبعد صمت عجيب اتسم بالدهشة ، بدت القسوة في عينيه وصوب لي ضربة بقبضة يده على رأسي ، وصرخ وهو يتراجع الى أن التصق بالجدار : « ما أقبحك ! » ثم انفجر بالبكاء .

أذكر بسرور شديد بدايات وجودنا على قيد الحياة . وقد ألف « أنسيلم » بشاعتي وقبح شكلي . كان يجلب لي بعض الحصى ، يخرجها من جيبه ويلحسها . وفيما بعد ، ركب دراجته ليأتي الى كوشي ، وبعد ذلك أيضا أحضر لي صورا فاضحة سرقها من حقائب أخوته . وكان يقول لي وهو يضحك : « انك تبدو كالبهلوان . لماذا لا تقفز ؟ ... هيا تعال ، أقفز ... » كنت أشعر بالسعادة لرؤيتي إياه ينعم بالحياة ، وكان هو ، يحب سعادتي ويسر بها .

ولكن « أنسيلم » ، منذ عدة أشهر ، قد تغير ولم يعد ذلك الرجل نفسه . وأخذت صداقتنا الحميمية تتدهور وتسوء يوما بعد يوم .

وانتهى الأمر بالشريك والرفيق القديم إن أصبح عدوا ، وصباح اليوم ،
عند الفجر ، بفضل حادث كان خفيا وغامضا بقدر ما كان مؤسفا ، هو
الذي لم يعد يعتبرني سوى جذع مذكر محصور في اطاره الخشبي
القديم ، يصلح ، على أكثر تقدير ، لتمنيقه نطقا والقاءه في الوحل ، ها هو
قد سقط عند قدمي .

يا لانسيلم المسكين ! ... لقد كنت قد احضرت لي في الصيف
الماضي امرأة فاجرة . كانت شديدة البياض ، وكان الحر شديدا جدا .
وكنت تسحقها على قضبان سريرك الحديدية . ولكم كنت أود الاستمرار
بمشاركتك ملذاتك . كنت تحدثني عن امرأة سنغالية وكذلك عن عملاقة .

كان الجو نديا ، بل باردا بالنسبة لصبيحة أحد أيام شهر نيسان
(ابريل) . وأنا أعرف ذلك النسيم المخادع الذي يدفع بك الى تحت
اغطيتك . ولن أستطيع البقاء مزيدا من الوقت بجانبك ، يا أنسيلم ،
ولو كنت حيا لقلت لي بأن أعمل وأتصرف بسرعة . أنا لا أريد أن أغلق
النافذة . فانا بحاجة لضجيج الشارع . وعندما فارقت خليلتك الحياة
خليلتك « ميلبا » المخيفة ، لم يبدر منك ما يدل على الانهيار . فقد تعلقت
بالحلقات واخذت تتأرجح خلال فترة تزيد على الساعة . كنت تحب
تلك الاجنبية التي تفوح منها رائحة المرأة السمراء والتي كانت يداها
تبدوان دائما كأنهما على وشك الانفصال . والهرب . وكنت تقول أن
المآسي يجب أن يعيشها الناس وقد أحنوا رؤوسهم . وأنا لم أشاهد
أبدا مشهدا مسرحيا ولكني أعرف أنك كنت محقا في ذلك وعلى صواب .

كان أهلك يستنكرون ذلك الولع المضطرب . ربما انهم قد قتلوا
« ميلبا » كي تستطيع أنت التصرف بموتك . لا تخش شيئا ، سوف
أكون جديرا بالحالة الجديدة التي عينتها لي . ومنذ برهة ، تسلمت
الى أوردي نفحة عصبية . وحميت عضلاتي . وبتوفر قليل من الحظ ،
لن يبقى بعد قليل أي اثر لاشلائك . ولم يعد يؤؤا عينيك سوى
دائرتين صغيرتين دون ذاكرة ، وانفك ، كرة من لب الخبز . وخط

الحظ في راحتك يغطي على خط القلب ، وجبل « فينوس » مجموعة من التجاعيد وأصابعك كلاليب . والمحبس الذي كنت تضعه في إحدى أصابع يدك اليسرى يناسبني تماما . أما المحبس الذي كنت أضعه في إحدى أصابع يدي اليمنى فقد اختفى . وأما المسدس ، فهو على المنضدة بجانب السرير . وأنا الذي وضعته في هذا المكان . ومع قليل من الحظ ، سأصبح رجلا عما قريب ، سأجمع بقايا صديقي وأبعثرها . وغدا ، عند الساعة الثامنة ، ستحقق الكونتيس ظهورها الصباحي . هي تدعى « غلوريا » وسوف تأتي لتقتطف قلة ابنها . وعندما تكون قد غادرت المكان ، سأرتدي القميص الموشى بالرسوم ، وسأسوي على وركي بنطال أنسيلم وأمشي على الأطار الذي حبسني طيلة حياة بكاملها . سأمسك بذلك الأطار الدائري المتكلف والزنيق ، بكلتا يدي ، أشد عليه وأتجاذبه إلى أن يتحطم ويكف عن تقليد تبجان الأموات الجنائزية . بعد ذلك ، سأعلق ، بل سأشوق نفسي في حلقات الجهاز الرياضي وعند ذلك يدخل أخيرا هواء المدينة إلى غرفتي . والشوارع ، جميع الشوارع ، الأكثر أبهة وفخامة والأكثر ضجيجا وصخباً سوف تصبح لي ، وكل النساء ، بمؤخراتهن التي تشبه مؤخرات الكلبات . النهر ، الحصى ، ومكاتب والدك ستصبح ملكي . سوف أصبح أجمل منك يا أنسيلم وأكثر ضخامة من أي ملك . سأظهر على الشرفة وفي الوقت الذي سيمصق فيه لي الشعب ، سيكون هنالك دائما وراء ذلك الطلاء الحائل الذي كان قديما على المرأة حيث بتسباي ، ابن عاهرة يتحمل انتصاري ويقضي نجه بدلا مني عندما أشعر بالرغبة بذلك .

الآن ، الآن إذا التفت ولم يكن هنالك أحد في المرأة . لم يكن فيها أحد سواي ...

آب (أغسطس) ١٩٧٧



لعبة الحفون

انه الامر مخيف ان نقضي نحينا

دون ان نكون قد فتحنا جميع النوافذ .

كانت ساعة التعذيب قد دقت .

وحالما اجتزت عتبة « الشيري » ذلك المساء ، فهمت ماذا سيكون مصري . كان رفاقي خلال زمن طويل قد احترموا تصرفات « جوان » الغريبة والشاذة ، ولكن الضحايا بدأت تصبح نادرة ولم يكن هنالك اي مبرر لاعفائي والمحافظة عليّ . وبينما كنت اجلس قرب طرف المائدة بجانب المدفأة (كان الجميع يعرفون كم كنت اتحسس من تيارات الهواء ، ولذلك كانوا يحتفظون لي بهذا المكان المختار) ، اقترح « زكرياس » وهو يحدق بي بنظرانه الندية :

« ماذا لو عرّضنا « جوان » للاختبار ؟ »

رد « نستور » :

– لماذا لا ننتظر وصول « ترومبيتا » . مساء البارحة ، كان هو الضحية . وله كل الحق بان يلهو ويتسلّى قليلا .

– ربما لم يستطع الخروج من المنزل .

— من اي منزل ؟

— كيف من اي منزل ؟

ارتفعت قهقهة ضحك قوية حول المائدة . كانت تسليتي مع ذلك مشهورة بين أولئك الذين كنت أمضي الليل معهم منذ سبعة أشهر في حانة صغيرة تقع في إحدى ضواحي « بوينوس آيريس » ، وتتصف بالتكلف والطموح بقدر ما كانت تتصف بسوء من يرتادها وبقلة عددهم . ووضع « ماشوكو » يده على ذراع « زكرياس » :

لا تشغل بالك ، بشأن « ترومبيتا » يا معلم ! صدقني ، ان « جوان » هو الذي يجب أن يدفع .

كان « زكرياس » لا يزال يحلق بي بعينه البراقتين بينما كان الباب الذي يطل على الشارع يفتح ، ويندفع إلى حانة « الشيري » جماعة من زبائنه المجهولين وأخذوا يحيون زعيمنا بكثير من الاحترام . كان للرجل الضخم الذي كنا نطيعه نظرات ناعمة كالحرير وأصابع قصيرة جدا . كانت خصلة من الشعر الأجعد تتدلى على جبينه . كانت عينا كل من « ماشوكو » ، « نيستور » و « بيران » مثقلتين بكثير من الإنزعاج . وبدأت قطرات العرق تشوش لي الرؤية وتسيل فتدخل إلى فمي .

« دعني وشأني ، يا زكرياس » .

كنت مضطربا وأخذت أتحرك على مقعدي ، محاولا التخلص من سيطرة المعلم . لم يكن واردا بالنسبة لي أن أغادر المكان . جميع الرفاق كانوا قد تعرضوا لتجربة الاختبار ، وأنا وان كنت ريفيا ، فقد كان رواد حانة « الشيري » يعجبونني . شخصا جديا قام ببعض الدراسات . ولم يكن قد بقي عليّ سوى قبول قوانين اتفاقهم القوي والمتين رغم كونه مضمهر وضمني .

وخلف ظهري ، أخذ الباب يفتح ويغلق وامتلات الغرفة بتيارات
الهواء . وبعد برهة ، خضعت واستندت كيفما اتفق على الجدار ، بعد
أن ضمت يدي تحت المنضدة .

« هذا حسن ، هيا ، لقد استسلمت » .

— برافو ! حسنا ، أنت تعرف اللعبة . أنت كنت في مفارقة وقد
خرجت منها .

— لقد تم ذلك .

— « أوكي ، والآن بدأت تمشي » .

أغلقت عيني .

« طيب جدا ، طيب جدا ، ها أنت حر . لقد بهرك النور ، ولكن
لا تعر انتباها لذلك ، أنت موجود في غابة . صفها لنا . كيف هي هذه
الغابة ؟ مظلمة ؟ نيرة ؟ كثيفة ؟ ... — لا هذا ولا ذاك . — هل تسمع
الطيور ؟ وهل تراها ؟ — كلا . — هل يصل نور الشمس الى هناك ؟ —
كلا . — أتشعر بالعطش ؟ — نعم . — هل تجد ماء في مكان ما ، أين ؟
— في مستنقع صغير . — ماذا تعمل به ؟ اغتطس رأسي في داخله ، انه
موجل . — لا تهتم بذلك ، استمر بالمشي وستجد كاسا . كاسا ! ...
ولماذا الكأس ؟ »

اعتدلت في جلستي . وقلت محتجا : « هذا كذب ! دعني وشأني
يا زكرياس فلا أحد يجد كؤوسا ولا كهوفا ولا منازل مثالية . وكل
ما هنالك انك أنت قد اخترقت هذه السخافات الصبائية . كنت
متعبا ، وهذا كل ما هنالك . بسطت ذراعي ووضعت هي القدح في
يدي . — من تكون ؟ هي ؟ — امرأة — صف الكأس . — صف

الكأس . - انه قدح وليس كأسا ! وكان « موكي » يصب فيه من وفت
لاخر ملعقة من شراب ال « سنجريا » . - ما هذا يا « موكي » ؟ »

وتقلصت عضلات وجهي .

« هذا شيء قذر . ورواد ال « كمبانادا » يمتدحون فضائله المنزلية،
ثم ، عندما يصبحون متخمين بالطعام ، يكيلون لها الضربات ، ويبصقون
في وجهها ، ولكنهم لا يقضون عليها . « موكي » نافع ومفيد : « موكي »
يهتم بالطبخ والمطبخ ، وبكافة الاعمال المنزلية ، ويعتني بالخيال .
وبالاضافة لذلك ، وبدون هذا الأمر الكريه ، من كان اذن يمكن أن
يشدب يا سمينات « فرنسيسكا » ؟ »

كان الجميع حول المائدة ، ينظرون اليّ بدهشة كبيرة كما لو كنت
حلويا يخرج الأرناب من القبة . كانت النظرات تتسم بقدر كبير من
الدهشة والقسوة . ولكن لم يكن هنالك ما يدعو للخوف . ولم يكن
قضائي النصفين سوى حفنة من المتشردين الذين كانوا يساعدونني
على تمضية الليل في إحدى الحانات .

« ماذا تفعل بالكأس ؟ »

وتكرر من جديد السؤال نفسه . وكنت مع ذلك قد حددت بأن
الأمر يتعلق بقدح او ربما بابريق ، وليس بكأس . كنت افكر بـ
« ترومبيتا » الذي لم يكن قد عاد بعد . وداعبني الزعيم بنظراته .

« ماذا تفعل بالكأس ؟ »

- كيف ، ماذا افعل ؟ اني اضغط عليها وهي تصرخ .

فتحت يدي ، رفعتها وتركتها تقع على المنضدة .

« ماذا تريد أن تعرف أيضا ؟ »

— كل شيء .

كان الهواء في القاعة مشبعاً برائحة التبغ البارد والكحول السيء،
الرخيص الثمن . كان هنالك رجال ونساء يختفون في ظلمة أحد الممرات،
بينما كانت موسيقى الطبول تنبعث من مصدر غير منظور . حاولت أن
أرفع إلى شفتي كأس الخمر الذي كان يقدمه لي « بيران » . كانت
يدي ترتعش . كنت أظن أن ليس لي بين رفاقي في سهرة الأمس حليفاً
واحداً يمكن أن يكنّ الحنان أو الشفقة نحو الغريب الذي يرفض البوح
بسر لم يعد هو مالكة . « البهلوان ومهرج السيرك » العاقل عن العمل ،
لم يكن شريفاً . « ماشوكو » ابن الرئيس « أراووز » ، كان يكسب لقمة
العيش في المرفأ بتنزيل أكياس الحبوب ولم تكن لديه عيوب معروفة .
و « نيسطور » كان قد هرب من المنزل وأخذ يقوم ببعض « الأعمال »
دون أن يصبح بسبب ذلك أساساً ، عديم الشرف في قرارة نفسه .
ولكن لا أحداً منهم كان يمكن أن يشفق عليّ .

تمتعت قائلاً : « القابة هزيلة ، وجندوع الأكاسيا نحيلة ، كأنها
سيقان فتيات صغيرات .

— أين يقع البيت ؟

— في الجانب الآخر من الطريق .

— أعبره .

تحت المنضدة ، كنت أشعر بساق « زكرياس » الضخمة تضغط
على وركي . حتى ولو كانت لدي الجراءة لنقض اتفاقنا ، فاني لن أتوصل
مطلقاً إلى التخلص منه . وتمتعت قائلاً :

« كان حذائي مليئا بالوحل ... والمراعي لم تعد سوى حقلا من
الأشواك .

ـ تابع !

ـ لقد أصاب الدمار عامة الناس . التقطت قطعة من ملاط
الجدران ورميتها . نعم ، لقد رميتها ، انها لم تكن قطعة من ملاط
الجدران .

جمعت جسمي على المقعد ، وأنا أصر أسناني . كان يستحيل
عليّ إيقاف رجفان كتفي .

« أين البيت ؟ » .

كانت اللهجة قاسية لدرجة أنني ابتعدت ، كما لو كنت اتجنب
صفعة . « في الطرف تماما ، بعد شجرات الدلب . وقد أطلقوا عليه
اسم « لاكمبانادا » . والمسنون من سكان المنطقة يؤكدون أن الغابة
مسحورة ، لأن « دون ساترنيو » احترم حياة شجرة يسمونها :
« العصا النشوى » ، زهورها ذات لون وردي صارخ ، ويقولون أن
في بطنها أكثر من أربعة عشر شيطانا .

صمت ، كي أسترده انقباسي وكان يراودني أمل لا جدوى منه أن يدعني
اصدقائي بسلام ، ولكن ويا للأسف كان هؤلاء يشكلون جمهورا
لا يتزعزع . منذ بضعة دقائق انقضت عليّ عاصفة من الذكريات . كانت
بعض الوقائع والأحداث النافهة تبدو مرسومة بوضوح مشير ، ولكن
مهما فعل هؤلاء الرجال ، فانهم لن يعرفوا مطلقا ماذا
حدث في الـ « كمبانادا » بعد ظهر ذات يوم من أيام الصيف . اخذت
أوراق « نيستور » ، « بيران » و « ماشوكو » ، وأنا أكنم في داخلي
ابتسامة خفية . فالمساكين لن يعرفوا أن ثلاثة كلاب كانت قد أعلنت

عن وصولي ، ولا أن « فرنسيسكا » كانت تنتظرني واقفة على الشرفة .
كما أنهم لن يعرفوا أكثر من ذلك أيضا أن سقف البيت كان من التوتياء
المدهونة من جديد باللون الأزرق الحديدي .

« هيا ، يا عزيزي ، يبدو أن ساقيك قد أصيبتا بالتصلب !
هيا ، اندفع في الشارع ولو لمرة واحدة ، على الأقل !

— ولكنني لم أفعل ذلك لأنه لا يوجد فيه أحد .

— هل أنت متأكد من ذلك ؟

— نعم » .

رغم مهمات الاحتجاج التي كانت تدور حول المائدة في حانة
« الشيري » ، كان الشهر هو كانون الثاني (يناير) بالضبط في
ال « كمبانادا » . كان الوقت ظهرا ، و « فرنسيسكا » عندما رأيته ،
حركت عنقها حركة لطيفة . تلك الشخصية ذات الفم الساذج ،
والأنفاس الباردة التي كانت تدعى « دون زكرياس » ، لا يمكن أن تعرف
أبدا أن تلك المرأة ، عندما رأيته ، قالت لي بصوت الجن السحري :
« لقد أحببت رسالتك ، يا « فيلاجرا » . ولن تعرف أبدا بأنها أخذت
تضحك وهي تبسط لي يديها اللتين أمسكت بهما بكتنأ يدي » . ولا أنها
كانت ترتدي ملابس تشبه ملابس فتى شقي ومشاعب وقبعة مدبنة
ملقاة فوق أعلى الرأس ، وحول راسها زوج اساور من البرونز .

اصدقائي ، أولئك الذين عرفتهم قبل المصيبة والشقاء ، كانوا
يؤكدون أن مالكة ال « كمبانادا » لم تكن سوى اختراع مرضي لثلاثة
من العزاب المسنين والعاطلين عن العمل . كانوا يقولون أيضا أن الكتاب
الذي كان قد كرس « فرنسيسكا » : « نصوص نثرية من بونوس ايرس » .
كان من عمل كاتب مغمور من هندوراس توفي في أواخر القرن الماضي ،

وأن شهرة « هونتير » الجميلة لم تكن سوى خدعة قام بها ثلاثة رجال مسنين ذوي أسماء تاريخية ، يتصفون بنهمهم المتعلق بالملذات المشبوهة . ورغم هذه النميمة وما تضمنته من قول سيء فإن اعجابي بالشاعرة ظل سليماً لا تشوبه شائبة . كنت أحفظ شعارها غيباً والقيها بنفس التقديس الذي يلقي به الآخرون « نشيد الأنشاد لسليمان بن داؤود ، أو نصا صوفيا للقدّيس » « جان دولاكروا » .

« عندما تكونين قد رأيت الله ، التفتي وسامحي ... كانت راحة يدك تفرق وتتلأشى في البرد ... وتكبر حتى تصل الى يربق غير محدود يتجاوز أي قياس ... أيها الفتى التائه ، عندما ستجئني وتلتقي بي ثانية ، لا تخطيء ، بل لا تنخدع بالجرح ... » .

كل سطر كتبته ابنة النبيل المغرور ، الذي لم يكن ، على ما روته الأساطير ، سوى « دون ساترنيو هونتير » ، كان يتضمن شكوى صوفيه .

« سوف تصطدم بتمثال من الملح ، أيها الأحق المسكين ، هذا ما كان يقوله لي أصدقائي (أصدقاء ما قبل المصيبة والشقاء) . وتلك المزرعة التي تسكنها حبيبتيك « دولسينا » هي صحراء . و « ساترنيو » لا يمكن أن يكون أبداً سوى طاغية مستبد لا يتمتع بأية موهبة . « كما أن أصدقائي في « جالوجاي » أو في الحي الشمالي في « بوينوس آيريس » كانوا أيضاً أقل تطوراً من رفاقي رواد حانة « الشيري » . كان « جوان فيلا جرا » يرفض الاصغاء اليهم . فهو سوف يكتب رسالة الى « فرنسيسكا هونتير » وربما ذهب الى « الكمانادا » دون أن ينتظر الجواب .

« يبدو وكأنه قد نام !

— يا الجوان المسكين !

— في الريف جيمهم هكلدا ، المثقفون ، جماعة من الفاشلين » .

لم تكن أصوات رفاقي تصلني الا عبر طبقات من المياه الموحلة .
وعلى شرفة « الكمانادا » ، بعد ظهر ذلك اليوم من أيام الصيف ، كانت
الشاعرة تشبه زهرة دوار الشمس . كانت عناقيد الياسمين تلتف حول
أعمدة البيت القديم ذي اللون الكبريتي .

« أنا مسروقة لأنك حضرت . فالرحلة شاقة وطويلة من « بوينوس
أيرس الى هنا » .

أخذ وميض أصفر ينير نظرتها . واقترب جسمنها الرشيق من
جسمي لكي نعبز المرج الأخضر ونتحاشى الشجرة المشهورة بكونها نذير
شؤم والتي كانت تشبه إحدى الرخويات الضخمة . ودوى صوت
« زكرياس » :

« هيا ، يا جوانيتو ! افتح الحاجز .

— اني لا استطيع ، فهو مثبت .

— اصرخ ، ناد ، اعمل أي شيء !

— لا يوجد أحد » .

كنت مصرا على عدم الاجابة . وكانت الذكريات تزداد الحاحاً .

« من هنا ، يا فيلا جرا !

كانت الشاعرة تشير لي أن اتبعها ، وكنا ونحن ملتصقين ببعضنا ،
نسير على غير هدى في الغابة بين الأشجار الضخمة . وبآخر ممر تحيط
به أشجار السنديان ، انحنت الشابة لتلتقط قشة عشب وتدسها بين
أسنانها . ثم قالت :

لقد كان المطر غزيراً الشهر الماضي ، وأزهار الخزامى تملأ الحقل ،
وقد زومت هنا بغض أزهار « أكليل الجبل » . ثم وجهت لي خلسة
إبتسامة مشاركة وتأييد وأضافت وهي ترفع رأسها : « عندما لا يكون
هنالك من يراقبني ، أعمل ما يحلو لي . وأعتقد أنني قادرة حتى على
الحصول على أزهار « رعي الحمام » لو شعرت برغبة بذلك » .

بالفرنسيسكا المسكينة ! فالمرء يكاد يعتقد أنها تقوم بدور يمثل فيه
الظرف العامل الرئيسي . فمرونتها ، المرتبطة بخط كتفها المشترك
وبقامتها التي يضمها بنطال من الجلد ، كانت تضي عليها سحراً غامضاً .
وأني لأذكر جميع الروائح التي شممتها بعد ظهر ذلك اليوم ، وطعم الهواء ،
وهدوء البراري . كان الجو ثقيلًا على سطح التوتياء . دست
« فرنسيسكا » ذراعها حول خصري . كان جسمها يلتصق تمامًا بجسمي .
لم أتحرك . أما هي فقالت فجأة :

« لولا الياسمين الذي يعرّش حول نافذتي لما استطعت العيش بعد
الآن ! أنا أعرف أنهم ينتزعونه لي أثناء الليل ، ولكني لا أستطيع عمل
أي شيء حيال ذلك ، فانا لا أعرف ، بل لا أستطيع الدفاع عن نفسي
وحماية أشيائي » .

زبنت شفتيها وتقلصت رقبتها . واجاطت بعينيها تجاعيد كثيرة .
لم يكن هنالك جدوى من محاولة احتواء قلقها ولا من أن أبدل جهداً لا قول
شيئاً آخر سوى إحدى الحماقات ، ولذلك قررت أن أتبعها دون أن
أحاول جعلها تتخلى عن حديثها الانفرادي (مونولوجها) . ولكن أصوات
رفاقي ، رواد حانة « الشيري » كانت تحول بيني وبين الاصغاء إلى
ما كانت تقوله .

« آيه فيلا جرا ! . . ليس الحال على مايرام . هل ابتلعت لسانك؟ » .

انتفضت وتمتعت :

« انها الشجرة ، « العصا النشوى » . لقد نمت كثيرا لدرجة انني لم اعد استطيع رؤية مدخنة البيت » . كلا ، ان هذا الرجل الضخم المتلوي لا يمكنه ان يتوصل لجعلي اتحدث عن « فرنسيسكا » . ولن يعرف مطلقا ، انها عندما وصلت قرب شجرات التوت ، جلست بجانبني ، على جذع احدى الاشجار ووضعت رأسها على ركبتي .

مازلت اذكر ابتسامتها التي يشوبها الخوف ، ويدها المسرعة التي كانت تتلمس قفا بنطالي ، تحيط بكاحلي ، تدب مستلقية على ساقي ثم تضغط على فخذي ، وهي تردد : « شكرا ، شكرا » . ولكن عندما حاولت ان اجذبها الي ، بدرت منها حركة تتم عن التراجع ، حولت رأسها ، واخذت تحرك التراب باصبع عصبية ثم اقتلعت حفنة من النباتات البرية .

صرخت قائلة : « هنالك مزيد من الناس ! وأكثر بكثير مما ينبغي » .
« لم تعد ميناها تشرقان وكانت قبعتها الصغيرة المديبة قد انزلت على كتفها » .

« انهم يحولون بيني وبين السعادة ويمنعوني ان اكون سعيدة ، يا جوان . انهم لا يدعوني وشأني كي ابقى هادئة مطمئنة ، حتى ولا في وقت القيلولة » .

كانت تتكلم كطفلة صغيرة وفجأة أصبح وجهها شديد الاحمرار .
« سأقول لك شيئا . ايه ، انك الرجل الوحيد الذي اشعر بالرغبة نحوه منذ سنوات عديدة . »

كانت مفاجأة كبرى قبضت على قلبي ولجمت لساني .

وتابعت كلامها :

« كم أود لو أستطيع التدحرج معك على الحبشائس وأن أصبح قطعة من تراب . قل لي ، ما هي الجدوى من كل ما هو عطري الرائحة ، ومن كل ما ينبت وينمو ، عندما نضبح أمواتا ؟ »

عند قولها هذه الكلمات، كان في نظرتها شيء من القسوة والوحشية. أمسكت الفتاة من كتفها واكنها تملصت مني ، ونهضت ثم أسرعت بخطى نحو البيت .

كان طريق العودة قصيرا لا تتخلله اية ذكريات .

« هيا ، يا جوان ، هيا ! الامر ليس لعبا ، تكلم ، أريد أن أعرف ! » كان « ماشوكو » . « ابن الرئيس » آراز « يمسبك بعنقي وكان صوته ملحا .

قلت ، « نعم ، اني أعرف ذلك ، أعرف أن ليس لي الحق بأن أنام ، هذا ما وعدت به ، ولكنه الحاجز ، كما ترى . انه يشلني ، هذا الحاجز ، انه مثل تلك الشجرة المشؤومة ، التي نمت كثيرا وحجبت عني الرؤية بحيث لم أجد أرى شيئا . والعشب نبت بغزارة أيضا ، أما تلك القطعة من الملاط التي التقطتها قبل قليل ، فاني أفضل عدم التحدث عنها ، فهي تنزف . »

لم يجبني أحد . وفي ذاكرتي ، كانت « فرنسيسكا » قد أحنت رأسها . وكانت بعض الكلاب تتراخض نحونا وتلحس لها ذراعيها . فقطفت بعض الياسمين الذي كان يلتف على أعمدة الشرفة واجتزنا عتبة قاعة غارقة في الظلام . انتظرت طويلا قبل أن أستطيع تمييز قطع الاثاث ، كال مكتب الكبير ، المكتبة ، الفرش ، البيانو وأريكة الزاوية المفطاة بالغبار . ولفتت ارضية القاعة نظري : كانت من الرخام ، على شكل بلاطات مربعة وكبيرة . أمسكت « فرنسيسكا » بيدي كما لو كنت طفلا كانت ترغب بأن تطلعه على ما لديها من كنوز .

« هل رأيت جسور السقف ؟ لقد كان أبي يحب كثيرا خشب الزان الفاخر بسبب قسوته ، كانت جميع جوانب وجدردان المنزل مدعمة بالخشب القاسي . عندما يسقط الملائط ، سوف نسكن في سجن شفاف . وأضافت دون تأثر أو انفعال : لن أصر طويلا ، ولذلك فاني اظل ساهرة عندما ينامون . سامة القيلولة هي لي ، ليست لسبواي وأن يكن . . . » رف جفناها ولزمت الصمت . ثم نزعتم قبعتها واخذت توزع طاقات الزهور في الغرفة .

أضافت فجأة بلهجة غير متوقعة ودون أن تلتفت : « اعدرني اذا كنت لم اهتم بك ، فانا لا اعمل شيئا لأحد . » لم يكن هنالك جدوى من ابداء الرأي ، فقد كنت متأكدا انها كانت قد فقدت الشعور بوجودي الحسي . كانت « فرنسيسكا » قد اختلقتني ، كنا كانت قد اختلقت الوفا آخرين من هواة المجاملة واللفظ المتكلف المستعدين للسير وراءها في متاهاتها كأنهم صغار البط . ثم ، أية ميزات أو مؤهلات خاصة كانت لدي كي استرعي انتباه « فرنسيسكا هونتير » : انا الذي لم أكن سوى مجرد حائر وضال من الطبقة المتوسطة ، لدي بعض الميول والطموحات الأدبية وغير قادر على التصرف والرد كرجل ؟

كان قد زال كل اثر ينم عن القلق من على وجه مضيفتي . كانت تتجول بسهولة وراحة بين قطع الاثاث المتداعية ، كما لو انها كانت تفعل ذلك في أحد القصور . كان الظلام لا يزال مخيما والصمت السائد كان يتسم بثقل مصطنع . شغرت برغبة قوية بالصراخ عاليا كي احبط سحر ذلك البناء الضخم المدمم بكل غباء بالخشب الصلب والمغطى بسقف من التوتياء المدهونة باللون الأزرق . ولكني كنت اعلم اني لو فعلت ذلك ، لكان من الممكن أن تنار الاضواء جميعها سوية وفي وقت واحد . ولكن كان يجب علي ان اتجنب تلك الكارثة مهما كلف الأمر .

ضرب أحدهم المنضدة بقبضة يده . وكان لا بد لي من أن أفتح عيني .

- قال « زكرياس » ؛ « انس مشيك في نومك وتأتأتك . انس تلك القطعة من الملاط اللعينة ، وعصاك المشؤومة ، وافتح الحاجز .

- اني لا استطيع .

- ولكن ماذا تخشى ، اذا لم يكن هناك أحد ؟

- أسوأ الأمور .

- ماذا فعلوا بك ؟

- لقد نادوني .

- حسن ، من الأولى بك اذن أن تفتح الباب .

- انه مثت . »

كنت أوشك أن أفقد اعصابي ، كطفل قد استولى عليه الرعب أمام لجنة من الأساتذة تقوم بفحصه . كان يجب على أولئك الرجال أن يلزموا الصمت ويسمحوا لي باستعادة ذكرى تفاصيل الأمسية الوحيدة في حياتي التي كنت فيها محبوبا . فمنذ عدة شهور كنت أبذل جهودا كبيرة كي أثبت في ذاكرتي كل حركة ، وكل تلمحة بدت من « فرنسيسكا هنتير » ، وكنت مصمما على الدفاع عن نفسي وعلى عدم السماح لهم بأن يقطعوا ، بأحاديثهم ، اللحظة التي ظهرت فيها في القاعة ونظفت أصابعها في أناء من البورسلين . كان صوت الماء قد بدا لي مهدئا ومريحا للأعصاب يمتاز بالبرودة وبعذوبة لذيدة في ذلك الجو البالي . جففت الفتاة يديها ملوحة بهما فوق رأسها . ثم جلست على وسادة قرب المدفأة . وعبر الضوء الضعيف الذي كان يسود المكان لاحظت أن صدارتها كانت قد انفتحت قليلا وأن نهديها كانا صغيرين وباردين . وتكلمت دون أن تنظر الي ، كما لو كانت تصل سياق حديث كان قد انقطع . لا بد أنها كانت قد خلعت بنطالها وارتدت تنورة لأن ساقها كانتا تالتقان تحت أشعة

الشمس الأخيرة . قالت بهدوء : « أن لكل ثانية من الصمت ثقتها الخاصة ، كل شخص له نفحة أيضا . ليس كذلك : فانت مثلا ، لك رائحة عرض البحر . وأنا لا أعرف البحر ، ولم يسبق لي مطلقا أن رأيت أية زوارق أبواخر . ولا شيء سوى العشب والأرض والتراب في كل مكان ، ولكنني أعرف . »

كان ساقاها غضتين ، طويلتين ، ناعمتين كالحرير . وببطء ، ببطء شديد ، ادنت وجهها من وجهي ، وبدأ لي فجأة ، وقد جلست القرفصاء ، أن جسمها هش جدا . أمسكت براسها وقبلت جبينها وصديغها ثم أخذت أذاعب شريط صدرتها والهوبه . وفي الحال اكتشفت أصابعي كتفين نحيلتين بعض الشيء ، وعنق جميل بشرته ملمسها ناعم وبارد . وكان نهذاها منطلقين وثابتين . كانت يداها تفكان ربطة عنقي بينما كنت أفك نطاقتي وأرفع قميصي . كانت أرضية الغرفة باردة . أخذت أنتظر ، ومعضلاتي مشدودة ، وفي جاف . انتظرت إلى أن اقترب بطن المرأة من بطني والتصق ببشرتي . حينئذ تدرجنا أنا وفرنسيسكا هنتير على البلاط ، وقد غمرتنا وبهرتنا السعادة . وكذلك اللعاب ، والعطش . . .

ومنها انما بدر رد الفعل الأول . وقد شعرت بذلك بواسطة صوت معبدي طرق إذني . وأجد يتصاعد من داخل القاعة ضجيج بعضه بشري والبعض الآخر حيواني . كان دون شك صادرا من بين الفرش والوسادات المقدسة على الأريكة . وتعالى صوت أمر : « هيا ، انهض يا موكي ! »

كان ذلك الصوت الأمر هو صوت فرنسيسكا . كانت رؤية كتلة مشوهة الشكل تتمدد وتمطى على بعد خطوتين منا تدعو إلى القرفصاء . وضممتني ابنة « دون سانترييتو » بين ذراعيها كما لو أنها بذلك تودعني . ثم أدارت لي ظهرها وأمرت ذلك الذي كان يتحرك في إحدى الزوايا ،

« ههات ، احضر يا موكي ، أجب بسرعة . »

يجب علي ان اعترف ان كل ما حدث اعتبارا من تلك اللحظة كان على صعيد المكر والخبث ، حيث يتمازج الحلم واليقظة بقسوة حريّة بتحويل اشد الرجال صلابة الى انسان مسلوب الارادة يمشي وهو نائم طيلة ما بقي في عمره من ليالي . خلال بضعة توان ، صرحتني السعادة ارضا . كان جسمي ملقى على أرضيّة من الرخام ، خائر القوى .

« صبّني له الشراب . »

لم تعد المرأة التي داعبتني سوى صوتا . وقد عاد القبطان الى مركزه في اعلى الباخرة . وكانت « موكي » قد خرجت من بين الوسائد واختفت خلف الستائر ، تم عادت وهي تحمل اناء فضا . تقدمت نحوي وقدمت لي قدحا . ودون أن تطلب رأيي أخذت تسكب سائلا قرمزي اللون الى أن طفق القلح وانسكب الخمر على قميصي وعلى بزّتي الكتانية . قمت بحركة لاوقف تدفق السائل الذي كان يفرق ملابسني ، ولكن ذروعا قوية ثبتت الاناء في مكانه وانسكب محتواه على الارض وسال تحت قوائم الأرائك .

كانت « موكي » تنظر إليّ رابطة الجأش ، هادئة . كانت عيناها تبدوان كأنهما ثقبان في قناع من المطاط . وقرأت فيهما لامبالاة فظة لا تخلو من الاحتقار . أما « فرنسيسكا » ، فكانت تعود نحوي تحت منظر جديد ، يلفتها فستان طويل من البروكار ، وعندما رايتها، تبادرت الى ذهني صورة القديسة « ايزور » المعلقة فوق سرير أمي ، في « جوالوجاي » . لم يكن هنالك أي شيء ، فاللعبة كانت قد انتهت ، ولكنني كنت اجهل اية لعبة هي المقصودة ولاي نوع من السحر كنت مستسلما .

ماذا سنفعل به ، يا زكرياس ، هل نتركه أم ننبهه ضربا ولكما ؟

— أنت ترين جيدا أنه قد تعاطى مخدرا . كل هؤلاء الريفيين هم هكلنا . انهم يعضفون اوراق الكوكا (التي تحتوي مادة الكوكايين) كما لو كانت علكة اميركية .

— انك تقولين سخافات ، ف « جويانيتو » ليس من « الشمال » .

— الامر سيان . ثم هو يمضي عطشته واجازاته في « بونتا ديل است » . وأبناء الاغنياء يتعاطون المخدرات . «

لم تعد احاديث رفاقي تزعجني . فانا اكاد لا أسمعها . فهي لم تكن سوى وشوشة طيور ليلية ، وكانت ذكريات الـ « كمبانادا » تعود إليّ الواحدة بعد الأخرى بدقة شديدة .

كانت الساعة قد قاربت التاسعة عندما تعالى النباح لأول مرة وانفجرت الأصوات الأولى . وفتحت الأبواب ، وأثيرت الاضواء ، وشق ثلاثة رجال يرتدون الملابس الانيقة طريقهم بين قطع الاثاث . كان اصفرهم سنا في الستين من العمر ، ويدعى « الفريدو » . كان يتكلم من رؤوس شفثيه ، بلهجة خفيفة ، رافعا رأسه ، وقد وضع دون اهتمام باهميته في جيبي صدريته . كان ما بقي من شعره ملصقا بعناية على أعلى رأسه وكان واضحا أن خديه قد تمّ تدليكهما قبل قليل من قبل أحد الخبراء . تراجعت الى الزاوية الأكثر ظلمة في الغرفة ، بعد أن شعرت فجأة ببياض ملابسي الدامي . أما الزائر الثاني ويدعى « بيدريتيو » ، فقد أخرج من جيبه علبة سجائر ذهبية وقدمها مفتوحة، الى الأنسة « همنتير » .

« عزيزتي » فرند ، « ان جو » بوينوس ايرس لا يطاق بشكل خاص ههنا الصيف . فالحرب في كل مكان ، كأنها جرثومة الوباء . فالتناس يشعرون بالملل ويقتل بعضهم البعض الآخر . ولا تدرकिन سعادتك .

الهواء ، الصمت ... » ضم اليه الفتاة طويلا ، علانية ، ثم انحنى نحو « موكي » وداعب شعرها ، كما لو كان يفعل ذلك ، على وجه التقريب ، لأحد الكلاب الأليفة .

« أهنتك . ان صديقتنا « فرنسيسكا » تزداد جمالا يوما بعد يوم . في هذا الفستان ، وهو من صنع « بولديني » .

أما الثالث فكان يدعى « مارسيلو » . كان برونزي اللون بشكل جذاب ، دقيق الشاربين أكثر من المعتاد . أمسك معصم « فرنسيسكا » ومر بشفتيه المفتوحتين على ساعدها .

ثلاثة رجال مسنين ، شاعرين بأهميتهم ، أخذوا يزرعون الغرفة جيئة وذهابا ، وهم يعلقون على أخبار ذلك اليوم : الكارثة العامة ، فظاظة وتفاهة الشباب ، أسعار المحروقات الفاحشة ، عدم امكانية تجنب اجتياح « النادي » من قبل الرعاع . كانوا قد خرجوا لتوهم من مكتب الوزير ، فهم يعرفون خفايا الامور الاشد سرية ، مطلعون على آخر الفضائح ، وعلى آخر حادثة انتحار وآخر عملية اختطاف . فلم يكن هنالك أي شك ، الكون ، بالنسبة لهم كان يبدأ وينتهي ضمن دائرة رسمها أجدادهم وأن أي شكل من أشكال السقوط أو الانحطاط سياسيا كان أم ماليا ، لا يمكنه تلميره أو حتى الاخلال بنظامه . كانت « موكي » قد تخلت عن النبذ وأخذت تقدم الويسكي « السكوتش » بأقداح من الكريستال .

سألها « بيدريتي » : هل حضرت لنا طعاما طيبا للعشاء ؟ أما الشخص ذو القناع المطاطي فقد هز كتفيه وخرج من الغرفة وأغلق الباب بقوة .

صرخ « مارسيلو » ، بينما كان « ألفريدو » و « بيدريديو » يلامسان ويداعبان كتفي « فرنسيسكا » : « يا له من طبع قدر ، طبع سجانك ! »

« كيف حال شيطاننا الصغير ، اليوم ؟ هل نظم بعض الاشعار ،
هذا الاسبوع لاصدقائه القدامى في العاصمة ؟ »

كان الشيطان الصغير يشبه وشاحا كبيرا تلعب به ثلاثة دمي قديمة
مطوية بالمراهم والاصباغ ، وهي تفعل ذلك اما سوية اما احداهن بعد
ال اخرى ، وهن يضحكن . وفجأة ، ، أخرج « مرسيلو » شيئا من
حقيبة للسفر . وهمس قائلا : « لقد عثرت عليه في مكتب العم «ديفو»
انه أثر* يعود الى ما قبل القرن السادس عشر ، وهو عبارة عن اسطوانة
للمغنية « ايفيت جيلبير » . سرت ارتعاشة سرور في المجموعة الصغيرة
وتوقف الرجال الثلاثة جامدين باحترام حول الحاكي « الفونوغراف »
للاصفاء اللالحن الحادة والمرتعشة للأغنية الشهيرة : « ارجع إلي » ، الا
تريد ذلكا ، ان غيابك قد حطم ح . . . يا . . . تي . . . كان الصمت
العميق يحيط بنا ، وفرنسيسكا « ، فرنسيسكا الجميلة ، التي كنت
قد تدرجت واياها على الارض قبل لحظات ، كانت ترضخ لارادة
ورغبات ضيوفها الثلاثة حتى انها لم تعد ، بين ايديهم ، سوى دمية
مشوّهة . كان الدخان يشوش عليّ الرؤية ، وكانت نبلغ مسامعي نتف
من بعض الجمل ، ضحكات وتعليقات سياسية ، بل وأدبية ايضا .
كانت أسماء « بول بورجي » ، « مارسيل بريفوست » ، و « أناتول
فرانس » تلفظ بتلذذ . وأسماء « ماردروس » و « بيير لويس » كانت
عندما تذكر ترافقها ضحكات خافتة وسليطة . شعرت بالقرف تخالطه
السخرية الذي أحدثه فجأة اسم « بيكاسو » وبعد ذلك بقليل اسم
« جان بول سارتر » . كانت كلمات « عظيم » ، « آلهي ، رباني » ،
و « خرافي » تتردد بكل مناسبة ، ان كان لوصف نوع جديد من الاطارات
او عند ذكر فستان سهرة نسائي على الزي الدارج حديثا . وعندما
يوجهون كلامهم الى « فرنسيسكا » او يتحدثون عن أعمالها ، كان
الهدر والكلام الساذج والسخيف يتراكم الى أن يشكل ركاما ضخما
من الحجج الواهية .

أثناء هذا الوقت ، كان ذلك الدخيل ، الذي كان ينظم شعرا رديشا
اي « جوان فيلا جرا » قد ظل ملتصقا بالكتابة تكاد لا تحميه مؤلفات
« دون ساترنيو » المفضلة ، الوحشية في غالبيتها ، موقعة من قبل
« ادغار الان بو » ، و « يودلير » و « باربي دوريفيلي » . لم يكن أحد
بين زوار « الكامبانادا » يبدو أنه يشعر بوجود شخص غريب في حرمهم
المقدس . كانت الايدي المتلمسة تتابع طريقها على عنق « فرنسيسكا »
وكانت المضحكات الفاضحة والمعيبة تتوالى مصحوبة بأكبر قدر من
الاحتقار للمشاهد المجهول الذي كان يحب « نثر بونوس ايرس »
والذي كان قد قطع مسافة خمسمائة كيلو مترا في احد القطارات الريفية
لكي يعرف من هو مؤلف تلك النصوص النثرية . كان لدى انطباع واضح
جدا بأنه قد تحولت الى أحد أولئك الخدم الذين يستطيعون البقاء
ساكنين لا تبدر منهم أية حركة ، خلف اسيادهم ، طيلة مدة تناولهم
وجبات الطعام . اغتنمت « فرنسيسكا » فرصة الصمت لتعلن فجأة
بصوت واثق : « اريد الذهاب الى شاطئ البحر . »

تبعت هذه الكلمات انتفاضة اعترت ضيوفها وتحولت دهشتهم
الى غضب شديد :

« الى شاطئ البحر ! ولماذا ؟ »

— لكي استحم . »

نظر الضيوف الى بعضهم برعب . فشيطاتهم الصغيرة ابدت
احدى رغباتها .

« ولكن انت لا تفكرين جديا بذلك ، يا صغيرتي . اذ ان امرأة
في مثل وضعك لا يمكنها الظهور في « مار ديل بلاتا » . ثم نحن لا نستطيع
أن نرسلها الى اي مكان . و « موكي » لا يمكن تقديمها لأحد أو تعريفها
على أحد . والناس يصبح بإمكانهم أن يتصوروا ... أخيرا ، انت تدركين
ماذا أعني » .

لم تبال « فرنسيسكا » بذلك ولم يرف لها جفن وأعلنت بصوت قوي لا نبرة فيه :

« اذا لم تجدوا وسيلة لارسالي الى شاطئ البحر ، فتعسا لكم . فهذا البيت نم يعد سوى هيكل على العظم . وهو سينهار قريباً ، وأنتم ماذا ستصبحون وماذا سيحدث لكم بدون « الكمبانادا » ؟ الى أين ستذهبون يوم الأحد ؟ من حانة الى حانة ، ومن سهرة تعزية بأحد الاموات ، الى سهرة اخرى لا تختلف عنها بشيء ؟ » .

قوطع هذا التعداد بضحكات مكتومة .

وقال « الفريديو » بحدة :

ان مزاح شاعرنا ذو طابع كره . ومع ذلك فان الافلام الخليعة والمجلات الهييية لا تصلها ، على ما أعلم » .

استمرت وتعالق فقهات الضحك . كانت تبدو مفتعلة . سقط شيء ثقيل على البلاط الرخامي . كان ذلك إناء الشراب . قفز الرجال الثلاثة واقفين دفعة واحدة . والسائل الأحمر انتهى هذه المرة ، بالانسكاب على فستان الشاعرة .

صرخ « مارسيلو » :

« ما هذه القلادة ؟

— هذا دم » .

كانت « موكي » تقف في مدخل القاعة .

« العشاء جاهز » .

كان وجهها يزداد شبها بقناع صنعه أحد لصوص أو أحد متشردي
الحي الصيني .

« حسن ، حسن . هيا بنا » .

نهضت الشاعرة ، نفضت فستانها ، وعند مرورها بقربي مستني
دون أن تنظر إليّ . أما « موكي » فبقيت خلفنا .

همست لي وهي تتفرس بي بعينيها اللتين تشبهان عيني الخنزير :
« ماذا تفعل هنا ؟ هل أدركت بنفسك ما الذي سببته ؟ كيف سنستطيع
أن نعيش الآن ؟ هيا انصرف ، انصرف بسرعة . فلست سوى حيوانا
قدرا كربه الرائحة » .

كان الجو ثقيلًا والهواء كثيفًا في القاعة حيث كانت لا تزال تتردد
نغمات مغنية « لوتريك » المفضلة ، مضافة إلى ترنّات أعضاء « الجوكي »
الثلاثة ، الشهوانية .

نحولت جانبًا لكي لا أسمع بعد ذلك شتائم « موكي » وخرجت من
الغرفة . وعلى الشرفة ، كان الجو لا يزال حارًا والليل تزيّنه النجوم .

عندما استيقظت ، كانت ثمانية عيون جامدة كالحجارة
تحدق بي .

« حسن ، لقد كان وقتًا طويلًا ! ولكن ها أنت قد خرجت من
غيبوبتك . وأعترف لك بأننا كنا قلقين جدًا عليك . وكنا نتساءل فيما
إذا كنت لم تفارق الحياة .

— لقد قفزت من فوق الحاجز .

— هذا ليس قبل الأوان ، وليس مبكرًا أكثر مما ينبغي ! والآن
ماذا يحدث ؟

— لقد ماتتا .

— من هما ؟

— « فرنسيسكا » و « موكي » . الاثنتان ماتتا سوية في الوقت نفسه . ولم يعرف أحد ابدا من منهما وضعت السم في الحساء المطبوخ بلحم الارنب . وقد تحدثت الصحف عن ذلك . والجميع كانوا يعرفون هوس « فرنسيسكا هونتر » بجمع الأعشاب البرية ولا أحد كان يعرف أن « موكي » شاذة أو أنها وحش مخيف . والأمر البديهي تماما هو أن احدهما قد دسست السم للأخرى . والذي حدث هو أنهم قد وجدوهما ميتتين ، كل منهما في سريرها ، بعد بضعة أيام من زيارتي . أما السادة الثلاثة ...

— أي سادة ؟

— أولئك الذين كانوا يتعاملون معهما ويعيلونهما . أشخاص مسنون من « بونوس ايريس » . لم تكن الفتاة المسكينة تملك قرشا . وكان والدها قد منعها من متابعة الدراسة . ولم تكن تجيد شيئا سوى الكتابة ولكن لم يكن أحد يؤمن بعقريتها . وكان الناس يعتبرونها مخادعة وغشاشة ويتعاملون معها على هذا الاساس . وكانت زوجة الجزار هي التي تحضر لها مجلات الأزياء . ولم تكن تخرج مطلقا من بيتها القديم . كما أنها كانت ضعيفة وهشة . وبحاجة لمن يحميها . وعندما ماتت رفض الثلاثة ، الذين كان كل منهم « زير نساء » العودة الى « الكمبانادا » رغم أنهم استغلوا مفاتها خلال عدة سنوات .

خبأت وجهي بيدي كي أخفي ارتعاش فمي .

قال « ماشوكو » ملحا .

« ولكن ، يا « جوان » ، لقد قلت أنك كنت قد قمت بزيارتها قبل وفاتها . فماذا حدث أثناء تلك الزيارة ؟

— لقد تعرضت للمهانة : فقد بصقت « موكي » في وجهي وهي ...
هي ... لم تبدر منها أية حركة للدفاع عني . كانت تدرك جيدا أنني كنت
عرضة للهزء والسخرية ، وأنني لم أعد سوى دمية ، بل « أمعة » ، ولاحتى
« أمعة » ، ربما أخط من كلب . وفي اليوم التالي تلقيت رسالة .

— ممن ؟

— من « فرنسيسكا » . كانت تقول لي فيها أن حياتها في خطر .

— وماذا فعلت ؟

— لم أذهب اليها . «

وخيم عليّ صمت يشبه صمت القبور .

صرخ « زكرياس » بأعلى صوته :

« لك مني كلّ التهاني !

قال « ماشوكو » محتجا :

— لحظة ، لقد سمعت ما قيل عن قضية « هونتير » . والصحف
كتبت الكثير عنها . وما قاله « جوان » صحيح . فقد كانت الفتاة
المسكينة تعيش تحت المراقبة والحراسة ، أولا من قبل والدها ، ثم من
قبل ثلاثة مسنين ، من ذوي الأفكار الرجعية البالية الذين كانوا أشبه
بالمستحاثات . أما « موكي » المشهورة ، فقد كانت بالحقيقية شيئا معيبا ،
دملا ، كتلة من الرغبات والشهوات حرة بأي شيء . وبرأيي ، فإن
هاتين المراتين قد جرحتا كبرياء « فيلاجرا » وقد أحسن صنعا بعدم
استجابته لنداء امرأة معتوهة . «

بدرت مني ابتسامة عزاء . فهناك من يدافع عني .

« شكرا يا « ماشوكو » ، ولكن بالحقيقة ، أنا نذل . لقد أحبتني تلك المرأة . أحببني طيلة بعد ظهر أحد الأيام . وصدقني أنها لفترة طويلة طيلة بعد ظهر أحد الأيام عندما نحب دائما وإلى الأبد .

— لقد أهملتك ولم تبال بك .

— هذا ليس صحيحا .

— اذا كان ذلك يزعجك ، فلماذا اذن اخترت هذا الكوخ ؟...
فالاختيار حر . وكان بإمكانك أيضا الذهاب الى مكان آخر . الى منزل ذويك مثلا ، أو الى احدى دور البغاء .

— بالنسبة لي ، لا يوجد بيت آخر سوى « الكمبانادا » .

— اذا كان الأمر هكذا اذن أسرع بالسير حتى النهاية . نريد أن نعرف ما الذي حدث في ذلك الضريح . نم عندما يكون أحدهما قد حظي بشرف المحبة من قبل احدى من يتحدثون عنها في الصحف ... »

انتشر تيار من الهواء البارد في الحانة : كان قد دخل أحدهم .
كان مبتلا من رأسه الى أخمص قدميه . لم يكن أحد يعير وجوده أي اهتمام . كانت كل الانتظار موجهة اليّ .

قلت : « ترومبيتا » ، أين كنت ؟

ولكن « زكرياس » أبعد صديقه بحركة من مرفقه ووضع سبابته على صدري .

« لا تهتم ولا تشغل بالك بكل ذلك وحدثنا عن « الحياة الهنيئة » في ملكية آل « هونتير » . فالمرأة التي تجد ثلاثة أشخاص لاعالتها والعناية بها ، ليست امرأة عادية كأي امرأة كانت . »

كانت لهجة الرئيس أكثر خشونة من المعتاد . فانكفات الى الخلف
وبسطة ذراعيّ على غطاء المنضدة .

قلت بكل هدوء : « بما أنك تلجّ على ذلك ، سأقول لك بأن العصا
النشوى كانت اخطبوطا . وأن اغصانها وفروعها قد اجتاحت نصف
الشرفة . وأنه لم يكن هنالك حيوان حيّ في الجوانب المجاورة وأنّ
سقف البيت قد حال لونه تماما .

تباً ، هذا أسوأ ، تابع التقدم !

— ليس الأمر سهلاً ، فقدماي تفوصان . والمطر ينهمر منذ شهور
وعندما تمطر في هذه المنطقة ، تتشكل المستنقعات . أما بخصوص البيت،
فقد حدثتكا عنه : أنه مهجور . فالأبواب مفتوحة أو أنها قد اقتلعت من
أماكنها . والسقف مهدم . ولم يفكر أحد باغلاق الأباجورات لمنع المطر
من تخريب كل شيء في الردهة . عرفت المدفأة ، والبيانو الضخم ، الفرش
والستائر وائاء البرسلين الذي كانت « فرنسيسكا » تغسل فيه
أصابعها . وفي العمق ، الى الداخل ، الأريكة التي اختبأت فيها « موكي »
حينما كنا أنا و صديقتها نمارس الحب . كانت تبدو غريبة الشكل ، تلك
الأريكة . كنت أجد صعوبة في التنفس ، ومع ذلك بذلت بعض الجهد .
لمست اطار المدفأة ، أبحث عن وجه « فرنسيسكا » . أحاول تجسيدها
في فستانها المصنوع من قماش البروكار ولكن كان هنالك شيء لا يمكن
وصفه أخذ يدفعني نحو الداخل . كانت الغرفة المجاورة فارغة .
اجتازتها وأصبحت في ظلام دامس . وبواسطة يد متلمسة عبر الظلام
اكتشفت الدرج والحاجز . صعدت بضعة درجات ، بشعور الاحترام
الذي يكنّه المؤمن الذي يدخل حرم إحدى الكنائس . سمعت وقع
خطوات . التفت ، لم يكن هنالك شيء . تابعت التقدم . أخذ وقع
الخطوات التي كانت تتبعني في الممر يزداد وضوحا . توقفت امام أحد
الأبواب دون أن أعرف أي سبب لتوقفي . كان هنالك شيء يدفعني لأدير
قبضته . شعاع من النور جعل عينيّ ترفان . الفيت نفسي في غرفة

مزيّنة ومزخرفة بشكل غير متوقع . كانت جدرانها مغطاة بقصاصات الصحف وبالصور المخيفة : صورة طفل مصلوب ، صورة امرأة يجلدونها أحد الجنود . وكان هنالك لوحتان : أحدهما من عمل الفنان «جروبير» والأخرى من عمل الفنان « بالتوس » . وكان على إحدى الطاولات كدسة من الدفاتر . وكتب مكدسة على الرفوف : من مؤلفات « ساد » ، « نيتشه » و « كوليت » ، جنباً إلى جنب مع دراسات وأبحاث حول الحياة الجنسية لدى المتوحشين . وكان كتاب « كفاحي » بجانب مؤلفات الفلاسفة الهنود . وبشكل مفاجيء ، يبدو هناك كتاب « حياني » للقديسة « تيريز دافيللا » كما لو كان وجوده يقصد به طرد الأذى والأرواح الشريرة .

« كان يصعب عليّ كثيراً أن أتصور أن « فرنسيسكا » كانت تعيش في جو كهذا . كان يوجد على الجدار المطلي بالكلس صورة لامرأتين تحتضن أحدهما الأخرى ، وقد جذبت هذه الصورة انتباهي : كانت فاضحة ومعيبة . كتبت انفاًسي والقيت بالمصادفة نظرة على باب صغير . قمت بحركة كما لو كنت أريد أن أفتحه ولكن ذراعي ظلت معلقة بالهواء . ذلك الشيء الذي كان يدفع بي في البيت منذ البداية ثبتني فجأة في مكاني . كنت أود النطق بأحد الأسماء ، اسم امرأة ، وكنت مأجراً عن ذلك . وطالما أن « ذلك الشيء » الذي كان يدفعني في البيت لم يسمح بذلك ، فاني أعلم أنني سأظل منكمشاً بين قصاصات الصحف والصور الفاضحة . المرأتان اللتان على الجدار غيرتا وضعهما وأخذتا تنظران إليّ ، بينما كانت بعض الضحكات الماكرة والمكتومة تتردد بين الرفوف . « فرنسيسكا » ، « فرنسيسكا » ... توصلت أخيراً للنطق بالاسم . أخذت إردده ، مددت ذراعي ولكن ألقى بي في الحال على الجدار حيث استندت على صورة ضخمة . التصق خدي على فخذ امرأة تفوح منه رائحة الصمغ . يجب أن أهرب وأنجو بنفسي ، يجب أن أخرج من هذا الوكر ، وأن أستمر بالكفاح والقتال ، وأبداء الرغبة والإرادة ، نعم ، أبداء الرغبة والإرادة .

عضيت على النواجد ، واندفعت نحو الباب الذي ، وبالدهشتي الكبرى،
كان قد استجاب لرغبتني .

— هيا ، امض ، تابع !

— انه لامر غريب ، لقد اقيمت في « تشيلي » ، بل وفي « البيرو »
عند جدتي لامي ، ولكني لم أر مطلقا غرفة كهذه . ولم اكن اتصورها
على هذا الشكل عندما كنت اقرا اشعار « فرنسيسكا » ، ولا عندما كنت
أتأمل الشاعرة وهي تخطر في صالونها . السرير الذي لم يكن سوى
سريرها ، يشبه سرير فتاة صغيرة ميتة ، مغطى بكامله بقماش الساتين
الابيض ، وستائره موشاة بأشرطة سوداء . وعلى الجدران لوحات عائلية
سيدة تضع على عنقها لفحة من « الشنشيلة » . رجل يرتدي « ردنجات »
فتاة مراهقة تعزف على المندولين . لم يكن هنالك اي اثر للأناقة . كان
مؤلف « نصوص نثرية من بوينوس ايريس » و « الطائر البرتغالي »
غائبا ومع ذلك لم يكن هنالك اي شك اني في غرفة نوم « فرنسيسكا
هونتير » . ورغم كون الخزائن مملأ بالملابس الموشاة بالدنتيلا ،
وبالكراسات والكتيبات المجلدة بجلد السنجاب وتلك الصورة للبابا بيوس
الثاني عشر ، فاني كنت اعلم انها هنا ، وليس في اي مكان آخر ، انما
كانت تعمل وتعتكف كي تتخلص من سيطرة « موكي » . لم يكن العطر
الذي يتصاعد الى حلقي هو عطر الياسمين الذي كانت تحبه ، هذا ان
لم يكن عطر الزهور التي توضع على الموتى . السرير الصغير المحلل
بالقماش الابيض كان المرقد الذي لفظت عليه الشاعرة انفاسها الاخيرة
وفي زاوية مظلمة ، كما لو كانت تشعر بالخجل لوجودها هناك ، لمحت
المنضدة التي كانت تعمل عليها .

اقتربت ، ويداى تطمحان كثيرا للبحث والتفتيش . فتحت اول
درج فوقعت يداى على كدسة من المخطوطات . كانت الكتابة فيها بارزة
واضحة . كانت رغبتني بالاطلاع والمعرفة لا حدود لها . توصلت لاشباعها

ببذل المزيد من الجهد ، وفي الحال بدت لي « فرنسيسكا » على حقيقتها ولكنها هذه المرة لم تكن تتحدث الي ، كانت تكتب لي ، بل عني .

« كان لبشرته رائحة الرياح والتفاح ... يكاد المرء يعتقد أن لا حدود له ولا شيطان ... كانت ملابس السفر التي يرتديها مزينة بأزهار البابونج . كانت تلك القيلولة الأخيرة ، أنا كنت أعرف ذلك . لقد أحبني طيلة بعد ظهر أحد الايام . كنت أنتظره وعندما تدحرجنا على أرضية الغرفة جرحني عندما جامعني ، وأعتقني ومنحني حرّيتي بجرحه اياي . لا أهمية عندي لاختفاء أزهار الياسمين أو لكون بعض الرجال المسنين يستخدمونني . بالأمس ناديت « جوان » ولكنه لم يأت فالرجال يخافون من النساء اللواتي يتألن . ولكن لا أهمية لذلك عندي كل شيء هادئ في هذا الجانب من الشمس . لا بد أن « فيلا جرا » لم يكن سوى أحد الاندال ، نذل كان يمكنه أن يفمرني بالفرح . لم تعد عينا « موكي » تخيفانني ، انها تثير القرف في نفسي ، مسكينة «موكي» ، انها لا تعرف نعيما آخر سوى نعيم الثأر والانتقام . وسأساعدها على تدميري .

كانت الصفحات التي كتبتها الشاعرة تتلوى بين أصابعي . لم يكن أحد قد أخذها بعين الاعتبار . ولم يفكر أحد باتخاذها . ولم يكن أصدقاء « فرنسيسكا » يهتمون بما تكتب . ومن هو ، بل ما هو الشاعر ؟ ... مجنون طليق ، يتمتع بالحرية ، وليس غير ، أليس كذلك ؟

وأنا ، الانسان المسكين ، صديق الرفاق الذين يرتادون حانة « الشيري » تمتلكني إحدى الأرواح . أخذت أقرأ وأعيد قراءة الصفحات المخصصة لي الى أن امتلأت عيناى بالدماء .

أصبحت رائحة عطر « الناردين » خائفة في غرفة المتوفاة . حاولت فتح النافذة ، ولكنها كانت مخربة . أما الباب فلم يكن سوى لعبة . وقد فتحته دون أي جهد . أدركت المقبض ، دفعت الباب بقدمي ، بركبتي

ولكنه ظل يقاوم . وجهت له دفعة قوية بكتفي . استعنت بكرسي ، ضربته بها ، وثبت عليه كما يفعل السكران ، انشبت فيه أظفاري ، أخذت أعضه بأسناني ، نطحته بجيبي ، دفعت به بظهري . هدأت الضحكات التي كانت تحيط بي من كل جانب ولم أعد أسمع وقع أقدام خلفي . ولكنهم لم يكونوا يريدون أن أخرج من هذه الغرفة . فقد أمسك بي كالجرذ من قبل أحدهم ، أو بواسطة شيء ما كان يرغمني على الشعور بنشوة الكبرياء والياس مع آخر صيحات « فرنسيسكا هونثير » الماجنة والشهوانية .

يبدو أن عجزني لا علاج له . قبلت أن يقضى علي ، ولكن قبل أن أموت يجب أن أروي ما أعرفه . ويجب أن يعرف الجميع لماذا دس السم لـ « فرنسيسكا » . أكتب بسرعة . أستطيع تذكر كل شيء ولكن الضعف يكاد يتوش لي ذهني . أخذ ظهري يتقوس وينحني ، انتفضت غضبا ، فانا جائع ، أخذت أنفسي تنفسا عميقا وعدت الى الهجوم على الباب وعلى النافذة محاولا فتحهما أو خلعهما . وعلى كل حال فاني لن أترك هنا الى أن أموت ! ولا أحد يبقى محتجزا في بيت فارغ ، دخل اليه دون أن يقف في طريقه أي عائق . أخذ الوقت يمضي . كان لدي شعور بذلك على الأقل . كان الجوع يكوي بطني وفمي . وقد توقفت ساعتني ، ولأن النافذة مغلقة بأحكام ، فلم أكن أستطيع أن أعرف فيما إذا كان الوقت ليلا أم نهارا . « ان الانسان ، بفضل قوة ارادته ، يجب أن يتمكن من التوصل الى السيطرة على الجوع » لا بد اني قد قرأت ذلك في كتاب ما . « فرنسيسكا ، لقد تحاببنا ، نعم ، لقد أحببنا بعضنا على مدى الحياة » . أنا عطشان ، يا فرنسيسكا . . . ورأسي كالكرة ، بل كالطبل ولساني لم يعد سوى قطعة جافة من الجلد . اني أنهار وأسقط في المكان نفسه الذي كنت تكتبين فيه الأسطر الأخيرة من مذكراتك التي كنت تتحدثين فيها عني يا فرنسيسكا .

نهضت واقفا بعد أن قمت بمجهود خارق ، ولكنني كدت أسقط نانية وأبقى على الأرض ، حتى النهاية هذه المرة ، قرب سريرها ، دون

ان أستطيع انهاء قصتي . شعرت بألم حاد يقضم صدري ، وبالشلل يصيب أطرافي . وبمشقة كبيرة في الكتابة . توقفت عن المناادة ، لاني بطبيعة الحال من هو الذي يمكنني مناداته ؟ « جوان ، هل تعلم . . . اني لم أر البحر أبدا طيلة حياتي . وانك أنت تشبه الزورق ، بملابسك البيضاء . » لم أستطع الكف عن الهذيان . ولا اذكر اني قد نمت في أية لحظة من وجودي على قيد الحياة . كلا ، يا فرنسيسكا ، اني لم أنم مطلقا . لقد عبدتك وتركنتك نموتين . ونسيت شكل جسمك . ونهداك يهربان من يدي . أنهما يصغران ، ويتحولان الى قبضتين من الرمل . انك لا تفهميني ، ولا تسمعين ما أقوله . والأصوات التي تخرج من بين شفتي تكاد تخنقني . فأين أنت ؟

توسعت حدقتاي بسبب شدة الظلام . وانفتحت عيناى ولم أعد بعد ذلك أستطيع اغلاقهما . اني أرى بوضوح كل ما يحيط بي ، فيما عدالك . لقد ناديتيني ولقظت النفس الأخيرة . لقد مت^٢ لانك تمتعت بضمي اياك بين ذراعي . ذراعي ، انهما محطمان . ولن أستطيع بعد الآن أن أمدهما أبدا ، يا فرنسيسكا . . . ولا أن أكتب . . . لن أستطيع بعد الآن أن أكتب فرنسيسكا ، بربك قولي لي ، من أنت ؟ وأنا ، من أنا ، وأنت أيها المولى ، هناك في الاعالي ، الذي تسبب لي كل هذه الآلام ، من أنت ؟

في الصحف . . . وقائع واحداث مختلفة

جثة « جوان فيلاجرا » ، طالب من « جوالوجواي » ، في مقاطعة « دانترربوس » ، عمره ٢٢ سنة ، اختفى منذ شهرين ، وجدت صباح هذا اليوم عند الساعة ٥٦ و ٥ د . في حالة تفسخ شديد في عقار تعود ملكيته للمرحوم « ساترنيو هونتير » ، في « الكمبانادا » ، الواقعة في محافظة « بوهوياجو » ، على مسافة خمسمائة كيلومترا من « بوينوس ايرس » . وبفضل الكثير من الجهود المضنية ، أمكن التعرف على هويتها في مكتب الشرطة الاتحادية لتحقيق الشخصية . ورغم الطابع

السري للتحقيق ، فقد علمنا أن المتوفي ، وهو كاتب محترف ، كان منهمكا في كتابة قصة مفصلة سرد فيها الكثير من الاحداث ، عندما فاجأه الموت . وهذه القصة هي التي سمحت بالكشف عن هوية الجثة . أما الحادثة فتكتنفها ظروف غامضة وخفية . « جوان فيلاجرا » الذي كان منكمش الجسم ، مستلقيا على الارض ومتشبثا بقضبان أحد الاسرة ، يبدو أنه قد فارق الحياة على اثر نوبة صرع ، أو نوبة هذيان انتهت بفيبوبة أبدية . كل ذلك ، بناء على المعلومات التي حصلنا عليها ، وقد استمعنا الى شهادة بعض الاشخاص الذين ذكرهم المتوفي في قصته اولئك الذين كانوا يرتادون إحدى الحانات في « أوليفوس » ، والذين ليس هنالك شيء واضح أو محدد في عاداتهم وسلوكهم يوحى بافتراض وجود نوايا عدوانية أو جرمية نحو الكاتب الشاب ، وقد أنكروا معرفتهم للمدعو « جوان فيلاجرا » ، ولكنهم مع ذلك اعترفوا بأنهم كان يحدث لهم أحيانا أن يروا ، منذ بضعة شهور ، شخصا يتصف بالكآبة ، قليل الكلام ، تنطبق اوصافه على المتوفي ، كان يجلس الى مائدة مجاورة لمائدتهم . ويبدو أن أحد هؤلاء ، ويدعى : « جيلبرتو زاكارياس » كان قد حاول مرة أو مرتين أن يجعله يشاركهم في ألعابهم دون أن يحصل من هذا الغريب على شيء آخر سوى غمغمة تتم عن الرفض والسلبية .

آب (أغسطس) ١٩٧٧ .



للأب الرب المؤقية إلى الرمال

- ١ -

في ذلك الصباح المشرق والجاف ، ما كدت أضع قدمي خارج عربة
القطار التي أمضيت الليل فيها ، حتى عرفت أنني وصلت إلى قريتي .
فالأعشاب والحشائش التي تغطيها الرمال والممتدة على مدى البصر
كان منظرها حياً في ذاكرتي .

وعبر الضوء الذي كان ما يزال ضعيفاً ، كنت أستطيع أن أميز
بوضوح كل ما كان يحيط بي : المزرعة التي كان قد جرح فيها « هانس »
في كتفه ، والمحطة الصغيرة المكسوة بلون الصدا التي كانت فتحات
المنطقة يعرض أمامها جمالهن وزينتتهن عند وصول ما كان يسمى « العربة
الفاخرة » القادمة من العاصمة ، وفي الجانب الآخر من الخط الحديدي
شجرة كينا « أوكاليبتوس » ضخمة أسقطتها الصاعقة ، وأصبحت
مع مرور الزمن تكتسي طابع النصب التذكارية التي تقام للشهداء
وللاموات .

« من فضلك ، ما هو موعد القطار الذي يفادر إلى « أوريون » -
بلاج ؟ ... »

كان الرجل الذي كنت أسأله قد ترجل من حصانه وأخذ يسير
نحوي يتبعه كلب ضخم أمغر اللون .

« كيف يكون قطارك الذي تسأل عنه ، وما هو شكله ؟ »

— انه قطار ريفي بطيء . والخط الحديدي لا بد أن يكون في جهة ما قريبة من هذا المكان .

كان محدثي قد تجاوز السبعين من العمر . يغطي عينيه جفنان سميكان ، تعلوهما التجاعيد ، بحيث كانت نظراته غامضة لا يمكن رؤيتها . وقال :

« اني آسف ، فانا لا اعرف أن هنالك قطارا ينطلق الى المكان الذي تذكره .

— لا أهمية لذلك ، سأنتظر .

— ماذا ستنتظر ؟

— قطاري البطيء ، فلا بد أن يصل بين لحظة وأخرى .

— ولكن قطارك هذا الذي تتحدث عنه لا وجود له .

اجتاحت أحشائي لفحة من الرياح الصقيعية .

أضاف الرجل مجيبا على ما أبدت من استياء :

« تعسا لك ، واذا كنت لا تصدقني ، فانك سوف تضطر للاصطدام بالواقع . وبعد ساعة ، سيعود القطار الذي أتى بك الى هنا ، وسيرجعك الى « يوينوس ايريس » . »

كان الرجل قد أخرج من جيبه غليوناً وأخذ يستعد لتعبثته بالتبغ . أدركت أن ساقيه الطويلتين كانتا نحيلتين في بنطاله المصنوع من القماش الأبيض وأن رأسه كان عاريا من الشعر تحت قبعته السمبكة . اقتربت منه وقلت بصوت أجش :

« أني لست ذاهبا إلى « بونوس آيريس » ، أني أريد الذهاب إلى
« أو ديون - بلاج » .

كنت قد أكدت على كلماتي مشددا على لفظ مقاطعها . وكشفت
عن أسنان الرجل المجهول ابتسامة لاتنم عن القبول والتشجيع . ثم لمس
قميصي الوسخ بطرف سبابته :

« انك لم ترقد في سرير منذ زمن طويل يا صغيري ، وهذا امر
واضح . ومن الأفضل لك أن تأخذ قسطا من الراحة بدلا من اضاعة
الوقت بمناقشتي بموضوع خيالي كأنه يتعلق بأشباح لا وجود لها » .

كان يقف بقربي ملتصقا بكتفي ، وقد رفع قبعته عن جبهته كما
لو كان يريد أن يجعلني أعرف تماما انه على تلك الأرض المهمة ، لم يكن
الدخيل هو السيد الذي يرتدي الملابس البيضاء والحذاء الطويل الملّمع
حديثا ، بل ذلك الفتى الطويل الأشعث الذي قام برحلته في قطار لنقل
الماشية ، والذي تجاوزت ذاكرته حدود الانهيار .

تبدّد السرور الذي شعرت به عند نزولي من عربة القطار . ففي
الوقت الذي كدت فيه أبلغ هدفي ، خرج رجل مجهول من الرمال وأبعدني
عنه . مجهول يتكلم ببطء الملائكة الساخر ويبدو أنه عازم على أن يحتل
كل المكان بين السماء وبيني .

كان تعبني قد تحول إلى انهيار . كنت أجد صعوبة في
الوقوف على قدمي . وطيلة اثنين وخمسين يوما على متن سفينة شحن
مقرفة تبعث على الاشمئزاز ، لم أفعل شيئا سوى تصوري ، وأنا ارتجف
وصولي هذا إلى « لاس روزاس » . كنت أعتد على وجود قطاري البطيء
والقديم ، كاعتماد الطفل على وجود شجرة عيد الميلاد ، وفجأة أخذت
أشعر بمزيد من خيبة الأمل . إذ أنه كان هناك أمران لا يطيق تحملهما :
المحطة الصغيرة اللعينة التي يملوها الصدا وبلادة محدثي التي تتسم
باللباقة والكياسة .

وفي البرازيل ، بينما كان رفاقي في الرحلة يلهون بالانهماك في الرقص الهستيري ، كان علي أنا أن أقوم بتنزيل صناديق أرجنتينية من سفينة تحمل اسمًا ألمانيًا لأضعها على متن باخرة شحن إسبانية كانت ستبحر إلى « كاديكس » . كان أحد تلك الصناديق يحمل عبارة كتبت بحروف غليظة : « مانويل دو فاله » ، موسيقي ، أما الصناديق الأخرى فلم تكن تحتوي سوى البرتقال وبعض الجثث من الدرجة الثالثة .

القبطان الثاني الذي كان يقوم بمهمة الطبيب كان قد صرح بأنني حالما أصبح في بلدي ، وأخذ إلى الهدوء ، فإن كل شيء سوف يسوى . « هادئا جدا في بلدي » . فالأطباء يتمتعون بموهبة تناول الأماكن العامة دون أي معنى من معاني الازدراء أو السخرية . كانت الحمى التي أصبت بها قد اشتدت وطأتها ، ودقات قلبي أصبحت مثيرة للغثيان ، ولكنني كنت على وشك الوصول إلى موطني الذي تغطيه الرمال ، « متمتعًا بالطمأنينة والهدوء التام » مع ذكرياتي وبجسمي المنهك . والحقيقة أنني لم يكن لديّ ما أشكو منه .

ومع اقترابي من الأرجنتين ، هذا البلد الذي يشبه اسمه زهرة اللبلاب القضية والذي بدت لي على الدوام جغرافيته وتاريخه أنهما ينتميان إلى عالم الخرافة والخيال ، كانت الحمى التي انتابتنني تزداد شدة ، ثم كانت المسيرة إلى مرفأ « بونيوس إيريس » للبحث عن صديقي القديم « أوليفيه » التي انتهت بتحويلني إلى متسكع .

كان عليّ بأي ثمن أن أخذ إلى الراحة . وربما كان قضاء ساعة من الصمت في هدوء هذه الأرض التي الفتها في صغري ، يعيد إليّ صفاء الدهن .

« فنجان كبير من مغلي الزهور ، وفراش دايفي ومريح ، هذا ماأنت بحاجة إليه » .

انتفضت مدحورا : كان هنالك كلب ميناه مطوستان ودابعتان
بعض اربطة حدائي . وجّه له صاحبه ضربة على راسه .

« يكفي ، يا « جوبيتم !

تمتعت متبرما :

— انك بادي الحفاوة ، « ولكني سأكتفي بسرير من الرمال » .

كان الخيئال قد جلس على الأرض المكسوة بالأعشاب وأخذ بعض
على أنبوب غليونه .

« لقد دخلت السجن ، أليس كذلك ؟ » .

كانت نظراته تلتقي مع نظراتي . وقال : « خذ حذرك ! » .

بدرت مني حركة تراجع . كان الرجل قد بسط ساقيه تحت
أشعة الشمس . ماذا كان في هندامي يدعو إلى التفكير بالسجن ؟..
اكانت هي رائحة الكحول وطابع السخف اللذان الصقهما بي
رفاق رحلتي ؟ . كان الرجل المجهول يرسم بطرف سوطه في الرمل دوائر
كانت تتوالى ويعلو بعضها البعض الآخر لتشكل في النهاية رسما هندسيا
يتصف بدقة مذهلة .

أضاف قائلا دون أن يرفع نظره عن الأرض :

« لا تضع وقتك ، فلا يوجد خط حديدي ولا طريق صالح لسير
العربات ، إلى أوريون » .

كانت اللهجة حاسمة ، وقد أدركت أنه لمن التفكير الطفولي أن
أحاول مخالفة شخص يستطيع رسم متاهات بطرف سوطه وإخفاء
الطرقات والسكك الحديدية. ومع ذلك فقد رفضت الاعتراف بهزيمتي ،

لأنه اذا لم يكن هناك وجود للقطار الذي أتحدث عنه ، فلا بد أن يكون هناك واسطة نقل أخرى للوصول الى الشاطئ . ولم يكن لديّ أي شك بأن الرجل المجهول يعتمد تضليلي . اذ أن « أوريون — بلاج » كانت على الدوام وما زالت مصيغاً أتيقاً وفخماً ومنذ زمن طفولتي لم يكن المصطافون يذهبون اليه سيرا على الأقدام .

أردت اخراج منديل من جيبتي لتجفيف العرق الذي كان يكوي عينيّ ولكنني دون شك كنت قد استعملته لمسح الغبار عن زجاج نافذة عربة القطار ورميته لأنه لم يكن له وجود في جيبتي فقدّم لي الخيّل منديله ، وقال وهو يندس في مجرى أفكاره : « أنا أيضا سمعت بهذا القطار الريفى البطيء ولكن لأحد يتذكره ، على الأقل ، لأحد ممن يتمتعون بكامل قواهم العقلية » .

جلست على العشب الأخضر دون أن أنجح بتحويل نظري عن طرف السوط الذي كان يتابع سير نظرياته على الرمل . واضاف قائلاً : « أن قطارك الذي تتحدث عنه قد قضى نحبه ، وأصبح في عداد الاموات ، هو وكل ما هو مؤذٍ وضار .

سرت رعشة قوية في أوصالي . فهل كان هذا الرجل يحاول أن يوحى لي بأن « مورينا » قد ماتت ، هي والطريق السالك ، والقطار ، وكل ما كان يعتبره « مؤذياً وضاراً » .

كانت عيناه ما تزالان مصوبتين الى الأرض وصوته يبدو كأنه يخرج من خلف حاجز كرسي الاعتراف .

يوجد الكثير من التعساء الذين لا يجرؤون على مجابهة الاحياء ويرتّبكون من ازدحام الاشباح من حولهم . «

نفد صبري ، فأدّرت له ظهري . نادى كلبه الذي كان منذ بعض الوقت ، يحاول الهرب بعيداً عن مدى نظره .

« جوييتير !... جوييتير !... يا للكلب القذر . »

كان الكلب قد اختفى ، وكانت عينا صاحبه تتوهجان غيظا .
نهضت فجأة ، فلم تبدر منه أية حركة وظل محدقا بأشجار الصفصاف
التي اختفى وراءها « جوييتير » .

بعد بضعة دقائق ، حصل لدي انطباع بأنه قد نسيني لا نشغاله
بأمور أخرى . كانت ساقاي خائرتين لا تقويان على حملي ، وظهري قد
بلله العرق . لم أكن قد شعرت مطلقا ، حتى ذلك الحين ، بحدة حرارة
شمس الظهر . قمت بخطوتين لاختبار قواي ، ولكن كان عليّ أن اتخلى
في الحال عن حقيبة سفري التي سقطت من يدي وتدرجت بين شجيرات
العوسج والعليق .

لفحة دافئة تشوبها رائحة البرسيم أصابت مؤخرة رفتي التي
كلفت تنصبب عرقا ، فانتفضت . كان هناك الحصان والخيال يقفان
خلفي .

« انصرفا عني ، أنتما الاثنان . لقد مللت من الحاحكما
ومضايقتكما لي . »

— بعض الهدوء « أرجوك أن تهلا . »

— أنت ترى جيدا اني منهك ، وقد نفذ صبري . هيا انصرف عني
ودعني وشأني !

— ولكني أريد مساعدتك .

— اذا كان الامر كذلك فما عليك سوى أن تلزم الصمت . »

كان قد عرفني . وقد أدركت ذلك من ابتسامة الشفقة التي بدت
على شفثيه . كانت الحياة قد غمرتني بابتسامات من هذا النوع . كان

هنالك ابتسامة الخالة « ماتيلا » عندما تولت العناية بي بعد مصابي وكذلك ابتسامة مدير الدير ، وابتسامة تلك الراقصة ، في « ريودوجنيرو » ، التي رفضت أن ادّعيها : كانت تبسم أيضا هكذا ، كانوا جميعهم يبتسمون بهذا الشكل ...

كانت قبضتاي المتقلصتان والمشدودتان على فخذي جاهزتين للضرب . كان الرجل المجهول يعرف « مورينا » . كانت نظرتة الباردة التي يكتنفها البياض ، تحت جفنيه الكثيفين تزداد بالنسبة لي ، وضوحا واثقة . كان الرجل يتراجع نحو الكثبان الرملية ، ممسكا بمقود حصانه ، ومع ابتعاده كنت أراه يكبر بشكل مفرط على خلفية سماء ذات زرقة شديدة .

« انصرف عني ، دعني وشأني ! ... يا طائر الشؤم ! »

- ٢ -

كنت أشعر بألم شديد ، من جذور شعري حتى أخمص قدمي . كان « سول هيريديا » زعيما فيما يتعلق بالجرأة والشجاعة وإذا كان فقد قامته كعملاق ، فان صوته ، بالمقابل ، ظل هو نفسه وعلى حاله وكذلك الروح التي تبعث فيه الحركة والنشاط . لقد تأخرت بالتعرف عليه ، ففي هذا الرجل ذي المظهر الهزيل ، الى درجة كبيرة كانت ذكرى قامته الطويلة قد ساورت ذهني خلال السنوات التي قضيتها في المنفى ، ولكنني الآن لم يعد يساورني أي شك : لقد تحدثت مع عدوي لفترة استمرت أكثر من ساعة .

لابد أنه كان يترصّد وصولي . ولاشك أنه كان يعلم أنني سمعت باختفاء « مورينا » . وبين لحظة وأخرى ، كنت سافجا بظهور أحد عبيده ليقم المعونات والحواجز في طريقي لمنعي من الوصول الى « أوريون » . كان يعرف أنني عرضة للاحلام المزعجة والكوابيس ، واني

إذا لم أنتبه لذلك ، فانه سيقوم بأي عمل خسيس ، لأن « سول هيريديا » إذا كان فيما مضى قد تخلص من فكرة تصفيتي جسديا ، فانه الآن سيفعل ذلك دون أن يساوره أي شعور بالذنب لأن « مورينا » لن تكون هناك لتموت بسبب فعلته .

لقد عاودتني الحمى ، كنت أشعر بنبضي يدق بقوة في صدغي . كان « سول » يؤمن بالقوة الجذابة والفاتنة لذلك الشاطئ الأرجنتيني ، ولكنه لم يكن معصوما . فاذا كان قد اشترى صحراء واستطاع أن يثبت فيها كشبانا من الرمال المتحركة في حين أنه لم يكن هنالك أحد يفكر بذلك ، فلا يعني أن هذا العمل خارق ، يفوق طاقة البشر . كان قد أغوى « مارينا » لا ليجمع منها الرفيقة الجديرة بمبقريته ، بل لكي تجذب له في شباكها وجهاء العاصمة ولتساعده في تأسيس محل للدعارة يليق بعلية القوم . كنت أعرف أن لا أحد اليوم في المنطقة يستطيع أن يلفظ اسم « مورينا » دون أن تحمر وجنتاه خجلا ، وكل الخطأ في ذلك يعود الى الذي جعلها تصبح عاهرة .

كان رأسي الذي تعرض كثيرا للشمس ، لم يعد سوى كرة يعصف بها الالم . أخرجت رسالة من جيبي ، كان قد أرسلها لي « أوليفيه » : « مورينا » فارقت الحياة منذ ثلاثة أيام ، بامكانك العودة . كن مطمئنا بشأن روحها لأنها تلقت البركات الدينية . لقد أغلقت باب غرفتها بوجه الكاهن « ايسبادا » ولكنه اقتحمه بالقوة ، وجرى دفنها بالمراسم المعتادة . وقد علمت عن طريق رسالة تلقيتها من « كارميلو » ابن أخت المعجوز « هانس » ، الذي كنت أرسله أحيانا ، أنها لم تتألم كثيرا أسرع بالعودة . فلدينا كثير من الأمور يجب أن نتحدث بها . سأكون بانتظارك في بوينوس ايريس « على الرصيف ... »

أمسكت رأسي الملهب بيدي . من المؤكد أن الطفولة لم تكن سوى أحد ابواب الرمل العديدة ، الذي عليّ أن أعبره قبل أن أبلغ هديني .

الم عنيف في مؤخرة رقبتي جعلني أفتح عيني . لم يكن « أوليفيه »
موجودا على الرصيف عند وصولي . فقد بحثت عنه في كل مكان :
من حانة الى أخرى ومن ماخور الى ماخور ، أمضيت ليلة بكاملها متجولا
أبحث عنه . أغلقت عيني . انتصبت واقفا وصرخت : « كلا ، ياسول
هيريديا ! لن يكون من السهل عليك ان تقتلني هذه المرة . » بذلت
مجهودا يائسا كي أستطيع المشي . ضاق نفسي ، وخانتني ركبتي
تشبثت بفصن شجرة لكي لا أنهار .

خرج كلب من بين الشجيرات . كان « جوبيتير » . اقترب مني ،
بهزّ أذنيه ، بادي المودة ، ولكن صوت صافرة استدعاء في الحال ،
فأسرع يعلو بعيدا عني .

صحت بأعلى صوتي :

« أوغاد ! الموت للثنين ، للثنين كليهما . »

كانت الاعشاب والحشائش في « لاس روزاس » كثيفة وقاسية
كالقش الذي يحشى به الفراش في المزارع . دفنت فيها وجهي . كنا
وحيدين ، السماء وأنا ، مثلما كنا على ظهر سفينة الشحن .

أخذت أفكر وأنا منبطح :

« أيها الغفل العجوز ! تستطع دائما التماذي في ذلك والذهاب الى
هناك . وهذا المساء ، شئت أم أبيت ، ساكون بقربها . »

- ٣ -

عندما استيقظت ، كانت المحطة لا تزال في مكانها ، والشمس عالية
في السماء وكان للعشب رائحة زكية رطبة ، وحول قدمي العاريتين ،
كان الرمل الذي حفرته عندما نمت قد أصبح شديد البرودة . اندس

فأر بين ساقبي" ، وعندما رفعت نظري ، لاحظت اني كنت محاطا
بالفضوليين . قفزت واقفا . لم أنم سوى خلال فترة قصيرة ، ولكن
كما لو حدث ذلك بأعجوبة ، كان تعبي قد زال ، وأخذ نبضي يدق
بصورة طبيعية .

اقترب مني عامل شاب يرتدي صدرية صوف سمكة :

« هل السيد غريب ؟ »

— لقد ولدت في أوريون .

سرت بين أولئك الفضوليين متممة تنم عن الدهشة جعلت رؤوسهم
تجتمع حولها . كان هناك امرأة ترتدي صدرية وردية حائلة اللون ،
قد تجاسرت على الاختلاط بالرجال وأخذت تحدجني بنظرات منبهة .
سألتهم وقد ثار غضبي :

« ما الغريب في الأمر ؟ »

اجاب الشاب ذو الصدرية :

— هكذا ، هنالك أماكن لا يولد فيها أحد .

كنت قد حملت حقيبتني على ظهري وقلت :

« دعوني امر . »

— طبعاً ، هذا مؤكد . »

ابتعد الرجال دون اعتراض وبكل هدوء . كانت سروج أحصنتهم
جميلة ، وعيونهم خالية من أية تعابير . سألتني خيال وجهه نحيل
ومتناول :

— الى اين انت ذاهب ؟

— الى « اوريون بلاج » ، وانحنيت لاسوي وضع احزمة حقيبتني التي بدت لي ثقيلة جدا عندما حاولت رفعها من جديد .

— لابد انك تتحلى بالشجاعة وانت تريد السفر وحالتك على ماهي عليه ! «

كنت اظن اني قد استعدت مظهري المعتاد ، ولكن كان واضحا جدا اني كنت مخطئا .

صحت بأعلى صوتي : « لن يذهب بكم الامر ، على ما افترض الى حد محاولة اقناعي بأنه لا يوجد طريق ولا قطار للوصول الى شاطئ رملي من الطراز الحديث . كفاية سخريه بي . اذهبوا وقولوا لسيدكم أن ، هذا الاسلوب لم يعد مجديا . »

تأملني الفلاحون وهم يهزون رؤوسهم ، ووضع أحدهم سبابته على صدفه .

صرخت قائلا : « ولكن ، أخيرا ! اذا لم يكن هنالك واسطة نقل تصلنا بـ « اوريون بلاج » ، فكيف يذهب الناس اليها ؟

اجاب العجوز : « هاه ، حسنا ! من هنا ، يستحيل ذلك ، ولكن من يمكن أن يفكر بالذهاب الى « اوريون » ؟ فهي ليست مكانا ، ماذا يمكن أن أقول ؟ ... »

— كيف ، ليست مكانا ؟

— حسنا ... ليست مكانا مقبولا ومرضيا !

— اطلب منكم ان تخبروني بأي واسطة يمكن الذهاب اليها .

— ايه ... يجب أن تمود الى بوينوس ايريس .. نعم .. ثم
تستقل القطار الى « باردو » ... وتغير القطار في « باليستير » ..
وبعد ذلك ...

— وبعد ذلك ؟

— بعد ذلك ، تذهب الى « أوريون » عن طريق الشاطئ .

صرخت بقوة :

— عن طريق الشاطئ ! ولكن ليس لهذا أي معنى .

— ومع ذلك فهذه هي الطريقة الوحيدة . ويمكن الذهاب اليها ، سيراً
على الأقدام ، أو بالعربة .

— انك تسخر بي بلا شك . فالنساء ، والأمتعة ، والخدم ! ولن
تجعلني أصدق أن ...

هنا ساد صمت ثقيل .

قال على اثره الشاب الذي كان يرتدي صدرية من الصوف :
« ان هذا السيد يشير دون شك الى المومسات . »

— الى المومسات ! أضاف الرجل المعجوز ، ولكن منذ زمن طويل
كان يوجد كثير من المومسات . أما اليوم فلم يعد يوجد سوى عدد
قليل منهن » .

كان العرق يتصبب على جبينني فيشوش عليّ الرؤية . وكان أقل
شيء كافياً لي يجعلني أصوب الضربات وأوزعها على أولئك الناس .

قال الرجل ذو الصدرية : « أن الأمر في ذلك مثله مثل مكسر المرفا
ومثل الكنيسة ومثل المنتزه . لقد مات كل شيء ، يا سيدي . »

قلت وقد استبدت بي الغضب :

— انك لن تقول لي أيضا انه لم يعد هناك فندق !

— انا ! ... ولكنني لم أقل ذلك مطلقا . من المؤكد أن هناك فندقا .

تراجع الرجل الذي يرتدي الصدرية قليلا الى الوراء .

« ولن تقول لي أن الفندق لم يعد فيه نزلاء !

— بل الأمر على العكس من ذلك تماما ، فالنزلاء يريدون ثلاث مرات من امكانية الاستيعاب في الفندق ! » .

وضع احدهم يده على كتفي . فدفعتها بغضب شديد .

« اتركوني . وانتبهوا جيدا اذا لم تكونوا تريدون أن تقتلوا .

ساعد الى العشرة : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة سبعة ، ثمانية ... تسعة ... » .

كنت قد أغمضت عيني ، وعندما فتحتهما ، كنت وحيدا . كان هناك أصوات احتجاج غامضة خلفي ، ثم ساد الصمت . الصمت الذي يسود المحطات الصغيرة في تلك السهول عند بزوغ الفجر ، والذي لا يعكره سوى صياح الديكة ونباح الكلاب . خطوط بضع خطوات دون أن الاقي صعوبة في ذلك ، واستعدت في الحال قوة أطرافي . كان حفيف أوراق الزيزفون وتغريد الطيور يحثاني على المشي . تناولت حقيبتني ووضعتها بشيء من السهولة واليسر على كتفي . لم اكن أشعر بالجوع ولا بالعطش ، وكنت مصمما على بلوغ الشاطئ . ويمكن أن أنام في ظل شجيرات القابة اذا لزم الأمر ، وهناك ، نعم هناك ، سيكون البحر .

سمعت ضوتا يقول لي : « من الأفضل أن تسرع » . كان أحد
الفلاحين قد بقي هناك . عرفته : كان ذا الوجه النحيل .

سألني : « هل غادرت البلد منذ زمن طويل ؟ »

أجبتة وأنا أدير له ظهري :

— منذ عشرين سنة .

— منذ عشرين سنة ! أرجو ألا تكون مبالغا .

أخذ يتأملني بشيء من الإعجاب المشوب بالأسى .

أخذت أسير باتجاه الشاطئ . كان للهواء طعم خاص للبد . وما
قليل سيصبح مشبعاً بطعم الملح . وبنهاية الرحلة ، كان هناك درج
« مورينا » والمنتزه الذي كانت تتجول فيه حاملة مظلتها البيضاء المبطنة
بالدنتيلا السوداء . فلا الوحدة في عرض البحر ، ولا العزلة في زنراتي
الانفرادية ، لم يسبق أن اتاحا لي أبدا شعوراً بالأمن والطمأنينة التامتين
كذلك الشعور الذي كنت أنعم به في تلك اللحظة .

سألني الشاب الذي كان يتبعني ممتطياً حصانه .

« أكان لك أحد هنا ؟ »

أجبتة دون أن أبطيء في سري :

— نعم . ولكنها ماتت .

— هل مضى على ذلك زمن طويل ؟

— سلا .

— وهل كتبت لك بأن كل شيء قد تغير ؟

— كلا .

— اكانت ، في آخر الأمر ، لم تعد تحبك ؟ » .

كانت الحمى قد انخفضت درجتها ، ولم تعد ساقاي ترتجفان

قال الخيـئـال ملحـناً وهو ينحني على عنق حصانه .

« اعترف اذن أنك قد خدعتها ... »

— كلا ، لقد أردت قتل عشيقها » .

ساد صمت عميق ، تلتها ضحكة مشوبة بالكآبة . ثم تابع الرجل
الاستجواب الذي بداه :

« وهل انتقم منك ؟

— كلا » .

كنت أمشي على الرمل يرافقني حيوان صبور بخطواته الثقيلة .
كانت الريح تعصف بالاشواك البرية ، والشمس تسطع في سماء صافية
في كان لرياح البحر طعم الحلزون البحري .

« طيلة تلك السنوات ، ألم تستطع نسيانها ؟

— لقد كانت أمي .

— آه ! » .

لحظة توقف ، قضم الحصان خلالها حفنة من نبات القليح . كانت
الحشائش والأعشاب أمامي تنمو على مدى النظر .

« وقد عدت لكي تأخذ بالثأر ؟

— ربما كان الأمر هكذا .

— 'لم يكن الأمر على ما يرام بالنسبة لك في البلدان الأخرى ؟

— كلا .

— 'لم يكن هناك نساء ؟

— بل أكثر مما ينبغي .

— اذن ماذا ؟ »

كان يسد لي الطريق .

قلت وأنا أدفعه : « لا بأس ، ماشي الحال ! » .

ولكنه كان يرفض أن يدعني وشأنني لأمضي بسلام . وبالتأكيد كان وجهه متطاولاً لدرجة تثير السخرية والضحك .

قال : « عد أدراجك ، واستقل القطار ثانية لترجع الى بوينوس ايريس » .

لم اكن أصغي اليه .

« انك ترتكب خطأ كبيراً ، فهو سيظفر بك ، فانا أعرفه .

— أنها قضيتي » .

كان يتبعني كظلي ، يلامسني ، ولكنني لم أتوقف . كان البرد القارس يجمد أطرافي . كان لا بد أن لدى هذا الفتى مبررات شخصية

تدفعه لامتراض طريقي ومنعي من الوصول الى هدي . كان وجهه بزداد
تطاولا بسبب خوفه من رؤيته لي وقد وصلت الى « أوريون » . اسرمت
الخطى .

صرخ قائلا : « ولكن بما انها ماتت !

— بالضبط ، انما اذهب بسبب ذلك » .

كان قد أوقف حصانه بحركة مفاجئة من يده ، فبدر من الحصان
سهيل ينم عن الالم .

« خذ حذرك ! ان « سول » لم يمت ، فهو مازال حيا يرزق » .
ولكني لم أكن أصفي اليه . فالاصوات البشرية لم تعد تشير
الاضطراب في نفسي . ومنذ بضعة دقائق كانت أصوات الطيور وحدها
هي التي تبلغ مسامعي . أخذت أسير في طريق تكتنفه أزهار البابونج
وكان جوتّه وكل شيء فيه جميلا وعلى ما يرام .

صاح بي الخيخال بصوت أجش ، يكاد يكون مخنقا :

« دائما ضد الريح ، « أوريون غونزاليز ! » « ضد الريح
دائما ! ... »

وبينما كنت أمشي بخطى منتظمة ، تغمرنني السعادة لشعوري
بحرارة الرمل تدفئ أسفل قدمي ، تغطت السماء فجأة بالرؤى :
وبدت لي بعض المدن ، والغابات ، وخطجان صغيرة ، وبحر هادئ والمطر
شعرت ببضع نفحات من اللذة والسرور : ففي متناول يدي قامة امرأة
ووطن طوع بنائي ، وبعض من « فيش » القمار مكدس على سجادة
كازينو ، وحفلة زفاف ... ثم من جديد قاع باخرة الشحن ، رائحة
المهاجرين ، الاواني القذرة ، وفي حرارة الليل ، النساء الثرائرات

والمترهلات . ممارسة الحب ، ودائما بعد ممارسة الحب ، ذلك الغثيان الذي يجعلك تصبح شريرا .

كان الهواء يملأ صدري ويجعله يبدو منتفخا . وبحركة من رأسي، تخلصت من الرؤى التي بدت لي . والحقيقة هي أن الماضي لم يكن بالنسبة لي سوى مرض طويل الأمد أصيب به طالب داخلي : ألم يذكر « سول هيريديا » السجن في حديثه عني ؟

الهواء البارد تحت شمس محرقة كان قد أصبح قارسا . رفعت ياقة سترتي . كان يجب عليّ ألا أستسلم ، وأن أتابع السير الى الامام فعما قليل ، وكنت أعلم ذلك ، فيما لو قاومت النعاس ، فسوف تبدو لي صورة أمني . كان مازال أمامي ليلة بطولها أقضيها بين الكتبان، وفترة كبيرة من اليوم التالي . ف « سول هيريديا » قال : « يوجد بعض التعساء الذين يحيطون أنفسهم بالاشباح » .

كان ظلام الليل يزداد كثافة ، ولكنني كنت أتابع السير في طريقي . فقد نصحني الرجل ذو الوجه النحيل ، قائلا : « ضد الريح ، دائما ضد الريح » . كنت أمشي دون أن ألقى في طريقي أية عوائق ، عندما برزت أخيرا أمام عيني ، وفي كل روعتها ، قامة « مورينا » . لم يسبق أن راودني مطلقا أي أمل بأن أرى أمني تظهر بهذا الشكل الدقيق . ولم أكن قد افترضت أبدا أن وجهها يمكن أن يرسم بهذا القدر من الوضوح والحقيقة على ستار من الريح .

كانت بكامل ملابسها المصنوعة من الشاش الشفاف ، تبدو كأنها جزء من الهواء . كان دائما يتبادر الى ذهني وأنا طفل ، أنها ولدت من الرمل ، مثلما ولدت فينوس من البحر ، وأن مدينة « أوريون » قد بنيت حولها .

ولأن الكتبان أخذت تصبح أكثر ارتفاعا ، فقد كانت الصورة الرائعة
تغيب عني ، لتظهر ثانية كما كانت قد بقيت في ذهني : سمراء ، ناعمة
اللمس كالحرير ومجسدة في مادة ساكنة .

ومع تقدمي في مسيرتي ، كان جسمي يزداد خفة . والنساء اللواتي
عرفتهن كن ينفصلن عني . وكنت أكنّ الحقد لأولئك اللواتي كنّ قد
أرغمتهن على التصنع وادعاء العطف والحنان عندما كنت أمنحن بعض
اللذة . كنت أنقم عليهن لكونهن جريئات ولا يتمتعن برائحة الزهور التي
كانت تفوح من « مورينا » عندما كانت تأتي لتقبّلني في سريري . ولم
تكن أية واحدة منهن قد عرفت أو استطاعت أن ترتدي ثوبا كأنه فستان
صنع من أوراق الشجر . لم تكن أية واحدة بينهن تتمتع بمرونة
« مورينا » ، ولا باشرقتها النيرة . لا أحد ، كلا ، لا أحد رد لي البراءة
التي كانت من حقّي .

ومع ذلك : فقد حدث لي ، خلال رحلاتي ، أن اصطدمت بنظرة
صافية ، وإن لمحت مستقبلا مقبولا في انحناء رأس . وفي كل مرة
كنت أهرب من السعادة . كنت أجهل كل شيء عنها ، وكانت تبدو لي
كأنها خبانة . فانا أنتمي الى شبابي ، الى تمزقي ، الى خلجي وعاري
وكنت أرفض قبول أي صمت سوى صمت أهلي .

لم يحاول أحد على الإطلاق أن يسبر غور همتي ومتاعبي . لم أكن
أتهرب من الرجال ، كنت أوافق رواد المقاهي ، وأندس بين الجماهير .
وانتهى بي الامر الى الزواج . ولكن لم يشعر أحد أبدا بالموءة نحو
الحيوان المحترق الذي كئته أنا . كان وجهي يحدث الاضطراب والبلبلّة
في الاحاديث ، ويوقف الانطلاقات ، كلا ، لم يحاول أحد على الإطلاق
القيام بتجربة الغوص في أعماق نفسي .

كان يبدو أن جميع أولئك القريبين مني كانوا يعلمون ، كما لو أن
الامر كان مكتوبا على وجهي ، أنني بعد أن جعلت عدوي تحت فوهة
مسدسي ، أطلقت عليه النار من قرب وأخطأت الهدف .

- ٤ -

مشيت طويلا دون أن أشعر بالتعب . كان الهواء ينفخ أوردتي .
الأرض التي كنت أطوها كانت لي بالتمام ، عذبة وقاسية ، هي وزينتها
الفخمة البيضاء المكونة من غابات مخملية صغيرة على سفوح الروابي
والتلال .

وبمسيرتي متقدما نحو الأفق ، انما كنت أستعيد صمتي وفراغي
في غلاف السماء الأزرق ، وفي الرغبة الطفولية التي كانت تراودني للركض
الى أن أفقد أنفاسي .

كنت أمشي منذ عدة ساعات دون أن أشعر بالعطش ولا بالنعاس ،
عندما أدركت فجأة أنني رغم غيابي ورغم انقضاء زمن طويل ، لم أكن
قد سكنت أبدا سوى هذا الموقع الطبيعي ، وأنني في كل الأماكن التي
ذهبت إليها منذ عهد شبابي ، كنت أحمل في ذهني وفي نفسي أشعة هذه
الشمس نفسها ونفس هذه الشجيرات والأدغال بالذات .

- ٥ -

وعلى مدى سري وتقدم الليل ، كان الظلام يغشاه بخار أصفر
كانت قامة « مورينا » تغوص فيه . وحيد ومشدود بين السماء والرمل
الرطب الذي كان يحملني ، كنت أشعر برغبة عنيفة بأن أضم امرأة
بين ذراعي . كانت تحاصرني ذكريات حسية عن الكواحل والبطون .
وعما قليل سيكون عليّ أن أتمرغ في الرمل . كنت أجد صعوبة كبيرة
بالمحافظة على وضعي وعلى حسن سري . هبت الرياح فقذفت في وجهي
مباشرة حفنة من الأصداف البحرية .

استردت أنفاسي ، كما لو أنني كنت قد تلقيت صفعه بعد توبيخ
عنيف . اختفى السراب وعادت الخفة والرشاقة الى قدمي . ولم تعد
هنالك هموم تشغل بالي . ربما ستكون « مورينا » تنتظرني في غرفتها ،
غارقة بين الوسائد والشراشف الحريية الوردية اللون . وغدا ، يوم

عيد ميلادها ، ستقف في المنتزه ، ومظلتها في يدها . وستعلق مصابيح الزينة الملونة على جانبي مكسر الميناء . وستطلق الأسهم النارية . والضحكات البلهاء ستملأ الردهات بالضجيج المزعج . وفي الطابق الأول ، سيحدث ضجيج آخر ، سيكون شبيها بنوع من النقيق . ودون أن أعرف تماما لماذا أفعل ذلك ، فاني سأصعد متسلقا بأقصى سرعة طوابق الفندق العديدة ، وسأبلغ نهاية الممر الكبير . وهناك يصبح الضجيج صاخبا ، مزعجا ، تتخلله قهقهات الضحك . سأفتح الباب وأدخل غرفة الزوجية فأجد على سرير الزوجية « فيولا شميت » المخيفة غارقة في فراش أمي الحريري ، يحدق بها « سول هيرديا » بعينه البراقنتين . سأصرخ صراخ الحيوان الجريح عندما أرى « مورينا » تدخل الغرفة ، حاملة صينية ملأى بالحلوى تحت ثديها العاريين .

كان الهواء الرطب يسد أذني . وشعرت بألم في أسفل بطني جعلني أترنح . وبمسامير تثقب حلقي . وغاصت ساقي بين العليق وسقطت على الأرض ، منهارا ، فاقد العزيمة والوعي .

- ٦ -

عندما بلغت الشاطئ ، لم تكن ساقي تجران سوى جسم كبير ثقيل كأنه جسم رجل سكير ثمل ، وأخذت أرسل همهمة القرح وأنا أسير على الشاطئ . فالبهر قد ردة لي روعي . وتركته يعمل دون أن أدافع عن نفسي ، سعيدا بعودتي واستسلامي إليه .

أخذت أتمتم : « مورينا » ، « مورينا » !

عندما استعدت كامل وعيي لاحظت أنني قد انحرفت عن طريقي لأنه لم يكن هناك أي منزل ، ولا أية سقيفة على ذلك المنبسط الفسيح من الرمل الذي كان يقع تحت بصري . كان مغروسا في الكثبان بعض شجيرات الصنوبر وبعض أشجار الكينا القديمة ، ولكن لم يكن هناك أية قرية تبدو للعيان .

وعندما حاولت النهوض ، انتابني ألم مفاجيء في خواصري جعلني
أرتمي على الأرض . وربما انتهى بي الأمر وأنا أقع مرة بعد أخرى ،
أن أبلغ الشاطئء الحقيقي الذي أقصده . ولكن ، للأسف ، كان عليّ
أن أقطع أيضا عدة فراسخ قبل الوصول الى « أوريون » وكنت أشعر
أنني عاجز عن القيام بذلك . كان الفرح الذي كنت أشعر به لعودتي الى
مسقط رأسي يوشك أن يفارقني . دفنت رأسي في الرمال . تصاعدت
رائحة المحار الى أنفي . مددت يدي لأمسك إحدى تلك الرخويات
الظريفة التي كانت تمد لسانها من خلال الزبد ، ولكنني رميتها في الحال .

رفعت نظري عند سماعي رنين جرس . كان هنالك عربة تجرها
أربعة أحصنة برشاء ، تسير بمحاذاة الشاطئء . أشرت للسائق بالتوقف :

« أرجوك ، خذني معك ، من فضلك » !

— الى أين ؟

— الى بلاج « أوريون » .

— ولكن ، قل أيها السكير ، ألم يكن بإمكانك أن تفتح عينيك ؟ !

وأخذ السائق يلهب ظهور أحصنته بالسوط فانطلقت تعدو باتجاه
الجنوب . بدلت جهدا آخر للنهوض ، ولكنني فقدت الوعي للمرة الثانية ،
لأنني لا أذكر أنني رأيت صيادا يصل الى هناك ويضع صنارته وسلته .
ومع ذلك ، فإن الرجل كان بالقرب مني ، هادئا وعلى رأسه قبعة
صغيرة من القش .

سألته وأنا أحاول النهوض ، ومحاولا أن أجعل مظهري لا ينم
عن العداة :

« أيمكنك أن تقول لي كم يبعد من هنا فندق « أوريون بلاج » ؟

– الفندق ! ؟ ولكنه هنا .

– هنا ؟ !

– واضح أنك غريب . فما عليك سوى الصعود على خط مستقيم
الى قرب الصعود ، وحالما تبلغ كثبان الرمل ، تستدير ، ليس بانجاه
الحدود . هل ترى جيدا تلك القبة ؟

– نعم .

– الفندق ؟

– نعم ، النزل ، أو الفندق ، ان شئت ان تسميه هكذا .

– ولكنّ هذا غير ممكن ! فلم يسبق أبدا أن كان هنالك قبة .
والكنيسة ، أين هي ؟

– الكنيسة ! كيف ، انت أيضا ؟ «

أخذ الرجل يقهقه ضاحكا ، وبدلا من أي تعليق ألقى بقوة
صنارته في المياه . حيث حط حينذاك قرب الرجل نورس ضخم . أخذت
اتمعن في وجه الصيّد . كان يعلو ابتسامته شارب لطيف .

« أترى ؟ إنّ هذه الطيور لا تعرف بعد أن الانسان شرير . حتى
الأسماك ، انظر اليها ، إنها تقفز الى يدك .

كان الضوء ساطعا في ذاك الوقت والسماء صافية تماما . وهكذا
فقد كنت اذن في « أوريون بلاج » ! فلم يكن لدى هذا الصياد أي مبرر
للكذب . بدأت أتبين شيئا وراء الكشبان . كان ذلك هو الكوخ الذي
كانوا يسمونه كوخ الحدود والذي كنت ألعب فيه عندما كنت طفلا ،

لوحدي أو أنا و « أوليفيه » . ولكن ، حولي ، حيث كانت تبدأ السوارع
والبيوت فيما مضى ، لم يكن يوجد شيء سوى بضعة أشجار هزيلة ،
وهنا وهناك إحدى أشجار الكينا ملقاة على الأرض بعد أن حطمتها
العواصف .

لم أكن مخطئاً ! فقد وجدت قريتي من دون بوصلة ولا دليل . كان
القطار قد اختفى ، ولم يكن هنالك أحد ينتظرني وكان صمت البادية
يسود ذلك الشاطئ الرملي الذي كان فيما مضى مكاناً راقياً للفوضى .
شخص آخر استرعى انتباهي . كان يسير بخطى سريعة بمحاذاة
الشاطئ ويتوقف من وقت لآخر لكي يتفحص الأرض ويشم رائحة الرياح .
على صدره كان يحمل آلة تصوير وكانت تملأ أنفه نظارة كبيرة .

كنت أجرب نفسي بصعوبة بالغة ، إذ أن الجهد الذي بذلته خلال
تلك الساعات الأخيرة كان مرهقاً ، ولكنني مع ذلك كنت أقدم ، كما لو أن
قدرتي كان أن أتبع نصيحة الرجل النحيل الوجه ، والسير « دائماً
ضد الرياح » .

كان ذلك الرجل الماشي يراقبني ، كما كان قد تفحص الآثار التي
تركتها الطيور على الرمل . ثم اقترب مني وقال مبتسماً :

« أرى أنك غريب ، أنا الأستاذ « جوثمان » واستطيع أن أؤكد
لك أنه لن يتأخر . ربما يومين على الأكثر ، ثلاثة أو أربعة ... أأمل أن
تكون لاتخشى الأعاصير ! » .

كانت أسارير وجهه قد تجمدت ، بانتظار الجواب . هزت رأسي
تعبيراً عن المودة والتعاطف .

فقال بلهجة تنم عن البرضا :

« لحسن الحظ ، أن هذا أفضل ! سنلتقي ثانية عما قرب » .
« استأنف سيره بمحاذاة الشاطئ » .

سرت بضع خطوات باتجاه الكشبان الرملية باحثاً بنظري عن المنتزه الذي كان يضيف سابقاً على « أوريون بلاج » طابع المصيف الأنيق . لكن وبالأسف كان ذلك المنتزه قد زال من الوجود ولم يكن أمامي سوى الرمال التي يغطيها حطام الأشياء البالية وآثار مرور الطيور البحرية فوقها .

توقفت قليلاً لاسترد أنفاسي . استندت الى عمود من الاسمنت مغطى بالأصداف البحرية . كنت أشرق بدموعي التي كانت تملأ حلقي . لم أكن أجروء على الجلوس لخوفي من عدم قدرتي على النهوض ثانية . كان هنالك عمود ثان مواز للأول ينتصب خارج الرمل . اذا كان الناس لم يخدموني واذا كنت حقاً موجوداً في « أوريون بلاج » ، فإن هذين العمودين الحجريين كانا الدليلين الوحيدين على أن يد انسان قد حاولت أن تبني شيئاً ما في هذا المكان . ومع ذلك فقد كان يصعب معرفة فائدة هذين العمودين اللذين تلتصق بهما الرخويات ، ولاي غاية قد استخدمنا .

قال رجل عجوز كان يقف الى يميني ويده معول ، وكنت قد عرفته من وجهه الكبير وفمه الملتوي نحو اليسار :

« لو لم يكن ذلك بائساً ! »

ناديته : « هانس ! عزيزي هانس ! .. »

ولكن لم يكن يبدو أن الرجل قد سمعني ، فقد كان يهز رأسه .

أخذ يردد : « لو لم يكن ذلك بائساً ! لا أحد يذكر شيئاً . لا أحد .

قلت ملحاً :

— هانس ! هذا أنا ، أنا « أوريون » يا هانس ! احدثت في عينيه ، متفرساً في نظراته محاولاً أن اثير لديه لمحة من الفهم والادراك ، ولكن العجوز ظل يهز رأسه .

« كان جميلا المنتزه ... انظر ، لم يبق منه سوى هذين العريقين .
كان متميزا ... في المساء ... كان يجب أن تراه ، ياسيدي ، كان
يفص بالانسات » .

كان العجوز يحدق في الفراغ ، مستندا على معوله . أمسكته من
كتفيه ، وقلت له بصوت قوي :

« هانس ! انظر الي ! . أنا «أوريون» ، ابن «مورينا» . ولكنه
دون شك لم يسمع سوى الكلمة الأخيرة من جملة ، لأنه فتح عينيه
منبهرتين .

« مورينا » ! أعرف جيدا كل شيء : كانت على الشرفة عندما
سافر ، وكانت ترتدي ثوبا من القرو . لم تقل شيئا ، ولا كلمة . تأمل ،
ليس الصغير هو الذي أطلق النار ، انهم الآخرون ، النزلاء ، الخدم ،
والفتيات . لقد اختارت البقاء مع السيد ، باه ! فهذا يمكن فهمه .
وانت تعرف ياسيدي ، فقد كان الصغير في السن التي يحتاج
فيها للتربية » .

كانت دموع حمراء تحجب نظرات العجوز الشاردة .

صرخت به في وجهه مباشرة : « هانس ! . . » ، فقال :

— يمكن أن أشتق ولن أقول شيئا . فقلت ملحا :

— ولكن أصغ إلي ، أنا ابنها ، ابنها » .

ظل رأس البستاني ساكنا نحو ربيع ثانية . ثم عاد بهتز ثانية .

« بإمكانهم أن يشنقوني ولكنني لن أقول شيئا » .

شعرت باليأس فتوقفت من الالحاق ، وكان العوز قد نزع
سترته ، ووضعها بعناية على الأرض وأخذ يحفر الرمل ، حول العمود .
وهو يقول : « يجب نزعها » .

— دلني على الأقل الى طريق الفندق .

— يجب نزعها .

كنت على استعداد للتخلي عن الموضوع لأن الخوف من أن تختفي
الى الأبد عن هذه الأرض صورة « مورينا » حيث كانت ملكة ، كان يعصر
قلبي . كان « هانس » قد قال أن لا أحدا يذكرها ، ولكن هو نفسه ،
هل كان يحرص حقا على ألا ينسى سيده ؟ لقد بدر منه رد فعل واضح
عندما لفظت اسمها ، ولكن في الحال أمضى هذا الاسم نفسه من ذهنه .
وماذا كانت تعني ضحكة ذلك الصياد عندما تحدثت عن الكنيسة ؟
ان مدينة من مدن النزهة والمتعة لا تختفي في الهواء وتطير كقصر من
الغبار . وأنا ، من كنت ، أنا الذي رفعت يدي على عشيق أمي ، بسبب
التجاسر على الادعاء باخراج صورة امرأة منسية عمداً ، واستعادتها
من العدم ؟

كنت أشعر أن اسم « مورينا » مرتبط بقوة باسم « أوريون — بلانج » .
وأن « سول » اذا كان قد سمح أن تختفي البيوت والشوارع ، فلم
يكن ذلك الا لكي يختفي اسم أمي أيضا . لقد ماتت « مورينا » كما مات
القطار والكنيسة ومكسر المحطة . لقد دفنت في باطن الأرض ،
ولن أتوصل مطلقا لاعادتها الى سطحها . واذا كانت في الليلة الماضية
قد اختارت ان تأتي اليّ ، وتشارك في الكابوس الذي افتابني ، فانهما
هنا ، لا يمكن ان تجرؤ على القيام بذلك . وفساتينها ، قبعاتها المزينة
بالريش ، ورداؤها المصنوع من القماش المتموج والمحلى بالبرق والترتر
الذي كان يلفها ويضفي عليها شكل وسمات الأفق ، كلها كانت قد دفنت
أيضا معها . لم يبق لمورينا أي ديكور أو أي أثر ، ومهما ناضلت ضد

وجه « سول هيريديا » الذي يحمل سمات الأشباح ، فان هذا الوجه سيحول دائما بين « مورينا » وبينني .

كان سيد « أوريون » يعلم أنني أتيت ناويا قتله ، وهو لم يكن ذلك الرجل الذي يعترف بهزيمته ، ولا ذلك الذي يعلن عن عزمه على تصفيتي جسديا بواسطة أحد أعوانه . فأني عائق سيقمه بعد الآن في طريقي ، وماهي المخاوف ومظاهر الرعب التي سيحيطني بها ؟

- ٧ -

كنت أمشي نحو السهم الذي دلني عليه الصياد دون التقى بأحد . كانت الطيور تبدو مترددة باقتفاء أثري ، وبعد قليل كنت مجبرا على الاعتراف بأن أحدا لم يخدعني ، لأنني لدى وصولي أمام واجهة أحد المنازل التي كانت تلوح لي عبر الكثبان الرملية ، استطعت أن أقرأ هاتين الكلمتين : « أوريون بالاس » (فندق أوريون) مكتوبتين بأحرف ضخمة سوداء على جدار متصدع .

ولم يكن قد بقي من ذلك البناء الفخم اللبني كان مؤلفا من ثلاثة طوابق والمبني فوق مرج أخضر ، في نهاية ممشى تكتنفه أشجار النخيل الباسقة ، سوى سقيفة تعلوها قبة من التوتياء فوقها سهم . أما الحديقة الجميلة التي كانت أمي تتجول فيها حاملة مرشاً تسقي بمائه الزهور ، فلم يعد فيها سوى جذور ملتفة حول جذوع بعض الأشجار المتبقية ، وبعض سعف النخيل الممزقة .

والشرفة الواسعة ، حيث كانت « مورينا » تتناول الشاي ، قد اختفت تماما وكنت مرغما ، من أجل الدخول الى الفندق ، ان أمبر من نافذة حولت الى باب للدخول . وبدلا من أن أجد نفسي ، لو كان النوضع طبيعيا ، بين جدران ردهة الفندق ، لاحظت أنني كنت في ممر مدهون بالكلس الخشن يؤدي الى ما يشبه الباحة وقد علق الفسيل في وسطها وتصدرها أنبوب مدفاة .

انتابني بشدة احساس نتن بالبؤس والشقاء . فلا شيء مما كنت أبحث عنه يمكن ان يكون موجودا في مثل ذلك المكان . والحياة التي استبعدت منها كانت تتطلب اطارا يتصف بالترف والاناقة . والغرفة التي كان « سول هيريديا » يضاجع فيها الزائرات ، والتي كانت أمي تجلب له فيها الحلوى على صينية لم تعد موجودة هناك . كنت قد هربت من البشاعة لالقي من جديد بشاعة أخرى ، ربما كانت أشد اثارا للقرف من الأولى ، لأن روحاً شريرة (وهذا مما لا شك فيه) كانت قد استبدلت فندق « مورينا » ببيت حقير يثير القرف والاشمئزاز .

صفقت ، ولكن لم يجبني أحد . كانت الريح تلف من وقت لآخر كمقي قميص رجل حول خرقة مبللة وكان الصمت الذي يتلو ذلك طافحا بالسخرية . كان هناك كراسي ملقاة في وسط الباحة ، ودراجة صغيرة ذات ثلاث عجلات ، ألقيت على قفاها ودواليبها مشرعة في الهواء ، بين صحنون مازالت عالقة بها فضلات الطعام .

كنت على حافة اليأس ، عندما ارتفع صوت من داخل الفندق جعلني انتفض . كان هنالك أصابع مجهولة تعزف على البيانو ، نعم كان ذلك تماما : عزفا على البيانو . كانت المعزوفة رتيبة وصاخبة ، ولكني كنت مطمئنا . فهناك كائن حي يسكن هذا البيت الحقير والمخيف : انه طفل دون شك ، لأن معزوفة « الفالس » التي كنت أسمعها ضعيفة الانتماء الى الموسيقى الحقيقية . ومقابل أي شيء في العالم ما كنت لأرغب أن ينقطع صوت كان يذكرني بحفلات الرقص التنكرية أو بدروس الرياضة البدنية . وإذا كان الفندق قد مات بالفعل ، وكنت على استعداد لتقبل ذلك ، فقد كان بقي عليّ أن أكشف جثته .

لكن ويا للأسف ، رغم تجوالي عدة مرات في باحة الدار ، ودخولي في جميع الممرات ، ودراستي كل دقائق السقف والأبواب ، فاني لم أجد أقل أثر لما كان يتكون منه في الماضي قصر « سول هيريديا » . فلم تبد لي أية شرفة ، ولا أية غرفة مفروشة بالحريز ، ولا شيء سوى الغرف

البائسة التي تثير الشفقة ، بينما كانت معزوفة « الفلاح المرح » تتابع سيرها ، كيفما كان ، كما لو كانت بذلك تبرز بؤسي وتؤكد عليه .

- ٨ -

كان التعب يبعث في نفسي المذلة والهوان ويمنعني من أن أدرك بدقة المكان الذي دخلت إليه ، وكان عليّ أن أظل ساكنا لا أبدي أية حركة لكي لا ينتابني الدوار .

وفجأة وبينما كنت أهم بالدخول الى أحد الممرات ، وليحدث بعد ذلك ما يحدث ، شممت رائحة عذبة تفوح من غرفة كان بابها مواربا ، ذكرتني بشيء معين . فتحت الباب فرأيت في الحال سريرا برونزيا كنت قد استلقيت عليه عندما كنت طفلا أكثر من مرة ، في الليالي العاصفة . كانت الصور الفخمة التي كانت تزين مرآة الخزانة الكبيرة قد اختفت : صورة الجندي الذي صبغت له « ماري فوريه » شفتيه باللون الأحمر ، والصورة التي كانت تمثل راكب دراجة أنيق وهي تجلس على ركبتيه .

لم يكن هنالك أي شك بأنني كنت في جناح الخدم وأن ما كنت قد ظننتها باحة الفندق لم تكن بالحقيقة سوى السطح الذي كانت خادمت أمي تنشر عليه غسيل نزلاء الفندق . فكيف وصلت فجأة ومباشرة الى الطابق الثالث في الفندق في حين أنني لم أستخدم مصعداً ولم أتسلق درجا أو شرفات ؟... كان كل ما أذكره أنني أتيت مباشرة من الحديقة فاصطدمت بأنبوب مدفأة ورأيت بعض الشراشف والمناشف تتأرجح على حبل هناك .

وفي الخارج ، كانت الرمال تنتشر فوقها البراميل وصفائح التوتياء ولم يكن عليّ إلا أن أمد يدي كي المس الأرض . كلب أشعث ، مبقع باللون الأصفر مر بمحاذاة الجدار وحدجني بنظرات حذرة . ومن جديد أخذ قميصي الذي لم يكن قد بقي منه سوى أجزاء ممزقة ،

يلتصق بجسمي . كان عليّ أن أدرك الحقيقة الواضحة : فالطابق الثاني
والأول في فندق « وريون بلاج » كانا قد اختفيا .

كانت أنغام البيانو مازالت تتردد في مكان ما ، كما لو كان ذلك يحدث
لبعث الاطمئنان في نفسي . وبالفعل ، فاني بفضل ذلك نحتت بالمحافظة
على رباطة جأشي ، ولأني أصبحت واثقا عند ذلك بوجود درج يؤدي ،
الى الطابق الأرضي في ذلك البناء المتهدم ، فلم يطل بي الوقت رغم تعبي
حتى اكتشفته وغامرت بالنزول عليه .

كان الوقت ظهرا على وجه التقريب ، ومع ذلك لم يكن النور كافيا .
سرت في الظلمة لأن الفندق كان بكامله تقريبا مدفونا تحت الأرض ، هذا
أن لم يكونوا قد أغلقوا الستائر بسبب شدة الحرارة . وعندما وصلت
الى ما يجب أن يكون الطابق الثاني في الفندق ، عصفت بقلبي رائحة
كرائحة المدافن والقبور . تابعت النزول متمسكا كالأعمى ، عندما وضعت
يد غير منظورة على كتفي .

« ألم تر الكديش ؟ »

— عفوا ؟ —

كان الصوت مألوفاً بالنسبة لي .

تابع قائلا : « أنه لأمر غريب ، يا سيدي ، ولكن عندما لا نريدها ،
هذه الكدش ، فاننا نلتقي بها في كل مكان ، بالثلاث ، بالآلوف مصطفة
كالجنود . وهي تنتظر أن ينجز بناء الفندق ، ولكن ذلك سيحتاج لوقت
طويل . »

كان المعجوز « هانس » يحمل حذاءه بيده . كنت قد عرفتة عندما
وقف تحت حزمة من الضوء تسللت من السقف . كان قدماء العاريان
سوداوين من الرمال .

تابع بلهجة تنمّ عن الحزن :

« نعم ، لقد امت الرياح على الفندق ، قبل ان يتمكنوا من وضعها .

اقترحت عليه قائلا : سأرافقك » .

ولكن البستاني استوقفني بإشارة وقورة .

« اني اعرف هذه الأماكن ، يا سيدي » ، وسار مبتعدا عني . من المؤكد أن الحظ لم يكن بجانبني ، فهذا الرجل كان دون شك ، الوحيد في « أوربون » الذي يتذكر « مورينا » ، ولكنه كان مجنونا .

- ٩ -

في جوف البناء القديم والمهدّم حيث كنت أجد نفسي محتجزا منذ أكثر من ساعة ، كانت معزوفة « الفلاح المرح » تتابع سيرها دون ملل . تصورت نفسي فجأة في سن العاشرة ، متنكرا في زي مهرج ، وحيدا ، اركض في هذه الممرات نفسها .

كانت وطأة الحر تزداد شدة وبينما كنت أسير كيفما اتفق ، شعرت فجأة باحساس جديد ، احساس بأن الفضاء يكتنفني . وتخلل ايقاع المعزوفة الالمانية الرتيبة رنين جرس خيل اليّ اني اعرفه . فقد كان هو الذي ينادي المستحمين المنتشرين على الشاطئ الرملي ويدعوهم لتناول وجبة دسمة . كان ذلك الرنين ينفذ بقوة من اعماق البيت .

أدار أحدهم مفتاح الكهرباء فأضاء نور النيون القاعة المفلقة النوافذ، التي تفص بالموائد المفطاة بالأغطية الوسخة . بدا لي زوجان يتبعهما سيل من الكائنات البشرية ، ذهب الجميع فجلسوا تحت المراوح . ووضعت شبلك الصيد قرب الجدران . تعالت الضحكات ، وعملت الامشاط على تحريك وتسريح الشعور المبللة . أحاطت بي مجموعة

كبيرة العدد كثيرة الضجيج والصخب بشدر ما هي كثيفة وشعرت بأنه لا جدوى من محاولتي الدفاع عن نفسي ، واني لم يكن بإمكانني عمل شيء حيال هذا السيل المتدفق من الأجسام المرحة ، واني كنت أكبر ، وأعرض من أن أستطيع التملص والافلات من الغبطة التي تنعم بها عائلات عديدة .

الموائد ابتعدت عن بعضها ، وبعض الخدم اجتازوا القاعة وهم يصرخون . أشعل أحدهم مصابيح اضافية . أغمضت عيني . حدثت بعض الصفحات ، والغففات ، وسحب من بودة الرز . غرست الشوكات في جبال من المعجنات . وأخذت سكاكين المائدة تقطع شرائح اللحم . ودار الجبن على النزلاء . كان الفرح الذي لا حدود له ، ولا قصص أو مشاكل ، الفرح العنيف يسبب الاحتقان في الوجوه . ثم حدثت طقطقة الفكين القدسية ، وكان كل فكين مشبعين راضيين بما يمضغان ، تبع ذلك احتفال نكاشات الأسنان التي كانت تفتش الأفواه الدقيقة .

ولرغبتني بالبقاء منسيا ، مكثت ملتصقا بالجدار . كانت تبلغ مسامعي ننف من أحاديثهم : هل رأيت الغريب ؟ ... شخص مهزوز ، غريب الأطوار ... كلا ، أنه أحد أقرباء صاحب المحل ! ... اليس خطيب الصغيرة ؟ ... أنه يشبه أحد ممثلي السينما ... أنه مريض ، ألم تلاحظ ذلك ؟ ! ...

لم يكن هؤلاء الناس مخطئين ، فقد كان ينتابني الفتيان . ولم يسبق لي أبدا ، رغم تجربتي التي عانيت فيها في المدرسة الدينية الداخلية وعلى ظهر باخرة الشحن ، أن استطعت التكيف مع خليط مشوش من الناس . أمسكت بكتف سيدة بارزة البطن تحمل رضيعها على ركبتها وانتزعتها من كرسيها . عبرت بين ذلك الجمهور فوجدت نفسي دون أن أعرف لماذا ولا كيف ، على سطح البيت حيث كانت معلقة سراويل وجرابات نزلاء الفندق .

في قاعة الرقص ، في قلب هذا الضريح بالدات ، حيث دفنت لتوي
صورة أمي ، كان البيانو لا يزال يرسل أنغامه المدوّية بانتظام ، دون
كلل أو ملل .

- ١٠ -

عندما استيقظت ، انتابني احساس بأنني قد نمت عدة أيام دون
أن استيقظ أو أسترد وعيي . كانت بعض القنوات تملأ صينية موضوعة
على مائدة ، وكان الجو مريحا في الغرفة التي كنت فيها . شعرت
بالاسترخاء والراحة كما لو كنت خارجا لتوي من حمام دافئ مكثت
فيه طويلا ، اغمضت عينيّ ثانية ، رغبة مني بالمحافظة على هذه الحالة
من السبات التي كانت تتيح لي راحة البال وعدم التفكير بأي شيء ،
وبخاصة لكوني ليس عليّ القيام بأي مجهود لمجابهة خيبات أمل جديدة .
كان هنالك نور ضئيل يتسلل عبر شقوق درفات النوافذ المغلقة .
استسلمت لعدوبة هذا الجو دون أن ألقى أية أسئلة . يدان ناعمتان
اخذتا تتلمسان صدغيّ .

لقد زالت الحمى عنه .

— لحسن الحظ ، عليك أن تلقّنيه الدرس وأن تطرده بعد ذلك .

عند ذلك ساد صمت تبعه صوت ملققة تتحرك في فنجان .

عاد الصوت يقول :

« ستنصاعين لأوامري !

— كلا . »

استمر الصمت فترة طويلة بشكل مزعج ، هذه المرة . لم أكن
أرغب أن أفتح عينيّ لأنني كنت أشعر تماما بأن هناك من يترصدني
وإذا كان النوم قد حماني حتى الآن ، فإن ذلك لن يدوم طويلا .

كان في صوت المرأة التي كانت تجس نبضي نبذة أقوى من أن
يتحملها حسي وذوقي . حاولت تبين ملامحها عبر أهدايي ولكنني كنت
أشعر أن حارسيّ يترصدان حركاتي . ولا بد أن الرجل كان قلقا لأن
أصابه كانت تربت على مسند أحد الكراسي .

وصاح قائلا : كيف استطعتِ ، بل كيف أمكن أن تكوني قد نمت
مع هذا المتوحش ؟

— كنت أعرفه .

— كنت تعرفينه ! تقولين أنك كنت تعرفينه ! وبدلا من مراقبته ،
انصرفت الى العزف على البيانو !

— كنت أعرف أنه سيأتي .

— يا للقذارة الحفيرة ! »

وأرقت الشئمة بصفعة قوية ولكن المرأة لم يرفّ لها جفن .
كانت نقتها بنفسها تبدو مثيرة للغيط . فماذا كان يعني هذا الحوار ؟
كنت منزعجا لعدم تمكني من تغيير وضعي لأنني بدأت أشعر بالام شديدة
في جميع أعضائي . كان صوت الملعقة التي كانت تفرع جوانب وقاع
الفنجان يمنعني من العودة للنوم . وكان يرهقني ويتعب أعصابي صوت
المرأة الدخيلة ، الجاف النبرات .

وفجأة ، وكما لو كان ذلك قد حدث من أجل وضع حد لصمت
لا يطاق ، أغلق الباب بعنف وفي الحال توقف الصوت الذي كانت تحدثه
الملعقة . كان أحدهم قد خرج . ورغما عني فتحت عينيّ .

كان رجل في الخمسين من عمره ، ذو وجه ضخم يعلوه النمش ،
يقف أمام سريري ، وكان يرتدي بنطالا قصيرا وقميصا رصاصي اللون .
سألني :

« هل نمت جيدا ؟

— نعم .

— هذا من حسن الحظ . »

ورغم النبرة الودية في صوته ، فقد كان هناك ما ينسجم بالخوف
في موقفه .

سألته : « من أنت ؟

— جيروم و . آدمس ، صاحب الفندق ، واني اريد منك ان تنهض
وتفادر المكان بأسرع ما يمكن .

— هل باعك « سول هيرديا » الفندق ؟

— ولماذا لا يكون الامر كذلك ؟؟

— يا لها من قضية غريبة ! فندق بلا مواصلات مع الخارج ، يجب
تأمينه عن طريق الشاطئ والنور فيه لا يزيد عن النور في أحد الاقبية!

— ان أسعاري معقولة .

— ولم يحاول أحد أن ينسف لك السقيفة ، من أجل إعادة
اصلاحها ؟

ابتسم محدثي ابتسامة مفتضبة .

« ان ينسف لي السقيفة ! ان الناس غالبا ما يكونون حمقى ، ولكن نادرا ما يكونون مجانين . »

كان السيد « ادمس » ينظر اليّ بعين قرأت فيها شيئا من الشفقة عليّ لبرائتي وسلامة طوّيتي . ثم تابع بلهجة الامر :

« يجب ان تسرع بالانصراف اذا كنت لا تريد أن تتعرض للمضايقات والمتاعب . »

وبما اني لم يبدُ عليّ اني سمعت ، واني كنت اتقلب على الوسائد للعودة الى النوم ، فقد انحنى عليّ وهمس في أذني :

« اسمع ، أنا ليس لي أية مصلحة في جذب انتباه الناس على هذه « السقيفة » ، كما تقول . والامور تسير على قدر الامكان وهذا يكفي . فليس لديّ طموح ولا مطمع . وامراتي راضية . فهي تجري الاحاديث مع البرجوازيات اللواتي يأتين من العاصمة . ولأننا نحسن التصرف ونعرف كيف نحافظ على وضعنا فان الناس يتركوننا وشأننا . وبعد الحرب ، كما تعلم ، حدثت بعض المظالم ، مظالم كثيرة حدثت في بلادي . أما فيما يتعلق بـ « هريديا » ، فهو لا يحب الثرثارين . وقد تحدث الناس أكثر مما ينبغي . أما أنت ، فانك قادم من الخارج ، ولست مطلعاً على الامور . ويتحدثون هنا أنّ امرأة كانت فيما مضى تدير منزلاً وتجذب اليه الزبائن ، الكثير من الزبائن الأغنياء . وبالطبع لم يكن ذلك يشكل شيئا . فجميع الناس لهم الحق بالعيش وبتأمين معيشتهم . (هنا كان قد أخفض صوته) . يقال أيضا أنه هو الذي كان قد أسكن تلك الهندية الصغيرة النافهة في الفندق وأنّ رساميل ضخمة قد اختفت في اسرة الفتيات اللواتي كانت تأتي بهن لمساعدتها . ويقال أيضا أنه قد وقعت بعض الحوادث . أنت تفهمني ، اليس كذلك ؟ » .

كانت عينا « جيروم و أدامس » تتوهجان ببريق شره . كان قد أمسك ساعدي وأخذ يشد عليه بغضب شديد . وتابع قائلا :

« المرأة اختفت ، و « سول » أقام كثنانا أخرى بالقرب من هذا المكان . لقد كانت نذير شؤم كبقية العاهرات . ومنذ أن غادرت المكان سارت الأمور هناك كما لو كانت ترعاها عناية الله . ولا يمكنك أن تعرف ، فقد أطلقوا عليه اسم « الشاطئ الأعجوبة » . ويؤمه كثير من الأغنياء والمترفين . والأراضي ترتفع أسعارها بشكل مستمر وزبائن هذه « السقيفة » يعتقدون أنهم يشاطرون الآخرين ، هم أيضا ، هذه الحياة المترفة ، وهم مسرورون بذلك . وكل يوم تبنى منازل جديدة على الكثنان المجاورة ، وهي لم تعد كثنانا ، بل روائبي وتلال . ويقال أن « سول » سيقوم قريبا بتدشين شاطئه الجديد ، واللافئات جاهزة ، فقد رأيتها » .

كانت عينا « مدير العمل » تتوهجان وترسلان الشرر وهو يتابع وصف الملكة المجاورة . كان فمه الصغير الذي يعلوه شارب أشقر ، يبدو كأنه يتذوق قطعة « كاتو » محشية بالقشدة الطازجة .

وتابع حديثه قائلا :

« لقد ملأ خزانته بالذهب . وكل يوم يضيف إلى « ديكور » قصره وإلى زينته شيئا جديدا : شرفة على النمط الإسباني ، تمثالا ، إنه متحف حقيقي . والناس يأتونه من كل مكان بقصد زيارته ، حتى السفراء . أخيرا ! إنك تدرك أنه والحالة أصبحت هكذا ، فلن يكون هنالك رغبة بدغدغة ذاكرة الناس وبإثارة انتباه الزبائن على ماضي « أوريون بلاج » .

— وأنت ! هل يمكن أن أعرف لماذا تروي لي قصصا يفترض انه يجب نسيانها ؟

— انا ! ... ولكن ...

— بلى ، انت . وعليك أن تعترف أن قصص الأسرّة المملّية بالذهب هذه ، تثيرك ! أما بشأن الهندية الصغيرة والتافهة ، فأنا أنصحك ، إذا كنت راغبا بالعينين ، ان تهتم بما يعينك وأن تدعمها بسلام .

— وانت قل لي ، بأي حق ؟

— بحقي انا . لأنك أنت ، لا أعرف فيما اذا كنت انكليزيا أم المانيا ، ولا ماذا تخفي ، فأنا لا أبالي بذلك ، ولكن ماضي « أوريون بلاج » ، انا الذي أعرفه وسأفعل به ما يحلو لي .

كان الرجل قد تراجع قليلا . وضاحت حدقتا عينيه . ورفع اصبعه مهددا ، ثم قال :

« أيها السيد ، إن « أوريون بلاج » قد مات وسيظل ميتا » . كانت عيناه الآن صغيرتين حقا . وشعرت بأنه يمكن أن يقتلني بكل يسر وسرور لو كانت لديه الشجاعة على القيام بذلك . أرسلت تنهده واستلقيت على ظهري . ثم سألته :

« هل هذه ابنتك التي خرجت للتو ؟ أم هي زوجتك ؟

— إنها ابنتي « فاليري » . وهي مخطوبة .

— برافو ! » .

عض الرجل على شفتيه : فقد كان تعجبي واستحساني يعبر عن الكثير من رأيي في تلك الخطوبة . ولاحظت أن لديه شيئا من سمات الثور ، بدت في طريقته باحناء رأسه . قلت :

« لا تخف ، فليست مسلحا .

إنّ ذاكرتك قوية ، وهذا أسوأ .

— هل أخطرك بذلك « سول » ؟

— كلا ، إنّ خطيب ابنتي هو الذي فعل ذلك .

— ولكنني لا أعرفه .

— إنّك قد رأيته في « لاس روزاس » ، إنه « كارميلو » : شاب طويل ذو وجه متطاوّل . وهو فتى طيب يهتم كثيرا بالتمسّاء وسيئي الحظ » .

عبرت ذهني صورة الخيال ذي الوجه النحيف الذي تبغني حتى بلغت الكتبان الرملية .

« وقد وعدت « سول » بترحلي في هذا اليوم بالذات ؟

— بالضبط » .

كنت قد انتصبت على السرير . ووجهي الذي كان يغمره النور المتسلل من شقوق النافذة ، لا بد أنه كان متألّقا . لقد كان هذا الرجل يخاف مني . قلت :

« هيا ، انصرف ! فتراجع الرجل ، كررت قلبي ملحا : « هيا ، انصرف في الحال ! » .

— سيقضي عليك « سول »

— سنرى جيّدا .

تابع « آدماس » قائلا : سيحظى بك ، سوف يلاحقك كظلك ،
فهو ماهر بهذا العمل ، وسوف ترى ، سيجعلك ضعيفا جدا . بحيث
تفقد الرغبة بالعيش . دون أن تعرف فيما اذا كنت موجودا على قيد
الحياة ولا في أي عالم انت . وستركع أمامه ، وتقبل حذاءه .
كان هذا الرجل الضخم قد تراجع حتى التصق بالجدار ، وتمتم
فاعلا : « إني أحيا حياة هادئة .. وابنتي ستتزوج عما قريب » .

كنت أرقبه بكل سرور وهو يفقد ثقته بنفسه . لقد كان هذا
الرجل الضخم عبدا لدى « سول هيريديا » ذلك الساحر المشهور
الذي كان يجعل القصور تبنى وتتعالى كما تنبت وتنمو أشجار الكينا .

فتح الباب ودخلت فتاة ترتدي ثوبا وردي اللون وتحمل صينية
ملأى بالفاكهة . وعندما رآها السيد « آدماس » هز كتفيه وغادر
الغرفة .

كانت القادمة الجديدة صغيرة القامة وقد تذكرت ، بالفعل ، اني
لمحتها في صالون الموسيقى يوم وصولي حيث بدت لي عذبة مثل كأس
من عصير البرتقال . تفحصنا بعضنا بالنظرات ، وكانت قد اقتربت
والتصقت بي . ثم ضممتها إليّ وأخفنا نتدحرج بين الكراسي . لم
أكن احتفظ من ذلك العناق بسوى ذكرى فظة . وكان عليّ أن أصرخ
بكل قواي ، دون أن أعرف إن كان ذلك بدافع اللذة والسرور أم بدافع
من الغضب . ولكن الناس تراكضوا عند ذلك .

والآن ، ها هي « فاليري » موجودة أمامي ، منهمة برفع المخدات
تحت رأسي . رأيتها تسكب سائلا في كأس وتسحب الستائر . وفي
لحظة معينة توقفت وحدتني بنظرة حادة .

« لماذا كنت في السجن ؟ » .

فتحت عيني مندهشا . فقد ألقى عليّ « سول » السؤال نفسه .
تابعت وهي تقدم لي كأسا من الماء أذابت فيه قرصا :

« سمعتك وأنت تهذي . وأنا أعرف عن قصتك أكثر مما
تعرف أنت » .

لم أجب . فلم تكن لديّ أية رغبة بمناقشة هذه الفتاة التي كانت
راحتا يديها غليظتين والتي ربما لم تكن مخطئة فيما يتعلق بموضوع
السجن . فلا شك أنني لم أكن قد خرجت مطلقا من الزنزانة التي سجننتني
فيها أمي . ولكن ... كيف كانت تعرف ذلك وأين كانت الجدران
التي كانت تحتجزني ؟ ومن جهة أخرى ، كيف يمكن الخروج من مكان
لا تعرف حدوده ؟ ...

كانت جديدة داكنة تتدلى على كتف زائرتي . وكان انفها الصغير
الافطس قليلا ، يبدو جانبا منخريه كثيري الحركة ، وكانت بشرتها
شقراء وملساء . حاولت عبثا أن أتذكر ماذا شعرت عندما عانقتها .

وقالت : « يجب أن تنصرف ، فقد شفيت .

— ولماذا اعتنيت بي وعالجتيني ؟

— لقد سعدت بممارسة الحب معك ، فلماذا اذن لا أعتني بك
وأعالجك ؟

كانت ، طيلة الوقت ، تحديق بي .

« هل أنت معتادة على الاستسلام هكذا الى الغرباء ؟

— إن الرجل الذي يحظى بالاعجاب من أول نظرة ليس غريبا .

— حقا ؟

— إنه الرجل الذي ننتظره ونعرفه . وتابع : وعلاوة على ذلك فقد راقبتك على الشاطئ ، عندما كنت مستسلما للنوم ، لقد كنت شبيهها بالقارب .

— شبيهها بالقارب ؟

— نعم ، وبقارب فارغ .

فقلت لها : تابعي .

ولكنها كانت قد توقفت .

ثم قالت بلهجة الأمر :

« انهض ، يجب أن ترحل » .

كم كنت أود أن أضمها إليّ ثانية لأنني لم أكن أتذكر شيئا عن جسمها . كان ردّها يغرياني ، وصدرها أيضا . لا بد أنّ فمها من الداخل كان حلو المذاق ولكنني لم يسبق لي أبدا أن قدرت هذا النوع من اغتيات حق قدره . نهضت وأنا أنوي لمسها فسقطت ثانية في الفراش واستسلمت دون رغبة مني الى الحلم الذي كنت معتادا عليه والذي لم يكن يتطلب مني بلل أي مجهود .

صرخت حارستي وهي تضع يدها على غطاء السرير :

« كلا ! إنك لن تعود للنوم من جديد . لقد انقضت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ وأنا اسمع الأحاديث عنها . وهذا يكفيني .

— عنها ؟

— إنك تعلم تماما ما أعني ، وهذا يثير القرف في نفسي .

فانا انا مع من اريد ولكني انا مع رجال ، وليس مع اشباح . »

كانت الضربة قاسية وشرسة .

صاحت بأعلى صوتها : « دعها وشانها بسلام ، تلك الميتة ، فالأمر

يشير القرف . »

كان لدي انطباع بأنني أتعرض لعملية لن أعود منها ، وكان يستحيل عليّ الدفاع عن نفسي . وكما هي العادة ، بقيت ساكناً حيال التفتية والاهانة .

تابعت : « أصغ إليّ جيداً ، لا يجوز أن تستمر على هذا الشكل . فالحلم جميل ولكنه ملاذ المنزويين والانطوائيين . والنساء لا يكرهن الضعفاء شريطة أن يستطعن استخدامهم ووضعهم تحت تصرفهن . ولكن الضعفاء من أمثالك ، الذين يريدون الهرب ، ليس لهم دور يقومون به . انهم بالكاد يعتبرون كـ بعض الأشياء أو الأغراض . التي لا تصلح لشيء ، ولا يعتبرون رجالاً . أعرف أنك اشتركت في الحرب ، وأعرف أيضاً أنك تزوجت . بل وأعتقد أنك كنت تملك مكتباً في مكان ما وأنه كان لديك بعض المستخدمين . ولكن كل هذا لم يعد ينعم بالحياة أكثر من مدرسة اللاهوت الداخلية التي قضيت فيها علماً كاملاً . وقد عملت كل ما يمكن عمله دون أن تتواجد أبداً هنا . »

بدرت مني ابتسامة لاهية بالرغم مما كنت أعاني من ملل وتعب .

تابعت الكلام : « اني اقول « دون أن تتواجد هنا » لاني يمكن ان أقسم أنك شخص يأوي الى فراشه لينام حالما تحدث له بعض المتاعب ، ويفضل ان يحلم بامرأة على ان يحبها ، لان ذلك لا يلزمه شيء . نعم ، فالحب يسبب الآلام ويكلف غالباً . »

كانت « فاليري » تقف بجانب سريرى ، يداها متشبثتان بقضبانها
النحاسية ، وعيناها تحدقان بعينيّ .

« أعتقد أيضا أني أدركت أنك موجود هنا لتلتقي بأحدهم لأنك تنوي
أن تنتقم من ذلك الذي منعك من أن تكون سعيدا، حسنا ،... حسنا...
إذا أردت أن تصبح رجلا قبل أن تضرب ضربتك ، أبدا أولا بالخروج من
أسار تلك المرأة الميثة التي تتحدث عنها ! »

كلت الضربة الأولى التي وجهتها لي قد سببت لي ألما حادا في
صدرى . واثت هذه الضربة فزادت من حدة ذلك الألم . كنت قد أغمضت
عينيّ ، وفي لمح البصر ، تخيلت « مورينا » في اليوم الذي طردني فيه
« سول » من المنزل ، وكان ذلك عندما كنا على شرفة الفندق . فهي لم
تقل شيئا ، ولم تبد أية حركة لمنع من تدميري . لم أكن أستطيع أن
أنسى بريق عينيها الواسعتين والداكنتين ، المنبعث من خلال جفنيها
المسدلين . كان صوت حارستي يتابع حديثه وكنت أكاد لا أسمعه . ومع
ذلك فقد لفتت انتباهي هذه الجملة :

« لا ينبغي ، كلا ، لا ينبغي ممارسة الحب مع أشباح . »

كانت الهجة أكثر رقة مما كانت عليه قبل قليل . وكانت الفتاة
قد اقتربت مني وانحنى على فمي . ثم تابعت تقول :

« يا للعجب ، انك عندما ضاجعتني ، ذلك اليوم ، في الصالون ،
كنت تحشرج وتهدي ، أليس كذلك ؟ وكنت تبدو أنك تدخل بي وكأن
ليس لي قرار وأنت لا تريد أبدا أن تخرج مني وتطفو على سطحي . ولكنك
عندما كنت تضميني إليك ، وتحولني الى حصاة ، الى كتلة من التراب ،
أي اسم كنت تطلق علي ، وبأي اسم كنت تناديني ؟ نعم ، بأي اسم ؟ »

كانت قريبة جدا مني بحيث كنت أرى نهديها مشدودين ومنظمين
تحت صدورها . وكانت حلمتها المتشبثتان تلامسان صدرى .

وتابعت تقول : « لقد تجولت في كل مكان ، ونبلت جميع النساء بعد أن استخدمتهن ، لأن أي واحدة منهن لم تكن تتمتع بعدوبة تلك تلك المرأة . ولم يكن لأي منهن قوامها ولا عينيها ولا رائحة جسدها . ليس كذلك ؟ لقد كرهتهن لأنهن أحبينك ، وثقت عليهن ، ولم تسمح لنفسك مطلقاً أن تحظى بالسعادة خفية أن يسرهن ذلك . وأيضاً لأنك كنت متأكداً أن الأخرى كانت تنتظرك على شرفتها في كنفها الجميل . أصغ الي جيداً ! ان تلك ليست لك ، فهي له ان كانت ميتة أو حية ، وهي انما تنتظره ، هو . يجب أن تقتنع بذلك . (كانت أنفاس الفتاة تتردد بسرعة .) عليك أن تطيعني ، وأعدك بأنني سأجعلك تنسى الموتى . فالموتى ليسوا سوى عظاما ، وديداناً ، وليسوا شيئاً آخر . »

كنت قد ألقيت رأسي ثانية على المخدة . وكان صوت تلك الفتاة الذي كان يتحول من التأكيد التعليمي الى نوع من الحماسة الطفولية يبدو لي شديد العذوبة .

قلت :

« خذيني الى البحر ! اني بحاجة للماء . »

كانت زائرتي قد ادخلت ذراعيها تحت عنقي كي تساعدني على النهوض . كانت رائحة الصابون تفوح من نهديها . أمسكتها ، ولكنهما أفلتا مني . بعد ذلك وبينما كنت أحرق بهما ، عادا إلي من جديد . وبعد معركة غير متكافئة ، لأنني كنت لا أزال خائر القوى ، نجحت أخيراً بالاحتفاظ بهما وبضغطهما بشدة على فمي . وبحركة سريعة ، ابتعدت الفتاة عني .

وامرتني قائلة :

« انهض ! اني سأجد لك مسكناً حقيقياً . »

« في هذه اللحظة أنت تمشي عليه ، يا سيد « أوريون » ، أعني على أرض منتزهك التي تمتد حتى مكسر المرفأ .

سألت المعجوز « هانس » الذي كنت قد التقيت به خلف الفندق ، حيث كان يبدو أنه ينتظر احدا هناك :

— كيف حدث ذلك ؟

— تقصد كيف حدثت الكارثة ؟

كنت أريد أن أعرف كيف استطاعت الرياح أن تأتي على القرية بكاملها وتزيلها من الوجود .

— آه ! يا سيدي ، أنت لا تعرف شيئا عن الأعصار . فهو لا يعلن عن قدومه ، ولا أحد يشعر بشيء يدل على قرب حدوثه ، وكل ما هنالك أن الحرارة لا تكاد ترتفع قليلا ، أو بالأحرى ترتفع وطأة الضغط ، بحيث يكاد المرء يشعر بنقص في كمية الهواء التي يحتاجها ، بينما تبقى السماء هادئة وصافية ، وتسمع أصوات كقهقهة الضحكات ، ضحكات قوية تسمع دائما وباستمرار ثم ينفجر الأعصار .

كانت عينا المعجوز تتسمان من خلال أهدابه ، وحاجبيه الكثيفين ، لم يكن قد بقي كبير شيء من هذا الرجل الذي كان قد تلقى ضربة سكين من يد أحد الهنود والذي كان قد عمل في مقاومة الزمالة المتحركة الى جانب « سول » .

تابع حديثه ، قائلا بصوت أجش :

« كان ذلك في عام ١٩٢٦ ، ومنذ ذلك الحين ، حدث اعصاران ، ولكن ذلك الاعصار ، الحقيقي ، الابيض ، قلته لم يرجع . وعندما يرجع ، سوف ترى كيف انه لن يبقى على شيء هنا ، حتى ولا القبة ولا السهم .

صحت بأعلى صوتي .

— ولكن هذا غير معقول ، يا هانس ! كيف امكن الا يحاول أحد نبش البيوت والكنيسة واخراجها من تحت التراب ؟ »

أحنى العجوز « هانس » رأسه ، وقال بصوت ضعيف :

« وكما تعلم فان ذلك ليس مؤكدًا تمامًا .

— وما هو ؟

— بأنه قد كان هنالك بيوت . أما بشأن الكنيسة ، فلم يعد أحد يتذكرها سواك .

— سواي ؟ .

مكثت ساكنًا . فالكنيسة الكبيرة المبنية من الحجر الأبيض ظلت تشكل لديّ هاجسًا طيلة عشرين عامًا . وكان الخوري ، الأب « ايسبادا » يمنع قطع نباتات القصب والخيزران التي كانت تحيط بها والتي كان العشاق يلتقون ويتعانقون بينها . وكان يقول مؤكدًا : « انها مسؤوليتي » . كنت أتخيل كنيسة وقد اكتنفها ضباب يتخلله الضياء . وقامة أمي النحيلة تعبر بهدوء بين شموع ومشاعل قاعة الكنيسة .

صرخت بأعلى صوتي :

« هانس ! أنا لست مغفلاً . فاعصارك الذي تحدثت عنه لم يكتف بدفن نصف الفندق ، فقد ذهب بشيء آخر زيادة على ذلك ، اذ أنك تحدثت عن كارثة .

— أوه نعم ، أوه نعم ، ، لقد ذهب بالبيوت الخشبية ، ولكن
البيوت الاسمنتية الجميلة التي كانت تزينها الزهور ، هذه البيوت ،
كانت الرمال هي التي طمرتها . فالرمال ، ياسيد « أوريون » ، عندما
تعصف الرياح ، أنت لاتعرفها ، ولا تعرف ماذا تستطيع أن تفعل ! ثم
مازال هناك الكنيسة الأخرى : كنيسة المجنون » .

كنت قد أمسكت ذراع الخادم المجوز وأخذت أشد عليه
بقوة وغضب .

« ماهو المبلغ الذي يدفعونه لك لكي تلفق هذه الأكاذيب ؟

فذلك اليوم ، عندما وصلت أنا الى هنا كنت تتصنع الجنون .
وماهي كنيستك « الأخرى » التي تتحدث عنها ؟ »

التفت الى فاحية أخرى ، وقال :

« اني لا اكذب ، ياسيد « أوريون » . ولكن الذاكرة تضعف لدى
من هم في مثل سني . وعلى سبيل المثال ، هل أعلم فيما اذا كنت
أعرفك ، وحسب ؟ فقد كان يوجد هنا فتى فيما مضى ، هذا صحيح ،
وكان ابن السيدة . لم يكن بدينا ، ولم يكن يلعب أبداً مع الاطفال
الآخرين ، فيما عدا « أوليفيه » ، بائع البوظة الصغير . وكان يعاني في
الليل من نوبات متكررة . فكانت السيدة تركض في ممرات المنزل لتغلي
الماء . أما الفتى فكان يستمر في الصراخ . ولكن هل أعرف فيما اذا كان
ذلك الفتى هو أنت ؟ »

فقدت عزيمتي وانتابني اليأس ، فتركت ذراع المجوز ، فعاد الى
عمله في تنزيل حمولة احدى العربات ، المكونة من المؤن والمواد الغذائية
التي كانت تنقلها من شواطئ « الجنوب » .

سرت بضغ خطوط باتجاه البحر ، كانت الساعة تقارب الثامنة مساء . تصاعدت موجة ضخمة نحوي وتبددت حول قلبي . كانت المياه شديدة الزرقة ، انحنيت على الشاطئ كي المسها . كان « هانس » يكذب ، وكذلك الصيدلي كان يكذب والخوري الذي تبعته بالأمس على الشاطئ كان يكذب أيضا . فالامر الذي كان يبدو ان الجميع يريدون احترامه والتقييد به هو التأكيد بأن « أوريون - بلاج » لم يكن لها على الإطلاق أي وجود كمصيف ، وإن فندقها لم يكن سوى نزلا غير مكتمل البناء ومغطى بكامله تقريبا بالرمل على اثر اعصار دون ان تنشأ أية قرية حول ذلك البناء الذي بني على كثران رملية غير ثابتة .

كانت يداي تلعبان بزبد المياه وتحفران الرمل . اصطدمت أصابعي بمقاومة إحدى الأصداف . تابعتها الى أن أمسكتها بكل قواي لكي أمنعها من الفوص في البحر . كان هنالك من يراقبني . كان ذلك هو « هانس » الذي عاد نحوي . لماذا كان « سول » يستخدم هذا العجوز الذي بلغ الثمانين من العمر على أقل تقدير ؟ لاستنني خيول العربية عند مرورها بقريبي . وذكرني رنين أجراسها باستيقاظنا في زمن مضى : « مورينا » مرتدية فستانا من الكتان ، واقفة تحت أشعة الشمس ، تتلقى بعض باقات النرجس من يدي أحد الفلاحين . كلا ! لم يكن بإمكانني تصديق الرواية التي كانوا يحاولون فرضها على ذهني . فإذا كنت حقا قد أمضيت طفولتي دون الذهاب الى المدرسة ودون أن يكون لي رفاق في مثل سني ، فليس معنى ذلك أنني لم اكبر وأترعرع في قرية حقيقية ، بين بيوت حقيقية ، وكنت اتخيل نفسي وأنا أقوم بسرقة « عرق السوس » من عند السمان ، ومنصرف الى تأمل النساء الواقفات أمام الحوانيت !

صرخت بأعلى صوتي وأنا التفت نحو الرجل المسن الذي كان يقف ورائي : « هانس ! كيف يمكنك انكار وجود الكنيسة ؟ فانا أذكر تماما اني حضرت فيها القداس أكثر من مرة .

- ايه ! الجميع يلذكرون انهم قد حضروا القداس ذات يوم ،
فالكنيسة هنا ، هي لاشيء ، فهي سقيفة عفنة في داخلها اناس عفنون .
رجل مسن بثوبه العتيق وايقوناته القديمة على الملبح . لم يعد هنالك
سوى عبوات المعلبات وزجاجات الخمر الفارغة .

تمتت قائلا :

- اذن ، اذا كان الامر هكذا ، واذا كنت على صواب فيما تقول ،
فماذا اصنع انا في هذا البلد ؟

لابد ان نظراتي كانت مخيفة ، لان « هانس » اطرق في الارض ،
وابدى حركة تنم عن الجهل . كان الهواء في ذلك المساء ساكنا ، وأمواج
البحر تقترب مني ، انتزعت حفنة من الرمل وفكرت بها خدي.
بغضب شديد .

قال المجوز وهو يشد على ذراعي بأصابع كانت قد فارقتها
الروح أو كادت :

« لا ينبغي ، ياسيد « أوريون » ، لا ينبغي أن تفعل ذلك ، فانا
أصدقك ، نعم اني اصدقك » .

- ١٢ -

بعد أن أخضعت خادماً أمي إلى استجواب مطول ، استجوبت
سكاناً آخرين من أهالي « أوريون » بعد أن تبعتهم عبر الكثبان الرملية .
وهكذا فقد تحولت شيئاً فشيئاً إلى شخص مهووس ، يتهرب منه
الناس . كانت لحييتي ، عينايا الفائرتان في محاجرهما ، والتجاعيد حول
فمي ، كل ذلك يجعل وجهي مخيفاً .

وذاذ مساء ، اثناء ذلك ، بينما كنت أسير بمحاذاة الشاطئ ،
وأنا ادفع بقدمي موجات الماء الضعيفة ، اقترب مني شابان يحملان أدوات
الصيد . وسألني أحدهما بتعال :

« احقا ما يقال ؟ - هزيت رأسي وقد اعترتني الدهشة - أنك ال... »

- ال... ماذا ؟

- ال... »

- هيا ، قلها ! »

بلغ الشاب ريقه .

« العين الشريرة . »

كان قد أطبق فمه ، وكانت عيناه متوهجتين كما لو أنه كان قد
تجاسر على تحدي الشيطان . كان رفيقه يقف متمسكا بذراعه منتظرا
جوابي وهو يرتعد .

قلت : « نعم ، لم يكذبوا عليكما ، أنا العين الشريرة . » صمت
مطبق أحاط بنا نحن الثلاثة . لاحظت أن الشابين اللذين اعترضا سبيلي
كانا بنفس القد ولهما العينان الزرقاوان نفساهما اللتان لا تعبران عن
اية فكرة . لم يتحركا ، ثم بانطلاقة مفاجئة ، اندفعا هاريين بأقصى
سرعة .

كانت الشمس تنصب كبقعة الدم القرمزية على بحر هاديء ، لم
تعد مياهه تتموج الا على دفعات مفاجئة . ماذا اتيت اصنع في منطقة
لم يكن فيها شيء ولا أحد يجرؤ على التعرف علي ؟ وماذا كنت آمل من
اناس أضاع صوابهم وعقلهم الخوف من سيدهم أو اعجابهم به ؟

و « أوليفيه » ، صديقي الوحيد ، لم يكن على رصيف المحطة عند وصولي الى « بوينوس ايريس » . وقيل لي بعد ذلك : « لقد مات قطارك الذي تحدث عنه » ولم يعد الناس يقتربون مني الا وهم يسرون بخطوات بطيئة ومتردة كأنهم أشباح كل قصدهم دفعي الى الهرب .

ومع ذلك ، رغم المساوىء المختلفة لهذا الوضع ، فقد كان من الممكن أن أعيش حياة تكاد تكون رغيدة في الكوخ الذي اسكننتني فيه « فاليري » قرب الحدود . لأنه كان بالنسبة لي مكانا زاخرا بالذكريات لكن ، وبا للأسف ! فان الميل الذي شعرت به نحو الفتاة كان قد تبدد ، ولم يكن يعاودني الا بصورة متقطعة وتبعاً لبعض الظروف . كانت نوبات الحمى تعاودني ، وكنت أعاني من ضعف شديد دون أن أكنّ أدنى حب لانتقاض ماضٍ ظل يغذي حياتي طيلة عشرين سنة ، ولكنني بدأت الآن أشك فيه . كان الخوف من أن أرى نفسي وقد فقدت مبرر العيش والبقاء على قيد الحياة ، هذا الخوف وحده ، هو الذي كان يرغمني على متابعة تحقيق ، كنت أقوم بتنفيذه بمزيد من الهمة والنشاط . والشكل المادي للكنيسة الذي كنت اعتقد اني ما زلت أذكره ، بدأ يفوتني ويغرب عن بالي . ولم أعد أستطيع تحديد موقعها في القرية ، مثلها في ذلك مثل البقالية ، ولم أكن احتفظ من خدماتها وقداديسها سوى طعم الخبز المقدس الحلو ورائحة الشمع . وبالتأكيد فاني قد بحثت كثيرا حولي عن آثار « مورينا » ، ولكنني لم أعر لها على أي اثر .

لم يعد فندق « أوريون - بلاج » ، بقبته وحدائقه المقفرة ، يشكل سوى منظرا محزنا امام أعين الزوار ، أما قطعنا الحجارة اللتان كانتا عمودي المنتزه ، فلم يعد فيهما شيء من ابهة الماضي ، وعندما يحدث أن المسهما لدى مروري ، فانما يكون ذلك دائما بدافع من الشفقة .

ومع ذلك ، فقد عذمت على متابعة اكاذيب « سول » حتى النهاية، تلك الاكاذيب التي حاكها حولي والتي تهدد بخنقي . فقد كان كلام

صاحب الفندق واضحاً وضريحاً : « خذ حذرک ، انه سيحظى بك ! »
كان هنالك سؤال يراود ذهني : لماذا بنى « سول » مدينته الجديدة
بجانب المدينة التي كان يرغب نسيانها ؟

رغم فترات التعب المتعددة التي كانت تحتجزني في سريري
المتواضع ، فاني لم اكن اهلي . كان رنين أجراس عربية « الجنوب » التي
كانت تمر مرتين كل يوم قرب كوخي ، يحدث صغوطاً مثيرة على
اعصابي . ولكن لا الضعف ولا الاثارة توصلنا الى دفعي في متاهات
الاسطورة . لقد كانت تساورني الشكوك ، وكنت اتأرجح بين فرضية
وأخرى ولكنني كنت واضح الرؤية ، نافذ البصيرة . ومع فقدان ماضي
الحقيقة مكوناته ، كانت كراهيتي ، على عكس ذلك ، تتأكد وتتثبت .
لم أعد أحقد على « سول » لانه طردني ، بل بسبب جريمة أشد
خطورة ، هي جريمة تدميره صورة « مورينا » في اذهان الجميع .

ثم استيقظت ذات يوم وأنا أتساءل فجأة فيما اذا كانت «مورينا»
قد ماتت فعلاً ، واذا لم تكن قسوة « هريديا » قد دفعته الى اخفائها
في مكان ما فتصبح بذلك كأنها مدفونة وهي حية !.. وما هي تلك
القصة عن الحيوان العفن الذي يرتدي اللباس الكهنوتي الذي تحدث
عنه « هانس » ؟ ... فانا لم يسبق لي مطلقاً ان رأيته .

- ١٣ -

لم أرجع الى الفندق ، وكانت رؤية البرجوازيين الذين تمتعوا
باشعة الشمس ، وهم عائدون من الشاطئ الرملي ، وعلى رؤوسهم
قبعات من القماش ، تثير الاشمئزاز والقرف في نفسي ، كما ان فكرة
الالتقاء بـ « جيروم و . آدامس » لم يكن فيها ما يفري .

وشيناً فشيناً أصبحت الكشبان الرملية مرتعي الوحيد . فقد كنت
أجوبها ليلاً . وعند الظهيرة ايضاً ، وقد اعترتني الدهشة لشعوري
بأنني كنت أمشي كما لو كنت حياً .

وكان يحدث لي ان اظن أنه ربما لم يكن لروائع «أوريون - بلاج» أي وجود إلا في مخيلتي عندما كنت طفلا جريحا وفي مخيلة مجنون كالعجوز «هانس» . ولو كان الامر كذلك ، فلم يكن بإمكان «مورينا» أن تكون شيئا آخر ، في الواقع ، سوى هندية صغيرة تافهة لا تساوي شيئا ، ولكن هذه الفكرة كانت لا تطاق ولا يمكنني تقبلها . كنت قد قبلت انحطاطها الاخلاقي ، اهمالها وزهدا ، ولكنني لن أستطيع مطلقا انا الذي كنت قد وضعتها في موقع رفيع ، محاطة بكل المغانن ، أن أقبل صورتها بملامح امرأة سوقية ومبتذلة .

كانت كراهيتي تشتد يوما بعد يوم ، وأخذت تصبح مادة حارقة . وبعد قليل ، كان يصبح مستحيلا بالنسبة لي تصور شكل وجه أمي ، على سماء تزداد حركةً واهتزازاً . كانت سلطة عدوي على ارادتي قد بلغت حدا جعلت معه ، رغم كل جهودي ، شبح «مورينا» يتفتت وينهار ، دون ان يبدو لي بعد ذلك الا بالشكل المخيب للامال ، والمتمثل بفستان فارغ .

- ١٤ -

كان الكوخ الذي اسكنتني فيه «فاليري» مبنيا على أعمدة . وكانت صورة كبيرة لـ «سول هيريديا» تشكل زينته الوحيدة . كانت الجدران المكونة من جذوع الاكاسيا تسمح بمرور الهواء البارد ، وكنت أشعر دائما ، في الليالي العاصفة ، أنني أعيش في وسط البحر ، تحت رحمة اول نقطة يقدفني بها .

ولشدة انطوائي في عزلي ، كالناسك المنزوي في صومعته ، ولكوني كنت أبعث الخوف في قلوب المصطفين حالما كنت أظهر على قمة أحد الكتبان الرملية ، فقد انتهى بي الامر الى عدم محاولة اقامة أية علاقة مع أي كان ولم يطل بي الوقت حتى اكتشفت وقد انتابتنى

الدهشة ، أن للعزلة ميزات وأثراءها . كانت الذكريات الأوربية تبتعد عن ذاكرتي ، الفقر ، الشوارع ، صفرة الوجوه . كانت أهوال العالم تتلاشى دفعة واحدة أمام احمرار السماء ليلاً ، ورجع أمواج البحر الدثؤوب . وكان الفضاء المعطر يشرح صدري . وإذا كانت ذكرى « مورينا » أخذت تفوتني لكي تعود فتصبح كلمة دون لب أو كيان ، فقد كان هنالك بالمقابل قوة مجهولة تجتاحني : تلك قوة الاغذية المطهرة التي تجردك من كل شيء وتبعث فيك التعجب والدهول .

لم تكن « غاليري آدامس » تتركني أحتاج شيئاً . كانت قليلة الكلام وكانت تحرص بشكل خاص على تأمين طعامي وعلى نظافة ملابسي وكل يوم كانت تأتيني بقميص مكوي تفوح منه رائحة عطر الخزامى . لم أكن ألقى عليها أية أسئلة لا عن علاقاتها العائلية ، ولا عن خطيبها الذي حدثني عنه والدها ، والذي ، على ما يبدو ، كنت قد التقيت به في المحطة . كنت أقبل خيافة عشيقتي دون أن أبدي لها أي امتنان ورغم فتور الحرارة التي كانت تسود علاقاتنا ، فقد كنت واثقاً على الدوام أنني سأجد الفتاة مستلقية على سريرى عندما أعود الى كوكبي .

كنت أقرب منها دون استعجال . كان جسمها المخملي رائعا . وحالما كنت أقرب من السرير ، كانت تمسك بي وتجذبني نحوها .

وسألتني ذات مساء : « أنت تكره النساء ، أليس كذلك ؟ » ، ومرة أخرى ، عندما سألتها عن رأيها بـ « سول » ، أجابتني بحماسة : « أنه زعيم . »

— زعيم يضحي بالجميع في سبيل مجده الخاص .

— لماذا ؟ هل تعتقد أن الأمر لا يحتاج لمزيد من الشجاعة لكي يكون المرء غالباً ومنتصراً بدلاً من أن يكون ضحية ؟ وهل تعتقد أنه ليس هنالك بعض الراحة في الفقر ؟

ـ وهل تسمين عدم الدقة وغياب الوازع الاخلاقي ، شجاعة ؟

ـ اذا اردت ذلك .

كانت تتحداني بعينيها الصغيرتين الداكنتين المغروستين في وجهها كأنهما حربيتين .

« النساء لا يعبدن الا هذا النوع من الرجال .

ـ لانهن يعتقدن معرفة نقطة الضعف لدى هؤلاء الرجال ، دون شك . هذه النقطة التي تكاد تسبب ضياعهم ، أو لانهن يتصورن أن لديهن القدرة على انقاذهم ؟ »

كان صوتي قبيحا ومزعجا ، وكنت أسمعه كما لو كان لا يخرج من حلقي بل من حلق شخص مسكين مستقر في داخلي .

اقتصرت اجابة رفيقتي على قولها : « ان « سول » ليس في وضع يحتاج معه الى انقاذ . »

كانت « فاليري » تدهشني ببرودة اجاباتها وردودها . وكنت اتساءل اين وكيف اكتسبت رباطة جاشها وحدة ذهنها وكنت انزعج من شعوري بالتأثر والانفعال عندما كان فخلها يلتفتان حول خصري ، وفمها يلتصق بصدري . لم يكن يبدو على « فاليري » انها مهتمة بأهلها ولا بخطيبها الذي لم أكن أسمع عنه أبدا أي شيء . كانت تذهب وتأتي عبر البلد دون أن تعطي أية معلومات عن نشاطاتها أو أي تفسير لتلك النشاطات . فلماذا كانت تريد مني ؟ لقد كنت عشيقا غير مشبوب العاطفة ، يكاد لا يشعر بالحب ، يتمتع بها دون أن يهتم بمتعها هي ، ودون أن يشعر حتى بوجودها تقريبا . كنت أحيانا أراها تنسلخ عني وتتسلل خارج ذاتي ، وقد أغمضت عينيها وفتحت فمها وكأنها تحت تأثير ألم شديد . ثم لماذا كانت معجبة بـ « هريديا » الى هذه الدرجة ؟

كانت عزلتي أنا ، تزداد حدة مع الفراغ الذي كان يزداد اتساعا .
وكنت اتقبل مداعبات المرأة مثلما كنت اتقبل الملابس ووجبات الطعام
التي كانت تجلبها لي . كنت شخصا تعيسا يقوم بحركات القردة لكي
يشعر بأنه موجود .

ومع ذلك ، فقد بدأ الفراغ يحدث تأثيره السحري . والتساطيء
الذي كنت أقيم فيه كان قد أصبح جسدا عاريا وعملاقا كنت أستسلم
اليه . كانت أشعة الشمس تسلخ الأفق ولم يكن هناك أبدا أية سفينة
تأتي وتعكر هدوء البحر . وكنت أعيش موزعا بين سكoon مدينة مدفونة
والصخب المتزايد الناجم عن مدينة كانت تشاد خلف ظهري .

ان العزلة تتيح الحرية أحيانا ، وكان من الممكن أن أشعر أنى قد
تخلصت من حزني لو لم يكن حضور « سول هيرديا » غير المنظور
يشكل هاجسا يلاحقني على الدوام ، لقد كان السيد « آدامس »
مصيبا : فقد كان يبدو أن كل شيء يذكر بهذا الرجل ، بدءا من الموسيقى
التي كانت تتصاعد من دارات البلاج المجاور ، وحتى ضربات المطارق
في البيوت التي كانت قيد البناء . ومهما حاولت أن أدير ظهري ، فلم
يكن لذلك أية جدوى ، فقد كنت ، أنا أيضا ، أنتظر يوم التندشين الذي
كان قد أعلن عنه ، حيث سترفع اللافتات التي تحمل عبارة : « بلاج
العجائب » على كل امتداد الشاطيء .

كانت العربة تمر وتعود فتمر ثانية . كانت أجراسها تترك في الجو
ضجيجا مزعجا يلاحقني طيلة النهار بل وحتى أثناء نومي . فقد كان
يستحيل عليّ وأنا في كوشي العالي أن أعيش في العزلة والوحدة . فكل
ما ينشأ حولي كان مثيرا . ولم أكن أنتمي الى عالم الأسطحة الجديدة ،
هذا ، بل الى عالم أسطحة الجص والفساتين الموشاة بالبرق والترتر
الذي لم يبق منه أي شاهد سوى عمودين مغروسين في الأرض .

ومع تزايد ظهور الأشجار المورقة على الكثبان المجاورة ، كانت تتصاعد من أعماقي كراهية تزداد وضوحا ، كنت مخلوقا كريها ومنفرا ، ولكن مسكونا .

و ذات مساء عندما عدت الى الكوخ ، لا بد أن « فاليري » قد لاحظت بريقا جديدا في عيني ، لأنها اقتربت مني وهي تحديق بي بشكل غريب . ثم سألتني :

« اما زالت لديك حقا الرغبة بالانتقام ؟ »

ولاني اخذت الامس خدعا مداعبا بلا مبالاة ودون أن اجيب ، فقد اضافت قائلة :

« من الصعب ، كما تعلم ، الاستمرار في الكراهية حتى النهاية ! »

لم يكن في نظرتها قوتها وحزمها المعتادين .

وتابعت بصوت منخفض :

« الكراهية ، أنا أعرفها . صدقني ، الحب أفضل . »

كانت تبدو وكأنها تترصد كلامي ، ولكنني لم أحر جوابا . فقد كنت لا مباليا الى اقصى حد بقلقها ، و قليل الاهتمام بأن تكون حليفة لي أو عدوة . فقد اثبت الى « أوريون » لاستعيد فيها طفولتي ، وقد نبذني الجميع . كاني مصاب بالجذام . لذلك ، فلا شيء ، لا جسد تلك الفتاة ، ولا حتى فتنة وسحر السماء ، يمكن أن يمنعني من الاخذ بالشار .

كانت الايام تمر وتنقضي وهي تزيدني ثقة بأن مهمة مقدسة قد اسندت الي . لقد قضاوا على القطار الصغير ، وعلى مكسر الميناء ، وعلى المنتزه ، وشوّهوا جمال وسحر امي ، ولكنهم لم يتوصلوا لأن

يجعلوا مني شبحاً عائداً من عالم الغيب . وكانت كراهيتي هي الدليل الملموس على وجودي . وشيئاً فشيئاً استعدت قواي وبعد فترة وجيزة أدركت أنه يوجد في كل مكان أشياء جميلة وأمور توفر السعادة للناس ، وأن كل ذرة رمل هي بالحقيقة إحدى الأصداف الصغيرة ، وأن قوائم الطيور البحرية تترك على الشاطئ رسوماً تشبه أوراق الشجر ، وأن العرائش التي كانت تنتشر على الكتبان كن لها شغافية العقيق الأحمر . والكتبان الرملية نفسها بدأت تتخذ ، بالنسبة لي ملامح وأشكال الأضرحة المقدسة .

وفي وقت القيلولة ، عندما يختبئ كل الناس في « أوريون » ، من حرارة الشمس داخل الفندق الكريه الذي كان السهم فوق قبته يبدو كأنه يمثل تحدياً بين أشجار البلح ، كنت أنا ، أسير متنزّها على الشاطئ الرملي .

لم أكن أرى كثيراً العجوز « هانس » ، كان يبدو وكأنه قد تبخر في الهواء . كان يمر أحياناً أمامي دون أن يعرفني ، وفي صباح أحد الأيام ، لمحت فوق أحد المرتفعات قامة الأستاذ « جوتمان » النحيلة . كان يبدو سعيداً . وكان أنفه البارز يستنشق الهواء بلذّة . وجه لي من عينه غمزة ذات مغزى ، وصاح بي ، قائلاً :

« كيف يمكن القول أن هذا البلد لا رائحة له ؟ ... آيه ! إن هذا كلام أخرق وغير معقول ، إذ أن فيه أندراً وأثمن رائحة : ألا وهي رائحة الفضاء الرحب . »

ثم أضاف قائلاً ، بلهجة تنمّ عن اللوم والتقريع : « أصبح حدوث الأعاصير وشيكاً ، أنه يجعلنا ننتظره ولكنه سيكون جميلاً . »

وذاً ليلة ، أدركت ، بسبب الهدوء النفسي الذي كنت أنعم به ، أن ما كان يشكل غذائي الوحيد طيلة ثلاثين سنة : وهو صورة

« موريثا » ، كان قد اختفي نهائيا ، ليس من حياتي وحسب ، بل ومن جسمي أيضا . وحالما عدت الى كوكبي ، تأملت نفسي في المرأة ، فهالني فراغ وجهي وخلوه من أية تعابير . كان واضحا أن هنالك شيئا قد أفلت مني دون علمي ، وبكل توثدة وبطء المدرجة اني لم أشعر بذلك إلا في هذا المساء . خشيت من أن يكون الأمر يتعلق بعضو أساسي ، وأخذت أرتجف خوفا من بقائي بلا ذكريات ولا رغبات . ولكن ، لحسن الحظ ، لاحظت بمزيد من السرعة اني كنت اتنفس ، وأن « عربة » سول « للمرة الأولى ، كانت تمر تحت نافذتي دون أن تسبب لي أي إثارة أو انزعاج .

لقد بدا لي فجأة اشراق تلك الأرض البور الواسعة أكثر قوة ووضوحا من المعتاد . كنت حرا ومنتشيا بتأثير ذلك الضياء . انبعث صراخ من حلقتي ، كان هنالك أطفال يلعبون على الرمل ، لم تزعمجني أصواتهم المرحية .

دخلت « فاليري » الى الكوخ . رتبت بعض الأشياء على المنضدة وخلعت ملابسها . خلعت ملابسني أنا أيضا واستلقيت بجانبها .

سألتنى الفتاة وهي تضع يدها الباردة على ذراعي :

« ماذا يحدث ؟ قلت : انظري الي » ، تأمليني جيدا ! » .

كانت قد تراجععت نحو الجدار . صرخت :

« كلا ، كلا ليس بعد » .

امسكت فخلديها المنطوين ، وجلبتنيما نحوي . وللمرة الأولى منذ أن عايشت « فاليري » ، شعرت بالرغبة بأن أضعها وأن أبقى ملتصقا بها .

تابعت قائلاً بهذوء ولطف :

« إني على استعداد » .

- ١٥ -

منذ أن دخل الكوخ ، عرفت من وجهه النحيل .

قلت له : « كنت أعرف أنك ستأتي » .

وجه لي الشاب عينيّن كان جفناهما يبدوان مشلولين .

سألني دون مقدمات : « هل هي سعيدة ؟ » .

شعرت بانتفاضة تعتريني .

« لا أعرف عن ذلك شيئاً .

— ألم تلق على نفسك هذا السؤال أبدا ؟

— كلا .

— « إني أرثي لك » .

ساد صمت طال أمده كنت خلاله أحول استعادة رباطة جأشي .

كان الزائر قد رفض الجلوس على الكرسي الذي قدمته له وأرغمني بذلك على البقاء مرتبكاً وواقفاً أمامه في وسط الغرفة .

« إننا ، أنا و « فاليري » لم نوقع أو نتفق على شيء . وإحवाल

مزاجها تخصها وحدها » .

- ١٦ -

لو استمر محدثي بمراقبتي بهذا الشكل ، فاني لن استطيع تحمل
نظراته طويلا .

اخيرا قال : « غدا ، سيدشن بلاج « سول » .

— وقد أتيت لابلاغي ذلك ؟

« ربما » .

كانت عينا الرجل الصافيثان جاحظتين تماما . ولم يرف
جفناهما أبدا .

أضاف قائلا :

« اتعرف ما هو الاسم الذي اختاره لمشروعه ؟

— إن هذا يبعث على السخرية .

— إنك مخطيء » .

ماذا كان يريد ؟ وما هو الدافع لقيامه بهذه الزيارة ؟

كان الجو مثقلا جدا في الغرفة وكنت أرغب بفتح النافذة ، ولكن
نظراته الجامدة سمرتني في مكاني . لم ترجع « فاليري » وقد بدأت
أشعر بالانزعاج لغيابها . اقترب الشاب مني .

« لقد رافقت « سول » في كفاحه ضد الرمال ، امرأة . وهذه
المرأة شجيمته وإمانته على عدم التخلي ... » .

بدرت مني ضحكة خفيفة .

تابع الرجل : « لقد ماتت ، وسيطلق « سول » اسمها على
مشروعه » .

شعرت برعشة تنتابني . ما هذه السخرية ؟ لا يمكن أن يكون هذا المجهول يجهل بأنني كنت مطلعاً على كل شيء ، وأنني كنت أعرف تماماً الدور الذي قامت به أمي في حياة ذلك السيد .

أضاف الرجل وكأنه بذلك يتجاوب مع أفكاري :

« لقد كانت قديسة .

— قديسة ! » .

التفت نحوه فجأة . لقد تبادى هذه المرة . صرخت به : « كل هذا لا يهمني بشيء ، فأنا أهتم بما يعنيني وأنصحك بأن تفعل مثلي » .

تنهد الشاب وداعب قفا خذائه بطرف سوطه ، ثم اقترب من النافذة وفتحها على مصراعها ، وقال لي :

« انظر ! » .

الى يسارنا ، وعلى بعد كيلو مترين ، كان البلاج مضاءً ، تتلأأ فيه الأنوار كما في الأعياد الشعبية . وكان مكسره الكبير الممتد داخل مياه البحر يفص بالمتفرجين والفضوليين . وكانت الحان الموسيقى تبلغ مسامعنا . كانت قد هبت الرياح وأخذت تلفح قوائم حصان كان يسير بمحاذاة الشاطئ . وبدأت فقهقات الضحك تتعالى من أفواه ذلك الجمهور المحتشد . كنت أجد صعوبة في التنفس . كان كل شيء يتدافع مسرعاً بشكل مفاجيء كما لو أنه كان على أحدهم أن ينهي حياته مهما كان الثمن . خطوت خطوة نحو الباب ولكن شيئاً ما سمرني في مكاني . كانت تلك ضحكة قادمة من جهة البحر ، ضحكة لا يمكن ثقلها . ثم ساد الصمت . أغلقت النافذة بغضب شديد .

صحت بأعلى صوتي : « العجائب ، ليست للفقراء . ماذا تريد
أن أصنع بها ، أنا ؟ »

لمس الشاب صدري بطرف أصابعه ، فتراجعت قليلا . أحس
رأسه ، هز كتفيه وتناول معطفه الذي كان قد وضعه على إحدى الكراسي .

سألني : « هل أنت متأكد أنك غير مخطيء ؟ »

— مخطيء ، أنا ! بشأن أي شيء ؟

— بشأن كراهيتك ، مثلا . فهل أنت واثق من أنها لا تتضمن شيئا
آخر ؟ » كان قد لمس صدري ثانية . وكان وجهه قد ازداد نحولا وطولا
كما لو كان ذلك بتأثير وفعل كآبة شديدة .

قلت : أنك تزعجني ، لديّ عمل يجب أن أنجزه .

— حسن ، حسن . ولكن قبل أن تنصرف الى مملك ، كما تقول ،
أصغ الى نفسك ، نعم أصغ الى صوتك الداخلي جيدا .

كانت الرياح ، منذ لحظات ، تعصف بشدة محدثة ضجيجا .
كان ضجيجها يثير القلق لأنه كان يزعمزع جذران كوخني . كان الشاب
قد أدار لي ظهره لكي يفتح الباب . رأيت يلف بمعطفه ، يقفز على ظهر
حصانه ، دون أن يضيف كلمة واحدة ، ويتوارى في ظلام الليل .

عندما رأيت يختفي استولى علي القلق ، لأن الظلام ، وإن كان
يتخلله البرق ، فقد كان سواده تامسا ، وكانت الرمال التي تعصف بها
وتثيرها الرياح تملأ الجو وتجعل كل شيء خطيرا جدا .

ضرخت بصوت عال : « آه ! آه ! هيه ، أيها الصديق ! .. هيه ،
انتظر قليلا ! » ولكن الحصان وراكبه كانا قد ذابا تحت المطر الذي كان

ينهمر بغزارة علي الكثبان الرملية . كانت الأشجار تلتوي وقد أغمضت عيني لأحمي بصري . لقد كان هذا الشاب مجنوناً ، فلا أحد يستطيع حماية نفسه من الأعصار . وكان هو يعرف ذلك جيداً . فقد كان ابن المنطقة ، بل ويبدو أنه كان يتمتع ببعض صفات العرافين . صحت عالياً : « هيه !.. هيه !.. أرجع !.. لكن زائري لم يجبنني ، فقد ابتلعتهم العاصفة ، والرياح . أغلقت باب الكوخ وجبست فيه صراخي .

وحالما أصبحت وحيداً ، انتابني من جديد احساس بأنني في عرض البحر ، تحت رحمة العاصفة ، وأكاد أحسد زائري لأنه يملك حصانا يستطيع بواسطته النجاة من المنطقة المهددة . كان ضجيج الرياح قد أصبح يصم الأذان . انهار غصن شجرة أو كاليبتوس على زجاج نافذتي وحطمه . واهتزت صورة « سول » وسقطت قرب السرير . كان المطر يقرع الجدران الخشبية . والمياه تتساقط بكتل كثيفة ، والصراخ يتعالى من البلاج :

« كان المعجوز « هانس » قد قال : لا أحد يشعر بشيء ، فالسماء تكون صافية وهادئة تماماً . وتسمع بعض القهقهات ، ثم الأعصار ، الأبيض ، ينفجر ! »

سقف كوخ سينهار عما قليل ، تراجعت حتى التصقت بالجدار وبينما كنت أمد ذراعي لتجنب الإصابة بقطعة من جسر كان يسقط من السقف ، كان الدم يسيل من جرحي ولم أكن أشعر بأي ألم بسبب ذلك ، كان لدي فقط احساس مزعج بالوحدة . نجحت بالتخلص من الجسر الذي كان يحتجز كتفي ووصلت الى سرير زحفاً على ركبتي .

عما قريب سينتهي كل شيء ، سينتهي تماماً . والكثبان وهي غير ثابتة أخذت تتفتت وتنهار . ومعني أنا ، ربما لن يبقى سوى كتلة غير معروفة . يمكن أن تذهب فتتضم الى ماتبقى من حطام الفندق . أما « سول » ، من جهته ، فكأنت تحديه تلاله العالية وجدرانها المتينة .

وغدا سوف يستطيع تدشين مدينته . بينما يكون عدوه ملقى في مياه
مجهولة وقد فارق الحياة .

وسوف يقول الذين يرون قطع الخشب المنتصبة فوق الرمال :
« هذه بقايا الكوخ الذي كان مبنيا على اعمدة » .

وبينما كنت أتلوى على سرير لم يكن قد بقي منه سوى فراش من
القش لا شكل له ، شعرت فجأة بعضلاتي تتمدد وقلبي يهدأ روعه
عندما راودتني فكرة مؤداها أن كل شيء يوشك أن ينتهي ، وأني ، حتما
سأصبح جزءا من عالم مدفون وأني ، لن يكون علي غدا أن أبغض أحدا .

ولكن ماذا كانت تعني زيارة خطيب « فاليري » المزعوم ؟ قبل
رحيله ، كان يجب عليّ أن أفهم ذلك ، ولكنّ المياه التي كانت تتدفق من
شقوق الخشب كانت تمنعني من التفكير .

لماذا أرسل لي « سول » هذا الشاب ذا العينين الخجولتين ، ولماذا
كان ذلك في هذا المساء بالذات الذي كان ينقض فيه الأعصار علينا ؟
وماذا كان يقصد من القائه في ذهني ، على لسان هذا الملاك السيء اسم
أمي ؟ تلك « الهندية التافهة ، التي لاتساوي شيئا » سوف تصبح عرابة
« بلال المعجائب » وسيكتب اسمها بأحرف كبيرة على جدران وأبواب
الغيلات ، على حد قوله . كان ذلك مضحكا ، وفضلا ، ويبعث على
السخرية . كنت أعامل كمعتوه ، أو كاني متخلف عقليا . كانوا يسحقونني
ملوحين أمامي بصورة أمي متنكرة في زيّ العذراء ! لم يكن هنالك أي شك ،
فقد كان « سول » يتوقع الأعصار ، إذ أن الاستاذ « جوتمان » لابد أنه
قد أطلعه على ذلك ، وقد أرسل لي موفدا ليوقف يدي عن العمل . يا له
من مغفل ! كيف استطاع أن يصدق أنني سأقع في الفخ ؟

كان رأسي يتقلب ويتدحرج على المخدة ، لقد كان « سول » يعرف
ماذا يفعل . فكراهيتي ، كراهيتي المسكينة لم تعد تستند الا على خيط

رفيع . فبعد أن تغلّدت بالسهرات ، والفثيانات ، وبالرغبات التي لا يمكن الاعتراف بها ، فانها لم تعد سوى دفق طويل أحمر كان يخرج من جرح في كتفي فيبيل فراشي المحشي بالقش الذي كان قد بلله المطر ومياه البحر .

هزّنتني فجأة ضحكة قوية ، ضحكة طفل ضخّم الحثة كان على وشك البكاء . كان « سول » يعرفني ، ويعرفني جيدا ويدرك القلق الذي كان يثتأبني دائما من ذكر أمي . وقد كان لديه أيضا حس بالمواقف المسرحية وميل إليها . كان الأعصار سينهي دفن « أوريون - بلّاج » وعمل شبابه ، وحالما يموت كل ذلك ويموت تملما ، سوف يستطيع أن يدشن بأمان واطمئنان « بلّاج العجائب » العائد له .

والبحر لشدة صخبه واضطرابه كان يبلغ السماء التي لم تعد سوى خطا أرجوانيا . ولكي يستجمع قواه ، كان يتراجع جارفا معه جذوع الأشجار .

« بيوت بأكملها قد اختفت ، يا سيد أوريون ! »

ولكن زائري ماذا حدث له ؟ ان أي فتى من أبناء المنطقة لا يمكن أن يجهل أن الأعصار كان على أهبة الحدوث . فلماذا خاطر اذن بالحضور الى عندي ؟ ولماذا اطاع سيده ؟ ومن الذي ابّلع « سول » اني كنت متهايا ؟ كانت الأفكار تزدهم وتختلط في ذهني وقد فقدت طريقي في اللحظة التي كنتك أوشك أن أجد فيها جوابا لأحد تساؤلاتي . كان لدي انطباع بأنني سقطت في شبكة ملأى بالأسماك وأن علي أن اتخبط بين أجسامها اللزجة . ومع ذلك فقد تبادرت فجأة الى ذهني فكرة أكثر وضوحا من الأفكار الأخرى : ان هذا الفتى ذا الوجه النحيل والعينين البراقنتين كان قد جازف بحياته لينقذ حياة « سول هيريديا » ، كنت أعتبر ذلك بديها تاما ! ولكن لماذا ؟ لماذا كان ذلك بديها تاما ؟ أمسكت رأسي بكلتا يدي . كان يطفو من جديد ، من موجة الى أخرى ، بمفرده ، وقد انفصل عن جسمي . وبفجأة ، راودني شعور من الأمل ، وهكذا فقد

تذكرت ان البحر ، يوم وصولي ، كان قد غمر بمياهه جسمي بكامله
ودحرجني على الرمال ليخلصني من كوابيسي ومن الاحلام المزعجة التي
كانت تنتابني :

صرخت بأعلى صوتي : « فاليري ! » ، ولكن « فاليري » كانت
بعيدة ، بل بعيدة جدا عني . ولن تجازف بحياتها لتنقذ حياتي ، كلا ،
بالتأكيد لن يحدث ذلك . انها ستسلمني الى « سول » ، كما كانت قد
سلمتني له - « مورينا » . أين كانت اذن « فاليري » ؟ صحت بأعلى
صوتي : « فاليري » ! . . . كان قد طار قسم من سقف كوشي في الهواء .
وعلى الأرض ، كانت صورة « سول » تشكل بقعة مستطيلة . كنت
مبتلا من رأسي الى اخمص قدمي ولم أعد أشكل سوى كتلة واحدة مع
سريري . كانت مياه البحر التي ازدادت كثافتها بما تحمل من رمال ،
تندفع نحوي بقوة فيصلني بعض رذاذها . كنت « فاليري » محقة
بقيامها بخيانتني ، وبمراقبتي ورصد حركاتي ليلة بعد أخرى ،
وبتسليمي الى عشيقها . فقد كانت من النوع الذي يعمل ويتصرف ،
بينما انا ، لم أكن شيئا ، لم أكن شيئا على الاطلاق ، حتى ولا رجلا عاديا .

كان البحر يتعالى باستمرار فافرا فمه . وكانت أعمدة وجسور
الأسطحة تتهاوى . وكانت الثغرة التي فتحت في الجدار تزداد اتساعا
تحت نظري . « فاليري » ! . . . « فاليري » ! كنت أشعر بالحاجة الماسة
لكتف امرأة أسند عليه رأسي وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة ، وبالحاجة الى
انفاس امرأة تتردد بالقرب مني . نهضت باذلا جهدا أخيرا ، ولكن كل
منافذ الغرفة كانت مغلقة ولم أستطع رؤية شيء . « فاليري » ! حتى
ولا الضياء الذي تحدثه الصاعقة ، « فاليري » ! . . . كلا ، لا شيء سوى
الدم والماء .

- ١٦ -

عندما أدركت انه قد أصبح الصباح ، كانت ابنة « جيروم و. آدامس »
بجانبني .

- ١٨٢ -

قلت ،- لاهنا : « هذه أنت ؟

قالت : - نعم ، لقد انتهى كل شيء . »

كانت الفتاة قد ضمدت جراحي اثناء نومي .

سألتني وهي تلامس جبيني برفق :

« انك لم تنزف طويلا ، اليس كذلك ؟

- ليس منذ طفولتي ، وأنا بالحققة لا اشعر بأي ألم . »

كانت « فاليري » وهي تستند عليّ تبدو حارة وجاقة . فقد عفا
عنها الاعصار ونجت منه . ولماذا حدث ذلك ؟ وأنا ، ماذا كنت أعمل بين
بقايا وحطام كوكبي ، وأنا حي ؟

« لماذا رجعت ؟ »

رفعت رأسها ووجهت نحوي عيني متوهجتين ، ثم بحركة طفولية ،
خبات فمها في صدري .

تمتمت قائلة : « لأن ... لأن ... »

- وخطيبك ؟

- لا يهمني كثيرا

- و « سول » ؟

- اسكبت . »

أبرزت وجهها ومرت بشفتيها على عينيّ . ثم ، بعد أن تمددت على
سريري ، والصقت بطنها ببطني ، ضمتني بين ذراعيها وأخذت تنادينني
كما لم تفعل ذلك من قبل أبدا .

بعد بضع لحظات ، عندما انفصلت عني ، فتحت « فاليري » عينيها
تم اغمضتهما في الحال وارتمت على ظهرها دون أن تنبس ببنت شفة .
كان عنقها ونهداها مبقعين بالدم .

قلت بصوت خافت : « شكرا » . فلم تجب بشيء .

سألتها ، لماذا ما زلت حيا ؟

— الكوخ مبني على أعمدة . ولذلك أسكنتك فيه .

— ولكن ماذا حدث ؟

— أعصار .

— وماذا عن الفندق ؟

لم تجب على سؤالي .

سألتها : هل ستريني ماذا بقي من « أوريون — بلاج » ؟

همست بالجواب : — نعم . «

ودون أن تنفصل عني ، ساعدتني الفتاة على النهوض ، ودهشت
لعدم شعوري عند ذلك بأي تعب أو انزعاج رغم وجود الجرح في كتفي .
خرجنا متشابكين دون أن يكون بنا حاجة لفتح الباب ، لأنه لم يكن قد بقي
من كوخنا المبني على أعمدة سوى بعض الجوانب التي قاومت الأعصار ،
فظلت منفرسة في أرض لا يمكن تبين معالمها . كانت صورة « سول » قد
اختفت ، ولم يبق من أشجار الكينا الضخمة التي كانت خلف البيت
سوى الحطام .

كان الشاطئ يفص باناس مدعورين يتراكمون في كل الاتجاهات .
كان كل منهم يمسك بالآخر كالفرقى . كنت انا و « فاليري » نسير باتجاه
الفندق . لم تكن قد بقيت شجرة سليمة بعد الكارثة ولاحظت وقلبي
منقبض ، أن العمودين الحجريين اللذين كنت المسهما عند مروري لم يعودا
في مكانهما . وعلى شاكلتهما ، دون شك ، كان قد دفن قطاري ، قصري
وكنيستي . كنا نمشي صامتين ، كما لو كنا في حرم كاتدرائية . وفي نهاية
ما كان يشكل سابقا ممشى اشجار النخيل ، الكبير ، كان هنالك كثيب
اكثر ارتفاعا من الكتبان الاخرى ، يتلالا في الصباح ، بعد ان جففت أولى
اشعة الشمس ، في ذلك اليوم . وكثيب مسطح يخترقه سهم من التوتياء .

كان هنالك اناس من كل الاجناس ، ومن كل الأعمار ، يرتدون قمصان
النوم ، او الملابس الملونة الغريبة الشكل ، يسرون جيئة وذهابا ، وتبدر
منهم حركات تنم عن اليأس ، متجولين على تلك الأرض التي تعرت من
كل شيء . كانوا يحيطون ، بكل بلاهة ، بوالد « فاليري » الذي كان يقف
ساكنا ، لا يبدي حراكا امام حطام ما كان ملكيته فيما مضى .

الا وهو فندق « أوريون — بلانج » !

اقترب منا رجل طويل القامة ، على راسه قبعة صغيرة بيضاء .
وقال :

« انه مدهش ... الا ترونه هكذا ؟ لقد رايت واحدا يمثل جماله
في استراليا ، منذ خمسة عشر عاما على الأقل ، ولكن منذ ذلك الحين
لم أر مثله ابدا ، حتى كدت أياأس ، ولا بد من القول أنه جعلنا ننتظر
طويلا ، ولكن أخيرا ! يا لروعته ! واودف يقول فجأة : « ولكن ، أرجو
المعذرة ، انكما عاشقان ، على ما يبدو لي ، فماذا تهكما الاعاضير ؟ ويكون
لديكما دائما الوقت للنظر والتطلع عندما لم يعد ينظر اليكما أحد . »

حول انظاره عنا . وكانت نظارته ترتعش من وقت الى آخر على
أنفه الكبير .

قال فجأة بلهجة المنارة: « آه! كدت أنسى: هذا المساء؛ سيتم تدشين بلّاج « العجائب ».. هل تظلمان ماذا سيستونه؟ « مورينا مار » ، أنيس اسمًا جميلًا؟ « مورينا » هو اسم المرأة التي كانت رفيقة السيد « هريديا » . قديسة ، على ما قيل لي . انها... »

لم أكن أصغي إليه بعد ذلك ، فقد سحقتني كلام الأستاذ ، وسحقتني قوة كانت تتجاوزني إلى أن تجعلني أغوص في قرارة كياني الذي لم يكن قد توصلني جتي إلى الدوبان والانحلال في العاصفة .

كانت « فاليري » تضطر لأن تسندني كي أستطيع الوصول إلى شاطئ البحر : لم يكن رأسي قد أصبح سوى كتلة متقلصة ، تمكث بشكل ما على عنقي .

لم تكن الفتاة تنبس ببنت شفة ، وكانت تشد على يدي بكلتا يديها . وكنت أعلم أنه لم يعد علي سوى أن أتبعها لكي تتبعني هي أيضا إلى أي مكان كان . كنت أشعر أنها كانت راضية عني ، وأني ألقى القبول لديها مع كل بؤس وشقائي . كان الألم الذي أحسه مضنيا شديدا الوطاة . كان كل شيء يفوتني ويفرب عن بالي ، حتى الكراهية ، الكراهية الطبقية التي تغذت ونمت طيلة عشرين سنة . كان كل شيء يفوتني تحت وطأة ارادة رجل قوي كان قد ابتكر وسيلة لا يقاوم ذراعي بوضعه وجه أمي في مزود العبداء .

كان رجوع مياه البحر مستمرا ، كانت تلك المياه خفيفة ونظيفة على شاطئ تنتشر عليه أغصان الأشجار والأسماك الميتة . كانت بعض بقايا المظلات ترتفع كاستغاثات الفرقى في وسط البلّاج . كان السكون الذي يلي الكوارث الكبرى يتسم بما يشبه الاحتفالات القدسية ، التي كانت تفرض إيقاعها على خطواتي . وشعرت من جديد ، أنني أسير في حرم كاتدرائية . كانت يد بضعة تغمر يدي بالدفع... ودون أن نشعر بذلك ، كنت أنا و « فاليري » قد اجتزنا الحدود وكدنا نصبح في أرض معادية .

لم تقوَ خيام « بلاج العجائب » على مقاومة الأعصار ، ولكن الفيلات
ظلت قائمة ، تبدو من خلال أشجار الصنوبر التي تحيط بها . كان
هنالك قرويون مزودون بالمعاول والرفوش يحفرون الرمال التي تجمعت
أثناء الليل أمام الأبواب ، ويلقونها على الشاطيء . وهنا ، كانت الشوارع
قد خططت بدقة وشقت بين المنازل . والكثبان لم تكن اكواما من الرمل
الخام كما في « أوريون » ، بل روابي وتلال جميلة ، زرعت بالحشائش
والاعشاب الانكليزية .

مر من أمامنا فتى يمتطي حصانا دون سرج ، وأخذ يصرخ بأعلى
صوته : « الى الامام أيها الجنود ، اتبعوا الريشة التي تزين رأسي !
وكما لو أن الاضواء قد جذبتنا ، فقد لحقنا أنا و « فاليري » الفتى الذي
شجعنا وفتح لنا الطريق . ولكنه ويا للأسف ! كان قد اختفى بسرعة
كبيرة في ممشى تحيط بها أشجار الزيزفون .

سرنا بمحاذاة منازل فخمة وصالون لتقديم الشاي ، وحاثوت
لبيع الخردوات الاميركية . واجتزنا أحراجا صغيرة تفوح من خلالها
رائحة العطر . رأينا نباتات كمنافض الريش العملاقة تنبثق من الرمل ،
وبعد قليل ، بينما كنا نكاد نضيع في ممشى تكتنفه شجيرات الورد ، لحنا
قصر « سول هيريديا » منتصبا على قمة رابية تطل على الشاطيء .

كانت قطعة قماش ، ذات لون ملكي ، لون البحر والغضب ،
معلقة على الشرفة وقد عرفت أنها الوشاح الاسباني الذي كانت « مورينا »
ترتديه في أمسيات الاستقبال .

في الحديقة التي تنحدر نحو الشاطيء ، عرفت أيضا سرير طفولتي
الذي كانت أُمي تحب أن تملأه بالزهور لتثير دهشة صديقاتها . كان
هنالك رجل ، اعتقدت أنني تبيننت فيه ملامح العجوز « هانس » ، كان
منهمكا بتجديد تراب الحديقة بما يلقيه فيها برفشه الصغير . قرأت

على باب الحديقة هاتين الكلمتين : « فيلا مورينا » مكتوبتين بحروف برونزية صقلت ولعت حديثا .

قال البستاني ، وهو يلتفت نحوي بوجهه المجهول : « نعم ، يا سيدي ، ستدشن هذه القرية مساء اليوم ، وسيطلق عليها اسم : « مورينا مار » . و « مورينا » هو اسم قديسة » . ثم أضاف وهو يلتفت نحو رفيقتي :

« آنسة فاليري ، ألا تدخلين في هذا الصباح ، فالسيد موجود وحده » . ولكن الفتاة أشاحت بوجهها عنه دون أن تجيب .

عند نهاية « بلاج العجائب » ، ونهاية حداثته وتلاله ، التي لم يكد الأعصار يمسها بسوء ، كانت تمتد الصحراء . تلك الصحراء التي لم أجروء على الاقتراب منها منذ طفولتي والتي أحتفظ لها بذكرى غامضة ومثيرة متمثلة ببطن كبير لاحدى النساء . على الشاطئ ، وقرب هيكل احدى السفن ، كان الفتى الذي اعتبر نفسه جنديا ، يلعب لعبة العسكر ، قد ترك حصانه واستسلم للنوم .

قالت « فاليري » : « لنتوقف هنا » ، اطعمتها وأخذت أفك أزرار قميصي . نزع الفتاة صدريتها وبعد ثوان معدودة تخلّصت من لباس البحر (المايو) وألقته بعيدا . كان الماء عند أقدامنا هادئا يكاد لا يتحرك إلا بدفعات خفيفة . لففت ذراعي حول قامة رفيقتي العارية وارتمينا في أحضان البحر .

غطست في الماء الذي عكرته العاصفة ، دون أن ألتفت بكلمة كانت « فاليري » تتبعني ملتفة بي . لم يسبق لنا أبدا أن سبحنا سوية . كانت يداها الناعمتان كقشر الأسماك تلمسانني وتحسسان جسمي . وعندما اندفعت عبر التيارات ، ظل ساقاها ملتفتين حول ساقَي .

وعلى الشاطئ ، كان الفتى قد استيقظ وأخذ يبحث عنا بنظريه .
وحالما لمحنا ، القى بنفسه في الماء وحاول أن يلحق بالجسم الوحيد
المتحرك الذي كنا ، أنا و « فاليري » ، نكونه ، وأن يستولي عليه . ولكنه
تعب بسرعة وملّ من لعبته فتخلّى عنها وذهب فجلس على الرمل .

كانت برودة الماء منعشة . ولم يعد لـ « فاليري » وزن ، أو ثقل .
كنت أشعر أنها قد تدخلت من الدفاع عن نفسها ، وأنها لن تكون أبدا بعد
الآن إلا كما تمنيتها أن تكون : مطوعة ، عذبة وممشوقة القامة ، وكما لو
كانت تريد أن تؤكد لي انصياعها وخضوعها ، كانت تلتفت بي ثم تبتعد ،
متجاوبة مع أدنى ضغط من يدي أو من ساقي .

كنت أشعر بحرق في كتفي اليسر يجعلني أقطب حاجبي . كان
ذلك هو الجرح الذي أصبت به في الليل وقد امتلأ بالملح . والفتى ، بعد
أن ملّ من مراقبتنا ، قهقه ضاحكا وغادرنا .

لم يكن يعكر هدوء الشاطئ سوى رجوع الأمواج . خرجنا من الماء
وفي الحال استولى علينا خمول الظهيرة .

صحت بكل قواي : « كلا ! لا أريد أن أنام ثلجية بعد الآن أبدا » .

بريق ينم عن البهجة بالنصر وسّع حدقتي « فاليري » ، فأخذت تركض
كما فعل الفتى الذي كان يلاحقنا . كان شعرها متدلّيا على ظهرها ،
ويلامس خصرها . كان نهذاها منتصبين تحت أشعة الشمس . أردت
أن أمسكها ، ولكنها أفلتت مني وعادت إلى الماء ، أخافت إحدى
المحاربات ، أفرغتها والتهمتها . ثم حفرت في الرمل لتستخرج منه
أصدافا أخرى . كان فخذها يلعبان ، وساقاها كانا حارين . عندما
انحنيت عليها شعرت أن جرحي قد انفتح ، ورغم الألم الذي شعرت
به عند ذلك ، بسطت ذراعي لأمنع « فاليري » من العودة إلى البحر ،
ولكنها ، مرة أخرى ، تسللت من بين أصابعي .

عندما خرجت من الماء ، كان وجهها شاحبا جدا ، وقد انبسطت
اساريرها عن ابتسامة . وقفت قبالة الشمس ثم تمددت على ظهرها
متخذة وضعية من يتعرض للتعذيب : الساقان متباعدتان والذراعان
متشابكان على الصلح .

كنت انا ، هذه المرة ، الذي تقدمت نحوها ، وبعد ان لامستها
وداعبتها مطولا ، غطيت بجسمي كامل جسمها .



الفهرس

| | |
|-----|----------------------------------|
| ٧ | الزوجان |
| ١٩ | الدسكرة أو القرية الصغيرة |
| ٥٣ | السيدة القصيرة ذات الرداء الأسود |
| ٦٧ | الفصد والنزيف |
| ٧٥ | الاطار الدائري |
| ٨١ | لعبة الخوف |
| ١١٢ | الأبواب المؤدية إلى الرمال |

۱۹۹۲/۱۱/۱ ط ۳...

ليست «الوسادة السوداء» مجموعة من الاقاصيص المتتالية، المستقلة عن بعضها سوى في ظاهر الأمر، فرغم تنوع المواضيع، فهي تقود القارئ رغم تنوع المواضيع إلى عالم موحد، ترتبط فيه الشخصيات فيما بينها بقراءة فنية عالم لا يمكن الانسلاخ عنه، اذ لا تكاد تنفذ إليه حتى تلاحظ انه مسكون بالظلال والاشباح، ومنفتح على آفاق ومجالات لا يمكن توقعها. فهو لا يدي بعض الجوانب والمشاهد الواقعية الا ليجعلنا نستسلم بشكل أفضل إلى الخيال وعوالمه. ففي هذه القصص، الأشياء نفسها تتمتع بالقدرة والسلطة، فإطار قديم يمكن ان يصبح فخاً، وصورة من الماضي يمكن ان تبعث الحياة في بعض الكائنات. أبواب تفتح لتفسح المجال للمرور وجوه راحلة، ثم تعيدها إلى الحياة، فتجعلها تدخل في قدر ومصير الاحياء. والماضي والحاضر يتجاوزان حدودهما ويتحدان عبر وسوس مأساوية. ففي قصة «الدسكرة» مثلاً، هل يمكننا ان نعرف على الاطلاق، فيما اذا كانت بطله القصة قد قتلت الرجل الذي سبق لها ان عرفته واعتقدت انها التقت به من جديد؟ ومركز استحمام «أوريون بلانج» في قصة «أبواب الرمل» هل تهدم بسبب غيرة عاشق أم ان الاعصار هو الذي هدمه؟ هذا الكتاب مسكون بالاشباح، اشباح ما هي سوى وليدة الذاكرة.

المؤلفة غلوريا ألكوترا المولودة في فرنسا، من ابوين أرجنتينيين، تعيش منذ زمن طويل في يونس آيرس، وطن بورجس مركز اليس وكبورتازار. وساباتو الذي ستنشر له قريباً وزارة الثقافة (ملاك المحيم) وهي تقول عن الأرجنتين ان اسمها شاعري ولا يمكنك ان تتصور تاريخها وجغرافيتها الا عبر الخيال والاساطير أهم أعمال المؤلفة مكتوبة بالفرنسية أو بالاسبانية، وكلها قصص وأقاصيص وقصائد يختلط فيها الخيال بالواقع بشكل لا تستطيع معه التمييز بينهما. وقد اثنى عليها اثنان من كبار شعراء فرنسا هما (سان جون بيرس) و(سوبر فيل).

(الوسادة السوداء) مكتوبة من الأصل باللغة الفرنسية، وقد أتى نقلها إلى العربية مطابقاً للأصل بياناً ومضموناً.

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٥

في الاقطار العربية مايمادل

٢٥. ل. ص

سرايكت داخل القطر

١٢٥. ل. ص